

فايز قوصرة

الرحالة في محافظة ادلب

اطلالة تاريخية

الجزء الأول

محافظـــة ادلب
بـوابة الحضـــارة
الســورية
١

تاليـف
فايز قوصرة

الرحالة في محافظة ادلب

قوصرة

(اطـلالة تاريخيـة)

الجـزء الأول

الطبعة الاولى : ١٤٠٥هـ ــ ١٩٨٥م

١ ــ ٥٠٠٠ نسخة

مطبعة الشرق بحلب

بترخيص من وزارة الاعلام رقم ١١٣١٨ تاريخ ١٨/٣/١٩٨٥

الغلاف من تصميم الفنان : **الاستاذ عبد الرزاق غنوم**

الخـطوط : **فاتـح قوصرة**

وضع الفهارس : **عبد اللطيف جباس**

الخرائط : **محمد خير مبيض**

الاهداء

الى التي رحلت من بلاد بعيدة ·· حباً ببلدي

الى التي شاركتني عملي وجهدي وهمي في كتابة ماقدمت

الى زوجــتي الصــابرة

تحية حب وإكبــار

فــايـز

قانون رقم (٤٦٨)

تاريخ ١٨ /١١/ ١٩٥٧

أقر مجلس النواب وأصدر رئيس الجمهورية القانون الآتي :

مـادة ١ : يحـدث في أقضية حلب الغربية محافظة تسمى (محافظة ادلب) يكون مركزها مدينة ادلب ٠ وتتألف من قضاء ادلب الحالي وأقضية جسر الشغور ـ حارم ـ المعـرة ٠ وتشكل حدود هذه الاقضية ـ حدود المحافظة المحدثة ٠

ينفذ هذا القانون بعد استصدار قانـون بتعديل ملاكات الوزارات المختصة ورصد الاعتمادات لذلك ٠

وزراء الدولة مكلفون بتنفيذ احكام هذا القانون ٠

دمشق في ١٨ /١١/ ١٩٥٧ رئيس الجمهورية

- بلاغ -

رقم ١٢ / ب

رقم ٣٤ / ١٥

لما كان قد تقرر وضع القانون المتضمن احداث محافظة ادلب موضع التنفيذ اعتبارا من ١/٧/١٩٦٠ فاننا نطلب من الوزارات العامة والادارات العامة أن تلحظ في ميزانيتها للعام المالي ١٩٦٠ – ١٩٦١ الاعتمادات اللازمة لما يضمن تنفيذ ذلك بالنسبة لكل منها.

دمشق في ٥ / ٤ / ١٩٦٠

رئيس مجلس الوزراء

مررتُ برسم في سِياث (١) فراعني

به زجل الأحجار تحت المعاولِ

تناولَها عَبْلُ الذراع كانما

رمى الدهرُ فيما بينهم حربَ وائلِ

أتُتلفها ؟ شلَّت يمينُك ! خلَّها

لمعتبرٍ أو زائر أو مُسائلِ

منازلُ قومٍ حدَّثتنا حديثَهم

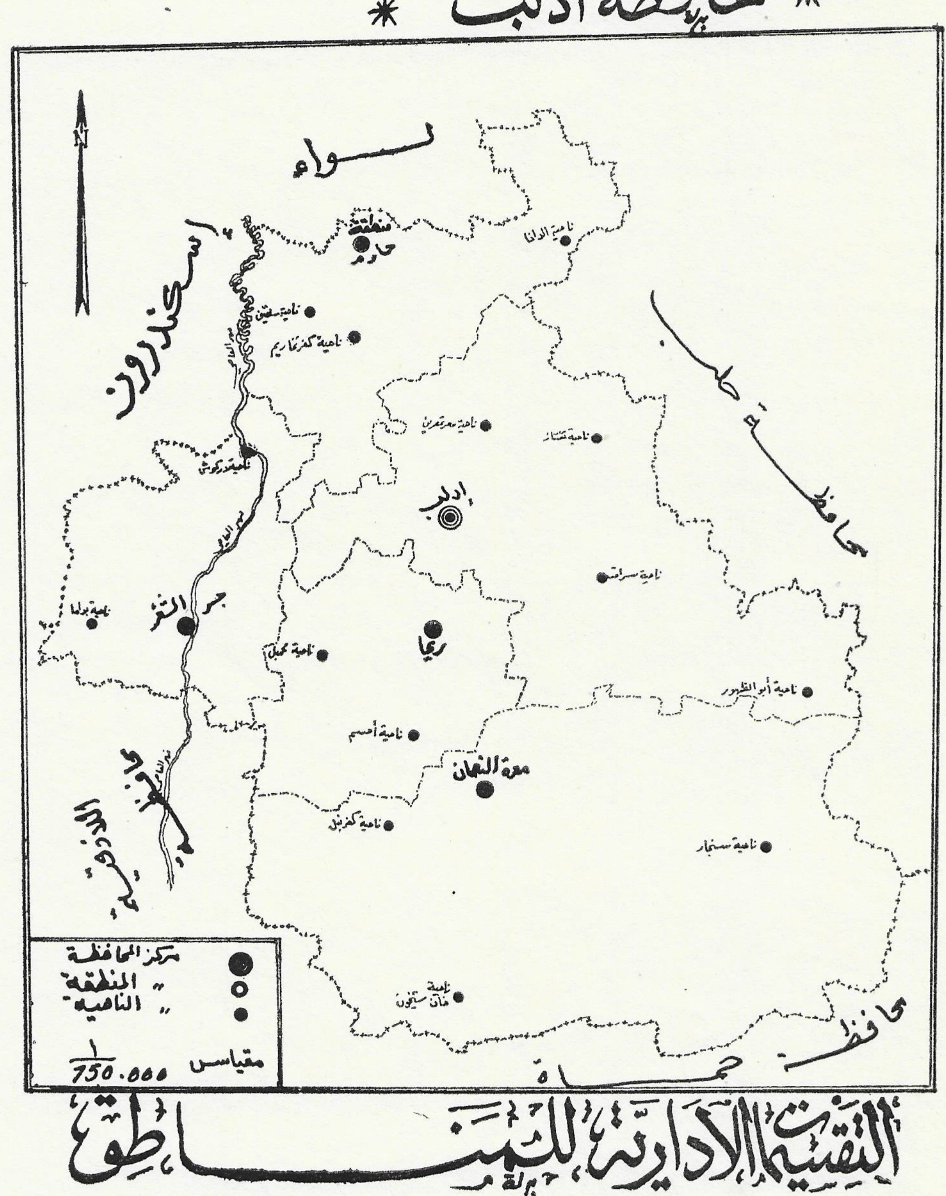
ولم أرَ أحلى من حديثِ المنازلِ

« القاضي أبو يعلي المعري »

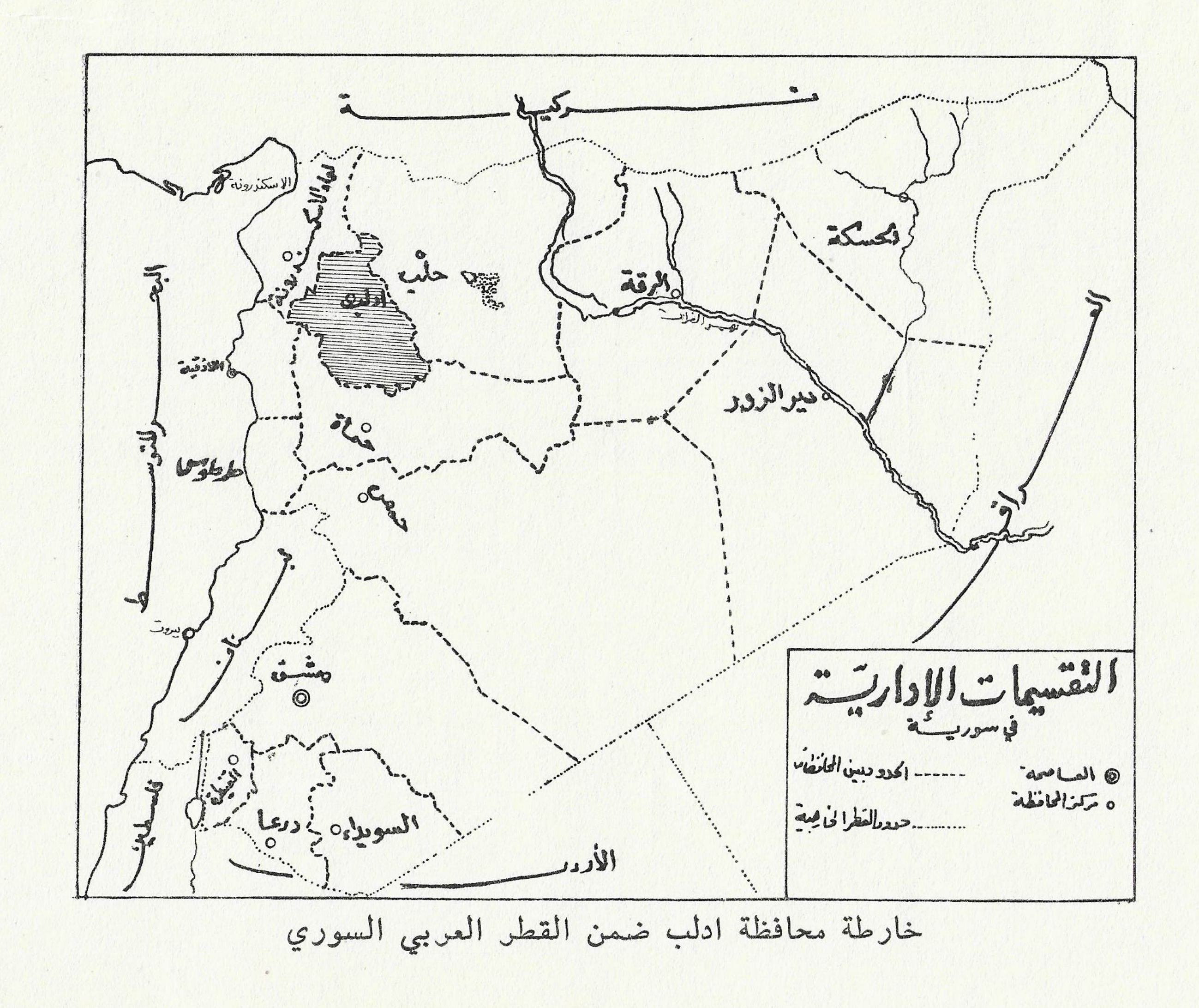
---

(١) سِياث: وتلفظ في روايات أخرى « شياث » بليدة بظاهر معرة النعمان ٠ عندما اجتاز بها القاضي أبو يعلي بن أبي حصن المعري ، وجد الناس ينقُضون بنيانها ليعْمُروا به موضعاً آخر فقال هذه الابيات وكتبها على حائط من حيطانها بمعول ٠

* محافظة ادلب *



التقسيمات الادارية للمناطق



خارطة محافظة ادلب ضمن القطر العربي السوري

محافظة ادلب في سطور :

الموقع : الشمال الغربي في القطر العربي السوري ٠

المساحة : ٦١٠٠ كم٢ تمثل ٣,٤ ٪ من مساحة القطر ٠

السكان / ٥٧٩٩٩١ / نسمة عام ١٩٨١ داخل القطر ٠

و/ ٥٨٧٠٦٧ / نسمة بما فيهم خارج القطر (١)٠

معدل النمو السنوي بالالف ١٩٧٠ ـ ١٩٨١ (٣٨ر٤٢) ٠

نسبة عدد سكان المحافظة من مجموع سكان القطر ٦,٣ ٠

التقسيمات الادارية (٢) : مدينة ادلب مركز المحافظة ٠

تتشكل من خمس مناطق : منطقة ادلب ـ المعرة ـ ريحا جسر الشغر ـ حارم ٠ و ١٥ ناحية و ٤١١ قرية و ٤٨٢ مزرعة ٠

طول الحدود : ٤٧٥ كم ٠ مع تركيا ١٢٩ كم ، مع حلب ١٥٩ كم ، مع حماه ١٥٨ كم ، مع اللاذقية ٢٩ كم ٠

أهم الجبال : جبل الزاوية ـ جبل الاعلى ـ جبل باريشا ـ جبل الوسطاني ـ جبل الدويلي ٠

أهم السهول : سهل الروج ـ سهل ادلب ٠

ويقدر عدد سكان المحافظة عام ١٩٨٥ ـ ب ٦٦٩ر٠٠٠ نسمة ٠

---

(١) ـ حسب تعداد السكان عام ١٩٨١ والصادر عن المكتب المركزي للاحصاء بدمشق ٠ وبمعرفة مديرية الاحصاء بادلب ٠

(٢) ـ حسب التقسيمات الادارية المعتمدة والموقوفة بتاريخ ١٩٨٠/١/١ والصادرة عن وزارة الادارة المحلية ٠ باستثناء بعض التعديلات التي ارتأيناها في جدول المسافات ٠

ـ هـذه السلسلة ـ

التاريخ مرآة الامم ، وصورة الشعوب ، وحياة الفكر ، وبكـل ايجابياته وسلبياته ، وبكل ثقله وتأثيره فينـا ، هو دمنا ونحـن عـروقـه ٠

واذ نعيش صراعا حضـاريا يتعلق بوجودنا كأمة ، وتصورنـا كمواطنين ذوي فعالية ، سيزداد ارتباطنا بالارض ، ان عرفنـا تاريخ أجدادنا ، بناة هذه الحضارات العظيمة لنكنّ لهم احتراما، ولنبتعد عن عملية الاقتلاع من الجـذور التي يمارسها العـدو الصهيوني ضدنا ، فعندما احتل فلسطين غير معظم أسماء المواقع والقـرى من العربية الى العبريـة ، وأطـلق أسماء قديمة على الاحداثيات الجديدة كذلك، منطلقا من فهم ربط الماضي بالحاضر، لتوظيفه في عملية بناء المستقبل ٠

أين نحن من كل هذا ؟!

لقد غيرنا ـ بحسن نية ـ الاسماء القديمة لكثير من القرى عـلى الرغم من رمزها الحضاري وبعدها التاريخي !!

لاندري الا القليل الـذي يتصدق به علينـا الباحثون الاجانب ، يطلون علينا العام تلو العام للبحث عن جذور حضارتنا ، ينقبون بصبر لايعرف الكلل ، فالبروفسور « باولوماتييه » رئيس بعثة التنقيب الايطالية التابعة لجامعة رومة بايطالية ، ينقب ويبحث في « تل مرديخ » منذ عشرين عاما ، فقط في موقع واحد !!

البعثة اليابانية التابعة لمتحف الشرق القديم في طوكيو باليابان تنقب في « تل مسطومة » منذ عام ١٩٨٠ ـ ومازالت ـ وتتوقع استمرار العمل في المنطقة عشرين عاما كذلك ٠

وقد سبق هاتين البعثتين بعثات أخر ، أميركية وفرنسية وألمانية وايمانا منا بضرورة الكشف عن بواطن التاريخ ، اندفعنا نحو مشروع لم نكن نعتقد أنه سيستمر حياة بكاملها ٠
بدأنا منذ خمس سنوات العمل في محاولة انجاز مشروع لتأريخ

« محافظة ادلب ٠٠ بوابة الحضارة السورية »

وبعمل تمهيدي في أجزاء تصدر تباعا ، بامكانيات فردية ، وجهود شخصية ، في وقت قلّ فيه المال من أجل الثقافة ، وضاق الوقت في المتابعة ٠

ايمانا منا بان هذه المحافظة فيها من الخصائص والواقع الحضاري، مايميزها عن غيرها من المحافظات ،وبدوافع عدة دفعتنا للبدء به ٠٠ نجملها بما يلي ٠ :

١ ـ الموقع الستراتيجي الهام لهذه المحافظة كحلقة وصل حضاري بين الشرق والغرب ، وممر تجاري بين الشمال والجنوب ٠

٢ ـ الطبيعة الجميلة ، والارض الخيرة المعطاء ، والتربة الساحرة ، والسكان القادرون على العطاء ، والدخل الاقتصادي الجيد ٠٠ كل هذا وغيره جعل منها مركز ثقل اقتصادي عبر العصور ، كيف لا وقد كانت مصانع الزيت والخمور المنتشرة في المحافظة ، ترسل نتاجها الى أوربة ، منذ العصور القديمة ٠ فالتاجر السوري المنطلق من هذه الارض ، بلغ في سمعته الحسنة ، ونشاطه التجاري جنوب ايطالية وفرنسة ٠

والامبراطورية الرومانية ، اتخذت أراضي المحافظة أهراء غلال الحبوب ، لامداد جيوشها المنتشرة في حوض البحر المتوسط • وكما كان يقول الرومان « ان سورية أرض الخبز والنبيذ » •

٣ ـ تعدد الحضارات ، وكثرة المواقع الاثرية اذ أحصى المعهد الاثري الفرنسي ببيروت الآثار الواقعة في جبل الاعلى وباريشا والدويلي والوسطاني بـ /٢٧٠/ موقعا • فكيف بجبل الزاوية والسهول الاخرى ! من المدن الميتة ، الى القلاع والبروج ، الى الاديرة والكنائس ، الى التلال الاثرية ، والخرائب الداثرة ••• كل هذا دفعنا للغوص في أعماق التاريخ ، علنا نفهم تراث أجدادنا •

وبرأينا ، كلما عرف المواطن تاريخه ، كلما ازداد تمسكا ببلده وأرضه ، واحتراما لمنجزات أجداده ، وحفاظا على أوابدهم الخالدة •

٤ ـ لاحظ أبناء المناطق الاثرية ، تردد الاجانب ، زائرين وعارفين هذا الموقع من ذاك ، ونحن لانعرف ولو القليل ، لعدم توفر الامكانيات ، وقلة الوسائل ، وضعف همتنا في البحث والاستقصاء •

قلنا لندليَ بدلونا ونغوص في البحث ، نقدم للاجيال القادمة بعضا من مجهودنا ، ان كان في ذلك فسحة من الوقت وهمة في البحث الذي يستغرق سنوات وسنوات ، فان حققنا شيئا فقد مهدنا الطريق لمن يأتي بعدنا ، ولنكون حافزا للاجيال القادمة في متابعة البحث ، بعد أن مهدنا الطريق الوعر والشاق الذي بدأنا بسلوكه، وان لم نحقق الا القليل فذاك ماتوفر لنا بحثه ، طالبين من القارىء تقدير الامكانيات والظروف المتاحة لباحثينا ، بالمقارنة مع الباحثين الاجانب الذين يتلقون كل تشجيع مادي ، وكل وسيلة معنوية ، لانجاح أبحاثهم ، واغنائها بالمنهجية العلمية ، والطرافة الفكرية •

فان أخطأنا فلنا أجر ، وان أصبنا فلنا أجران ‥ ولكل مجتهد أجره ونصيبه ٠

٥ ـ في هذه السلسلة « محافظة ادلب ‥ بوابة الحضارة السورية[1] » نسير وفق تصور أولي ، فهي مشروع كتاب متكامل ، موسع ومفصل ، لهذه المحافظة ، منذ القديم وحتى الوقت الحاضر٠ ورغبنا بتوزيعه على أجزاء ، لنتمكن من الحصول على معارف أولية ، ومواد أساسية ، ومنهجية علمية في البحث ، وزيارات ميدانية متقصية ، ومتسع من الوقت ٠

لهذا وضعنا أول كتاب باسم « الرحالة في محافظة ادلب » (اطلالة تاريخية) ليكون مادة أولية في البحث من خلال الرجوع الى المصادر الاساسية ، وسنتبعه بدراسات أخرى لمناطق أو مواقع متشابهة أو فترة زمنية محددة ٠

وان اعتقدنا انجاز شيء ، جمعنا مانشر وبحث في كتاب واحد باسم « محافظة ادلب ‥ بوابة الحضارة السورية !! » وان لم نتمكن خشية المنية ، وسوء العاقبة ، وضعف الهمة ، وتردي الصحة نرجو الاجيال القادمة متابعة مابدأناه ‥

والله ولي التوفيق **فايز قوصرة**

ادلب

١ / ١ / ١٩٨٥

---

(١) اخترنا هذا العنوان استمدادا من الطريق الروماني المار في منطقة باب الهوا ـ نقطة الحدود بين سورية وتركية ـ والقوس الذي كان يعتبر كحد فاصل بين الاراضي التي وهبها الملك قسطنطين الى هارميسداس شقيق الملك سابور الثاني عام ٣٢٣ م ٠ هذا من حيث الشكل ، ومن حيث المضمون سيدركه القارىء من خلال أبحاثنا ، مؤكدين غير مرة على حضارتنا الاصيلة ، ومميزاتها المحلية ، النابعة من تراثنا وجهود سكانها ٠

تقــديم

للدكتور محمود حريتاني

لاشك أن ماتصدى له الاستاذ فايز قوصرة ، لم يطرقه أحد من قبل ، فالتفتيش عن النصوص القديمة الخاصة بمحافظة ادلب ومنطقتها ، ليس بالشيء السهل ؛ وان ماقدمه لنا المؤلف ، سهلا ميسورا ؛ كان نتيجة جهد سنوات طويلة وصبر كبير ·

لقد قامت البعثات الاثرية الاجنبية العاملة في المحافظة المذكورة ، منذ سنوات عدّة ، بدراسات مفصلة وعميقة ـ ولكنها بقيت محدودة بالمناطق التي تنقب فيها ، أي انها لم تتناول جميع المنطقة ـ كما انها كتبت أبحاثها بلغات أجنبية متعددة ، ومن الصعب على القارىء ان يطلع عليها ويلم بها · وان البعثات المذكورة تناولت فترة معينة من تاريخ الموقع الاثري ولم تتجاوزها ، ولهذا بقي بحثها خاصا ·

انعمل الاستاذ فايز قوصرة قد يكون بداية لاعمال كثيرة جدا ، وقد ذكر في تمهيده انه في سبيل اعداد دراسات مفصلة وموسعة عن المحافظة · غير أن عمله الحالي يتميز بكثير من النواحي :

فهو أولا قد اطلع على كتب قديمة ومخطوطات لم تنشر ، واذا نشرت ، فانها قد تفتح آفاقا ، ليس لدراسة محافظة ادلب ، بل لمحافظة حلب أيضا ·

وهو ثانيا : يعمل على توضيح نصوص الرحالة الاجانب الذين زاروا محافظة ادلب في عهود بعيدة عن أذهان القارىء اليوم ، حتى انه يكشف بعض غموضها ؛ وانه عمل لايقدم عليه ، الا من كان على اطلاع واسع بشؤون المنطقة التي يدرسها ، من عدة نواح : اداريا وعمرانيا واقتصاديا وتاريخيا وأثريا وغير ذلك ٠٠ وهو ثالثا وأخيرا ، عمل في ميدان واسع ، ومتعدد الاختصاصات ، وقد استطاع أن يعطي القارىء ، فكرة كاملة عن البحث الذي يقوم به ، وهكذا نستطيع أن نتصور مدى الجهود التي بذلها ليصل الى الغاية التي توخاها ، وحتى يبلغ النهاية في هذا البحث ، لابد من عمل سنوات طويلة ٠

ان من يكتب عن بلده ، ليس كمن يكتب عن الفن للفن ٠ فالاستاذ فايز قوصرة مواطن من ادلب شعر بفراغ المكتبة من مثل هذه المؤلفات ، وقد شعر ـ كما يتبين من بحثه ـ بضرورة اعطاء ابناء بلدته ومواطنيه من الجيل الجديد ، لمحة تاريخية عن المحافظة الشاسعة والواسعة الاطراف والغنية والهامة من مختلف النواحي الحياتية ، وخاصة من الناحية التاريخية ـ والاثرية ، وان زيارة للمواقع الاثرية المنتشرة في محافظة ادلب ، القائمة منها ، والمواقع الاخرى التي تظهر على شكل تلال أثرية ، هذه الزيارة تظهر مدى الاهمية التاريخية لهذه المنطقة من القطر العربي السوري : ففيها عشرات القلاع والمدن الميتة ، وفيها مئات التلال الاثرية ٠ وقد وصلت شهرة المنطقة ، في الالف الاولى قبل الميلاد ، والقرون الاولى بعد الميلاد ، الى أقصى بقاع العالم المعروف آنذاك ٠

ان محاولة المؤلف الربط بين الماضي والحاضر ، وتقصي الاسماء القديمة التي وردت في نصوص الرحالة وتبيان موقعها اليوم ـ خاصة بعد أن لجأت السلطات الى تغيير بعض الاسماء فلم تحتفظ بالاسماء التاريخية المعروفة ـ ورغم بعد الزمن ؛ كل ذلك ينم عن

جهد كبير ، وقد قام به وأحسن التعبير عنه ، وانه وان جاء مختصرا ، لكنه يوفي بغرض من عنده المام بالمنطقة ، اذ لايمكن اعطاء أفكارمفصلة ، وهذا يتطلب بحثا طويلا جدا .

قد تكون نصوص الرحالة متداخلة ، ولكن ماحيلتنا وقد استعان الرحالة بمعلومات من سبقهم ، ولم يذكروا المصدر الذي استقوا منه معلوماتهم .

وكما قام الرحالة بزيارة خاطفة وسجلوا خاطراتهم ، ترانا نفعل مثلهم حاليا . لكن مؤلف الكتاب حاول ان يتقصى أكثر ، ليعطي صورة واضحة وجدية عن محافظة ادلب ، وقد قسم كتابه الى فصول متعددة واراد أن يعرض النص ثم يعلق عليه ، ويوضح الحالة الحاضرة للموقع . نحن والاستاذ فايز على الدرب الطويل ، في سبيل ان نصل الى رفعة هذا البلد الطيب ، واعلاء شأنه ليأخذ مكانته التي يستحقها في تاريخ الحضارة العالمية كما كان .

ان مكتشفات موقع ابلا في محافظة ادلب من الرقم المسمارية ومن فنون الزخرفة ، واسلوب البناء ، قد أظهر حضارة سورية متميزة، ليست هي بالمتأثرة بحضارة وادي الرافدين أو وادي النيل ،وليست هي نتاج تمازج حضارات وشعوب ، كما كانت الآراء حتى قبيل الاكتشاف .

وان هذه الحضارة السورية ، قد قامت لتبرهن على انها على قدم المساواة مع الحضارتين المذكورتين ، وانها حضارة أصيلة ..

حلب في ٢٦/١/ ١٩٨٥

الدكتور : محمود حريتاني

أمين متحف رئيسي

مدير متحف التقاليد الشعبية

مدير آثار ومتاحف المنطقة الشمالية سابقاً

مقدّمــة

بعد جهد مضن في البحث ، بالرجوع الى المصادر الاساسية لكتب الرحالة المارين بالمحافظة ، ومعرفة بعض المواقع المجهولة ، يأتي هذا الكتــاب ليجيب عن الكثير من تســاؤلات أبناء المحافظة ، والمهتمين بتاريخ المنطقة ، ونأمل كل الامل سد فراغ شعرنا به جميعــا .

أين تاريخ البلدة ؟ ماذا لديكم ؟ لم لاتنشرون ؟ الى أين وصلتم ؟! أسئلة كثيرة يطلب الاجابة عليها بسرعة ، والحاح زائد ، رغم صعوبة البحث ، وقلة الوسائل في المتابعة المستمرة ، وبالرغم من كل هذا ، ذللنا بعض الصعوبات لاخراج « الوليد الاول » الى النور . وننوه بأننا لم نضع تاريخا كاملا لكل منطقة أو موقــع ، فلهذا بحث آخر ، ولكننا القينا أضواء بسيطة (كسرمين) أو شديدة (كالمعرة) ،حسب معطيات سير البحث . فالرحالة ــ وما أكثرهم ــ مروا بأراضي المحافظة .. فهذا يحدثنا بالتفصيل عن اطّلاع ودراية ، وذاك يلمح الى بعض الوقائع والاماكن عن غير اطلاع أو معرفة .

ورغم ذلك أخذنا من هذا وذاك حسب تسلسل زيارتهم المحافظة ، ووفق الاماكن التي زاروها ، لنعطي القارىء شيئا مما قد يروي الغليل عن تاريخ كل بلدة ، من خلال نصوص الرحالة .

عرضنا النص كاملا بلغته الاصلية ، وما ترجم اليه ، وقد جهدنا المحافظة على روح النص ، ليطلع القارىء على تفكير الرحالــة ونظرتهم الى الشرق الساحر .

ثم حللنا كل نص ، واستخلصنا الكثير من المعارف التاريخية الجديدة ، متتبعين اسلوب التحليل ، ومنهجية البحث العلمي ٠

★ ★

بدأنا الكتاب بفصل تمهيدي عن المنطقة الواقعة شرقي المحافظة ـ بين حلب وادلب ـ باعتبارها خط سير هام للرحالة القادمين من حلب أو العائدين اليها ، وبالاخص المدينة العظمى « قنّسرين » ٠ ثم بحثنا كل منطقة تفصيلا أو ايجازا ، معتمدين على ماكتبه الرحالة عن كل منها ، وأعقبنا نهاية الكتاب بفصل أخير هو « فصل الفصول » لنقدم فكرة عامة عن المحافظة ككل ، ولتتضح الصورة المتكاملة ٠ ونأمل من القارىء ألا يتعجل بالحكم على الكتاب دون اتمام الفصل الاخير ٠

وهناك الكثير من كتب الرحالة ، والتي لم نتمكن من الاطلاع عليها ، آملين الرجوع ثانية لدراستها ، وتقديم المزيد منها في أبحاث أخرى قادمة ٠

ولايسعنا أخيرا الا شكر جميع من قدم لنا التسهيلات اللازمة في متابعة البحث ، في كتاب او اجابة عن سؤال ، أو خدمة في العمل ، فلهم منا الشكر والعرفان ، آملين تحقيق المزيد على طريق المعرفة والتمسك بالارض والتراث الحضاري العريق لامتنا ،كما نرجو تزويدنا بكل وثيقة أو كتاب أو مخطوط أو صورة عن المحافظة ، ممن تتوفر لديه ، لنتمكن من اجراء عملية التوثيق التاريخي لهذه المحافظة والتي هي بحق :

« بوابة الحضارة السورية ! ! »

ادلب في ١٩٨٥/١/١

« فايز قوصرة »

جدول بالرحالة الذين مروا بالمحافظة

الاسم	السنة	ملاحظات
١ ناصر خسرو	٤٣٨ هـ / ١٠٤٦ م	زمن مروره
٢ ابن جبير	٥٧٩ هـ/١١٨٣ م	« «
٣ الهروي	٦١١ هـ / ١٢١٤ م	زمن وفاته
٤ ابن بطوطة	٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ م	زمن مروره
٥ شيخ الربوة	٧٢٧ هـ / ١٣٢٦ م	زمن وفاته
٦ يشبك الدوادار	٨٧٥ هـ / ١٤٧٠ م	زمن مروره
٧ ليونهارت راوولف	١٥٧٣ م	« «
٨ محمد بن عبدالله الحسيني المعروف بكبريت	١٠٢٩ هـ / ١٦٢٩ م	زمن سفره
٩ تافرنيه	١٦٣٨ م	زمن مروره
١٠ مورونه	١٦٤٥ م	« «
١١ اوليا جلبي	١٠٥٨/١٦٤٨ ومابعد	« «
١٢ مكاريوس الحلبي	١٦٥٤	« «
١٣ تيفينو	١٦٦٠	« «
١٤ هنري موندريل	١٦٩٧	« «
١٥ الخيارى	١٦٩٩	« «
١٦ كرين	١٧٢٥	« «
١٧ الادهمي	١١٥٠ هـ / ١٧٣٧ م	« «
١٨ بوكوك	١٧٣٨	« «
١٩ الاخوان رسل	١٧٥٠ ومابعد	زمن بقاءهما في حلب

الاســـم	السنة	ملاحظـــات
٢٠ فولني	١٧٨٣	زمن مروره
٢١ براون	١٧٩٧	» »
٢٢ ستيزن	١٨٠٥	» »
٢٣ بوركهارد	١٨١٢	» »
٢٤ الكيالي	١٨١٥ / ١٨١٦	» »
٢٥ بيانكي	١٨٢٠	» »
٢٦ طومسون	١٨٤٠ / ١٨٤٦	» »
٢٧ سمث	١٨٤٨	» »
٢٨ حاج لاورتي	١٨٥٠	» »
٢٩ والبول	١٨٥٠	» »
٣٠ جاكوب	١٨٥٥	» »
٣١ ساخاو	١٨٧٩	» »
٣٢ جوليان	١٨٨٥	» »
٣٣ شيخو	١٨٩٥	» »
٣٤ برشم	١٨٩٥	» »
٣٥ محمد علي باشا	١٩١٠	» »
٣٦ البستاني	١٩٤٧	» »

﴿ تمهيد ﴾

اعتبر بعض البحاثة كتب « الرحلات » أدبا قصصيا ، فاهتموا بدراستها دراسة أدبية . والحق ان المكتبة العربية أقل المكتبات بحثا لادب الرحلات .

وفي دراستنا هذه لم نأخذ كتب الرحالة كقصص أدبية مشوقة ، بل كصورة تاريخية عن واقع مشاهد في حينه من قبل هذا الرحالة أوذاك ، ولم نأل جهدا في البحث عن اولئك الرحالة الذين عبروا أراضي محافظة ادلب ـ في المكتبات المحلية والعالمية ، حتى عثرنا على نصوص اعتبرناها كافية، وان لم تكن وافية ، لالقاء الاضواء من جديد على تاريخ محافظة ادلب ، ذلك التاريخ الذي غمض أمام المواطن في هذه المحافظة ، وكذلك أمام كل باحث في شؤونها .



وهؤلاء الرحالة ـ سواء العرب أم الاجانب ـ يتفاوتون في مشاهداتهم بين النظرة العميقة والملاحظات البسيطة ، وتختلف بالتالي كتاباتهم بين الاسلوب البسيط المفهوم ،والعبارة الغامضة، التي لاتعين الباحث فيما يريد الوصول اليه .

وقد لاحظ الكاتب الانجليزي « روبين بيدول » في كتابه « رحالة في جزيرة العرب » أن الرحالة «بوركهارت » ـ والذي سنناقش نصوصه في حينها ـ « عاش حياة عريضة حافلة بالمغامرات والعجائب ، وكان مكتشفا محترفا من الطراز الاول ، أعد لرحلته

اعدادا صارما • وكتاباته التي خلفها تخلو من الاثارة لانه لم يدونها بنفسه ، ولذا ظلت هي أساس كل المعلومات عن المناطق التي زارها •

★

ولقد عانينا من صعوبة فهم نصوص هؤلاء الرحالة ، مما دفعنا الى الشرح والمتابعة والتعليق على كل فكرة أو مشاهدة ، ذلك أن تسعة قرون تفصلنا عن أول رحلة ليست بالقليل ، بل من شأنها أن تبعد الشقه بين أفهامنا وأفكارهم ، مما يضطرنا الى الغوص في كل نص والعودة اليه بين الحين والآخر •

★

تعددت النصوص ، وتباعدت الازمان ، وانساقت الافكار ، وساح القلم مع هؤلاء الرحالة، فهذا من الشرق وذاك من الغرب ، ولكل منهم اسلوبه وفكره ، ولكل منهم تعابيره وألفاظه ، فهل نبقى مع هذا الرحالة حتى نهاية رحلته ؟ أم نقف قليلا ونراوح الفكر في المنطقة أو البلدة أو القرية التي زارها ، نسبر أغوار الزمن ، ونغوص في الاعماق ، في البعيد البعيد ، عسى أن نصل الى مايسر القارىء من معرفة تاريخ بلده أو منطقته •

وقد آثرنا الفكرة الثانية ، فقسمنا كتابنا هذا الى فصول خمسة كل منها يتناول بالدراسة منطقة واحدة •

الفصل الاول في « منطقة ادلب » والثاني في« منطقة معرة النعمان » والثالث في « منطقة ريحا » والرابع في « « منطقة جسر الشغر » أما الخامس ففي « منطقة حارم » ثم أعقبنا ذلك بفصل أخير يحلـل ماسبق ويستخلص النتائـج ممـا اشتملت عليه الفصول الخمسة •

★

أما الفصل التمهيدي ، فقد عمدنا أن نقدم فيه لمحة عن واقع المنطقة الواقعة بين حلب وادلب ، مبينين أهمية موقعها المتميز كصلة وصل بين الشرق والغرب ، وكذلك بين حلب ودمشق ٠٠ وربما تساءل القارىء ولم الاهتمام بها ، وهي ليست واقعة في أراضي المحافظة ؟

الحق أن لهذه المنطقة أهمية خاصة ، فكل كتاب يؤرخ للمحافظة أو المنطقة ككل ، لابد له من الحديث عن « قنّسرين »

هذه المدينة العظيمة التي كانت حلب تابعة لها اداريا بل ومعظم أراضي محافظة ادلب ٠ وهي واقعة في ممر القوافل التجارية والحجيج الذين كانوا يتوجهون الى الاراضي المقدسة ٠

كما كانت همزة الوصل بين حلب ـ وانطاكية في العهد اليوناني ـ الروماني ، فهل يحق لنا بعد ذلك اغفالها ؟ !

كانت « قنّسرين » المحطة الرئيسية أمام الرحالة بعد حلب ، في القرن الحادي عشر الميلادي ٠ وبعد أن كانت من المدن العظمى في هذه المنطقة ، عدا عليها الزمن ، فتحولت الى قرية صغيرة تدعى « العيس (العيص) » يبلغ عدد سكانها ١٢٠٠ نسمة تقريبا تابعة لناحية الزَربه في منطقة جبل سمعان ـ محافظة حلب ٠ تبعد عن مركز الناحية جنوبا ٧ كم وعن حلب غربا بـ ٣٥ كم تتراءى للقادم الى حلب من محافظة ادلب على الطريق الجديد (الاوتوستراد) على يمين الطريق بعد مغادرته الحدود الادارية لمحافظة ادلب ٠

أما اسمها « قنسرين » فهو تحريف للاسم السرياني « قنشلين » بمعنى « وكر النسور »سماها سلوقس نيكاتور « خلقيس دوبيلوس Chalcis du Bélos وجعل منها حصنا ٠

ثم أطلق عليها الرومان اسم (شالس) وكلسيس أو خلقيس اليونانية تعني « مدينة النحاس » ٠

تتصل قنسرين بانطاكية بطريق معبدة ظلت حتى القرن الثالث عشر الميلادي ، وما زالت بقايا الطريق في المحافظة قرب تل عقبرين (تل الكرامة حاليا) (راجع الفصل الاخير) ٠

وكان فيها دير يسمى « دير قنِّسرين » وقد فتحها العرب سنة ١٧ ـ هـ / ٦٣٧ م بقيادة « أبو عبيدة بن الجراح » صلحا حيث أصبحت « جندا » للمسلمين وسميت منطقتها « جند قنِّسرين » ثم أصبحت « كورة قنِّسرين » ٠ (١)

وكانت مركز تجمع المسلمين لفتح محافظة ادلب ، اذ كتب الخليفة « عمربن الخطاب » الى « أبي عبيدة بن الجراح » « أن رتب بانطاكية جماعة من المسلمين ، واجعلهم بها ، مرابطة ، ولا تحبس عنهم العطاء » وبلغ « أبا عبيدة » أن جمعا من الروم يتمركز بين « معرة

---

(١) ُجند : تجمع على أجناد ، والجند ُمعدللحرب والعسكر والاعوان ٠ جاء في القرآن « وسيعلمون من هو شرٌ مكانا ، وأضعف جندا ») ١٩ مريم ٧٥) أي فئة وأنصارا ٠ والجند أيضا المدينة ٠ قال في الصحاح « يقال لكل مدينة منها جند » وذكروا أن الجزيرة كانت مع قنسرين جندا واحدا ، فأفردها عبد الملك بن مروان ، وجعلها جندا برأسه ٠

ولمافتحت الشام قسمت الى خمسة أجناد وهي جند فلسطين وجندالاردن وجند دمشق وجند حمص وجند قنسرين وكل جند منها يجمع كورا ، وقيل سميت بذلك لان جند كل موضع يقبضون اعطياتهم فيه ٠

أما يزيد بن معاوية فجعل قنسرين وانطاكية ومنبج جندا برأسه ، فلما استخلف الرشيد ، أفرد قنسرين بكورها فجعلها جندا ، وأفرد العواصم ٠

أما « الُكور » فهي جمع الُكورة : البقعة التي تجتمع فيها المساكن والقرى ٠ وقد ذكر « ابن خرداذبه » المتوفى في حدود ٣٠٠ هـ « أن من كور قنسرين : كورة معرة مصرين وكورة َمرتحوان ٠ وكورة سرمين ، وِحيار بني القعقاع وكورة دُلوك وكورة رَعبان وكورة حلب ٠ »

مصرين » و « حلب » فسار اليهم ولقيهم فهزمهم ، وقتل عـدة بطارقة وسبى وغنم ، وفتح معرةمصرين على مثل صلح حلب ٠ وجالت خيوله وفتحت قرى الجومة [٢] وسرمين وفتح جميع أرض قنسرين وانطاكية ٠ وفي عهد سيف الدولة الحمداني نقل سكانها الى حلب بعد أن هزمهم البيزنطيون سنة ٩٦٣ م ٠ والواقع أن الحـديث عن قنسرين تفصيلا يستغرق كتابا كامـلا لو شئنا ، وسوف نعود اليها في أبحاث أخرى ٠ تعرضنا الى ذكر قنسرين بالنظر لاهميتها قبل الوصول الى منطقة ادلب ، ولان منطقة ادلب بالذات كانت **تابعة لها** ٠

ولعل الرحالة « ناصر خسرو علوي « في رحلته المسماة « سفر نامه» والتي كتبها باللغة الفارسية يضع بين أيدينا أقدم نص عن الرحالة الذين مروا بالمحافظة ، اذ تعود رحلته الى عام ٤٣٨ هـ/١٠٤٧ م حيث لم تكن الطريق واضحة كل الوضوح في ذاك الوقت أمـام الرحالة والقوافل والحجيج ٠ لقد وصف قنسرين بقوله قريـة تدعى « جند قنسرين » وهي على ثلاثة فراسخ [٣] من حلب التي غادرها في الحادي عشر من رجب سنة ٤٣٨ هـ /١١ كانون الثاني ١٠٤٧ م وبعد أن أمضى ليلة فيها اتجه الى سرمين [٤] ٠

---

(٢) الجومة : هي الناحية المتاخمة لشمال ناحية الدانا ٠ وهناك مزرعة «كفر جوم» التابعة لاورم الصغرى في منطقة جبل سمعان في محافظة حلب ٠ وتعني بالسريانية قرية الجزار أو قرية الحلاق والحجام ٠ وفي اللغة العربية تعني المنخفض من الارض كانت تعتبر من العواصم وتسمى « كورة الجومة » ٠

(٣) الفرسخ : من المقاييس العربية ويعادل ٨ كم ٠

(٤) خسرو ناصر : سفرنامه ص ١١ ٠

* *

أما الرحالة العربي ابن جبير الذي زار المنطقة سنة ٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م فقد وصف قنسرين قائلا « هي البلدة الشهيرة في الزمان ولكنها ضربت وعادت كأن لم تغن بالامس ، فلم يبق الا آثارها الدارسة ، ورسومها الطامسة ، ولكن قراها عامرة منتظمة ، لانها على محرث عظيم مدّ البصر عرضا وطولا . وتشبهها من البلاد الاندلسية جَيّان (٥) تأنسا بشبه الوطن وتعللا به ، مثلما فُعل في أكثر بلادها حسب ماهو معروف . (٦)

وبعد مرور حوالي قرن ونصف زار الرحالة العربي ابن بطوطة المنطقة فكتب عن قنسرين بانها مدينة قديمة كبيرة ثم خربت ولم يبق الا رسومها (٧) .

* *

أما « شيخ الربوة » الذي توفي في زمن مرور ابن بطوطة في سورية سنة ٧٢٧ هـ / ١٣٢٦ م . فقد ذكر في كتابه « نخبة الدهر في عجائب البر والبحر » ان المملكة الحلبية وجندها وعملها «قنسرين» حيث كانت هي القصبة قبل حلب . وهي مدينة رومية كان اسمها « صوما » (٨) .

---

(٥) جَيّان : ذكرها ياقوت الحموي بأنها مدينة لها كورة واسعة بالاندلس . تقع في قلب الاندلس المسلمة القديمة . هي في شمال غرناطة وشرقي قرطبة . فيها آثار عربية . استولى عليها الاسبان سنة ٦٤٤ هـ ـ ١٢٤٦ م .

(٦) ابن جبير : رحلة ابن جبير ص ٢٤٢ القاهرة ١٩٥٥ .

(٧) ابن بطوطة ص ٧٤ بيروت ١٩٦٤

(٨) .شيخ الربوة نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ص ٢٠٢ لايبزج ـ المانيا ١٩٢٣

★

ولعل رحلة شيخ الربوة آخر رحلة ذكرت قنسرين ، ولم تعد ذات أهمية تذكر بعد القرن الثالث عشر .

مرّ بها الرحالة الانكليزي كرين Green عام ١٧٢٥ فوصفها بعبارة موجزة آثار مكان يدعى قنسرين احدى المدن العظمى في سورية (٩) .

وبعده زارها الرحالة المستشرق بوكوك Pocock عام ١٧٣٨ م والذي قدم لنا وصفا جيدا عنها . كتب يقول قادما من خان السبل « وحالا تركنا الطريق ، وذهبنا الى شمال ـ شرق ، الى حلب القديمة ، صاعدين التل فوقها ، حيث يوجد مسجد ومقام شيخ . وهنا أمضينا النهار وزرنا الآثار القديمة المجاورة » .

ان حلب القدَيمة تقع بحوالي ١٢ ميل الى الجنوب من حلب وعلى مقربة فرسخين الى الشرق من الطريق المرتفع .

ارتأيت بأن هذا المكان « شالسيس » العاصمة القديمة للمنطقة « شالديني » ، وليست بيروا القديمة ، والتي هي بلاشك تقع حيث الآن . كما أن موقع شالسيس بحوالي عشرين ميلا من آرا (أي المعرة) وثمانية من بيروا (حلب) وهكذا فهي ليست بالبعيدة ..

تذكر الرقم بأن الطريق من انطاكية الى « بيريا » التابعة لشالسيس مع الطريق السائر من « اميسا » الى بيروا ، والطريق العام الآن

GREEN (P. : Ajourney From Aleppo to Damascus,Page 22-23 — Lonndon 1736

من حمص ليس بعيدا عنه ، لكن الطريق مغلق بسبب العربان نتساءل عن السبب الذي دعا الى تغيير الطريق ، احتمالا ، كونه غير آمن من اللصوص ·

ان قصور شالسيس البطلمية تقع على بعد عشرين دقيقة جنوبي « بيروا » معظمها يمتد على مسافة كبيرة جدا ، هي بحوالي عشرين ميلا من هذا المكان الى حلب ، ومجاورة لخان طومان ·

كان الاسم الحقيقي لهذه البلدة « قنسرين » ومازالت تدعى حتى هذا الوقت ، كما أن الكتاب العرب كذلك يدعون الجزء الشمالي من سورية بهذا الاسم · (يقصد جند قنسرين) حسب تقسيماتهم الادارية لهذه البلاد ·

وكذلك احدى بوابات حلب تتصل بهذا الطريق ولها نفس الاسم (يقصد باب قنسرين اسم أحد أبواب حلب) كما أن العرب وجدوا شالسيس ، مدينة عامرة وعاصمة للمقاطعة السورية لدى القدامى ، وبالامكان جعلوها العاصمة للجزء الشمالي من سورية ، فدعيت المنطقة بنفس الاسم ، ولعل أبناء المنطقة أطلقوا عليها مثل هذا الاسم كذلك ·

أما الاغريقيون ، فمن المحتمل أعطوا اسما آخر استخدم فقط في عهدهم ·

لم تكن مدينة غير معتبرة في زمن العهود القديمة ، كونها البلد القوى المتماسك المدعو Marsyas أوابدها واقعة بحوالي ميل جنوب نهر حلب ويدعى قويق Caiè يجري في سفح التلال التي تقع بين هذا المكان وتلك المدينة · من خلال مجرى هذا النهر سابقا ، يبدو أنه كان في أرض منخفضة وأقرب الى المدينة القديمة

لكن المياه رفعت للاعلى كي تسقي بعض الاراضي ، مكان كهـذا ، دعي « خالقيس آدبيلوم Chalcis ad Belum وهي لن تكون كتلك المدعوة Belus والتي كان اسمها يطلق على هذا النهر ، ان لم يكن بالإمكان – يطلق اسم الجبال المجاورة لها ، والتي تدعى الآن شيخ عطية Sheik Aite وجدت بعض أوابـد أسس أسوار المدينة ، والتي تبلغ سماكتهـا حـوالي عشرة أقدام ، لن يكون محيطها أكثر من ميل ، مبنية بأبراج مربعة على مسافات متساوية . الى الجنوب الشرقي من المدينة « أرض مرتفعة » ، عليهـا أسس القلعة القديمة ، والتي كان محيطها حوالي نصف ميل وذكروا فيها ثلاثة آبار ، الجميع يشكلون كـومة غامضة من الخرائب ، باستثناء الجانب الشمالي الشرقي قليلا عن المدينة ، في أرض متقدمة أسس بناء مربع مستطيل ومن الممكن أن يكون معبدا .

كما يوجد تل مرتفع الى الغرب من المـدينة ، ومن المحتمل أقيم عليه « حصن » والذي كان أعظم مركز دفاع لكل القطر ، في قمته ثلاثة أو أربعة صهاريج حسنة واسعة ، كسراديب مقنطرة منقورة في الصخر ، وتجويف علوي لسحب الماء . وخطوات للاسفل نحو أحد الجوانب ، كذلك يوجد مسجد على مرتفع ، يعد أعلى قسم في التل ، وحيث شاهدت بعض أجزاء كتابات اغريقية مسيحية .

والى الشرق من المسجد ، أسس بناء نصف دائري ، تيقنت بأنه قد كان كنيسة .

والى الشمال في سفح هذا التل ، يوجد قطعة فوق باب مغارة في زاوية مفردة بارزة ، والتي يمكن أن تكون من صنع الرومان ، من المحتمل ، خلال حكم عائلة « فلافيان » ولـعله كان الحاكم في

المدينة ، كاسم ٬عدل في ذكراهم ، ومن المحتمل « تراجان » Trajan لأنه يوجد نيشان لهذه المدينة مع رأس تراجان عليها ، وهذه الاشارة (كتبها باليونانية) ومن أعلى التل شاهدت المنارة(١٠)

★

ولكن كيف كان حال « منطقة المرور » هذه في العهد العثماني ، وخاصة في زمن مرور كرين ١٧٢٥ م ؟ !

كانت القوافل تغادر حلب الى شيخ أنصرى ـ راموسة ومنها الى خان طومان التي كتب عنها كرين يقول ـ في ثلاث ساعات وصلنا من حلب الى خان طومان ـ ، يعتبر النزل مقرا للقوافل ولتلقي واقامة المسافرين • العرب يطلقون على النزل خان بينما الاتراك لايستخدمون هذه الكلمة في تعابيرهم ، حيث يلفظون حرف العلة « حـان » ، اللفظ شبيه بالفرنسية والانكليزية ، يكون أيضا « هاون » هذا الخان أو الحان ، أعيد بناؤه حوالي سنة ١٦١٢ م من قبل « يوسف » باشا حلب ، الذي عيَّن « آغا » هناك مع ثلاثين جنديا ، وعشر مدافع ميدانية للحماية من ارهاب العربان • ثم وصلنا الى زربة قرية لها خان او نزل كذلك •

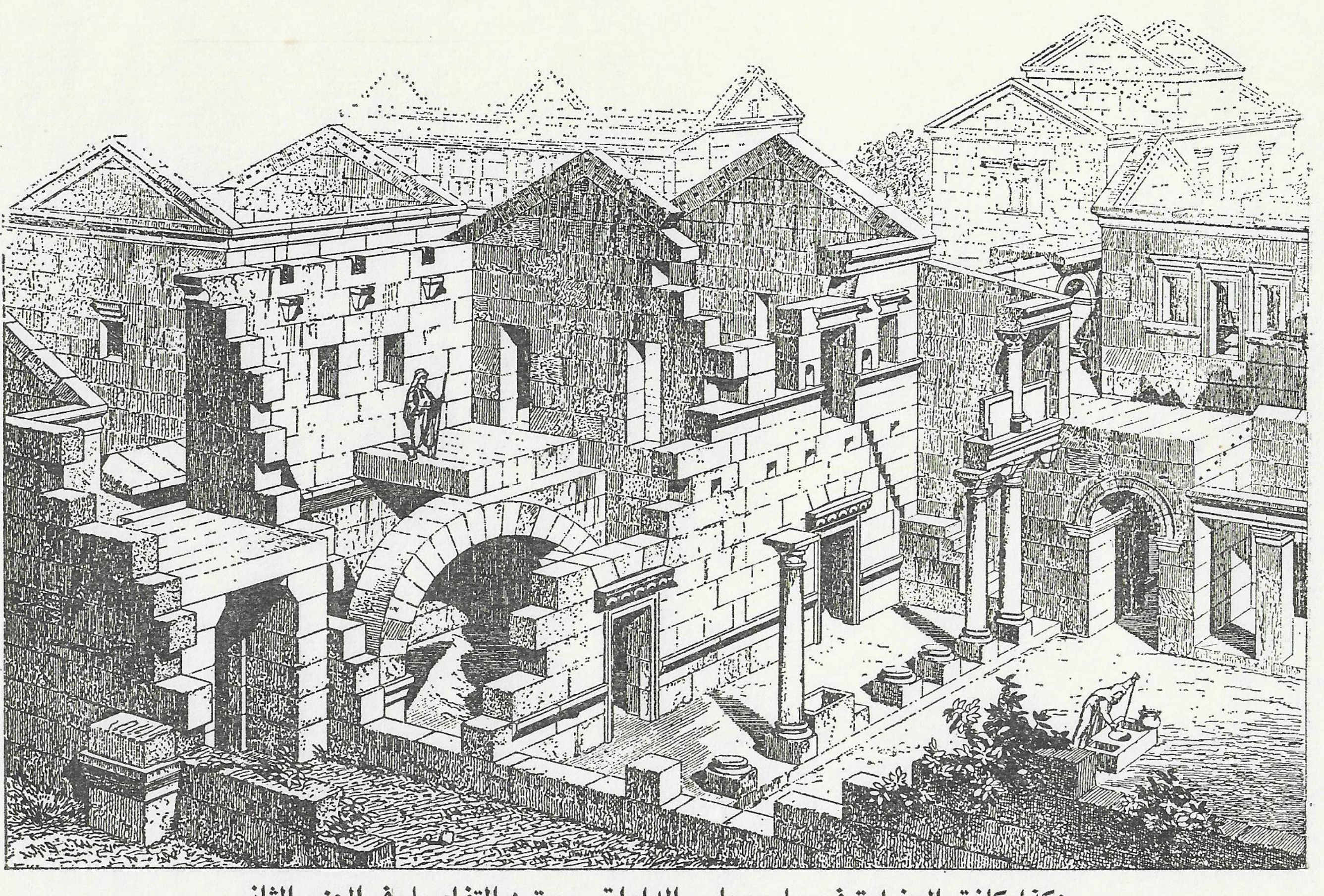
★ ★

بينما لدى وصول الرحالة بوركهارد Burkhardt سنة ١٨١٢ م الى خان طومان ، وجده في حالة يرثى لها • قال « وصلنا الى خـان يدعى تومان قرب قرية تدعى بذات الاسم تقع على نهر قويق ، نهر حلب • الخان في حالة بائسة ، اذ لم يعد الباشا ـ أي والي حلب ـ يفكر باصلاح أي مبنى عام وكبير كهذا الخان (١١) •

---

(10) POCOCK , R. A, : Description of the East and some Other Countries Page 148 — LONDON 1743 — 1745

(11) BURKHARDT : (Jounlewis) Travels in Syria and Holy Land, page 121 LONDON — 1822



هكذا كانت الحضارة في جبل ريحا ـ الدارات ـ سترد التفاصيل في الجزء الثاني
عن دى فوغيه ١٨٦٢

في عام ١٨٩٥ مرّ « الأب لويس شيخو » بالمنطقة قادما من حماه الى حلب فكتب يقول ٠

ثم وصلنا ُقبيل العصر الى خان تومــان وهو خــان كبير واسع الارجاء ، قد خرب قسم منه ُنسب الى الامير تومان الذي ابتناه لابناء السبيل ولقفول التجارة ٠

وقرب الخان قرية يجري بقربها نهر القويق الجاري في حلب « (١٢)

★ ★

قبل أن نختم فصلنا هذا ونسافر برفقة الرحالة الى محافظة ادلب، لنزور معهم سرمين وسراقب وغيرهم ، لابد من تحديد موقع قرية طومان (تومان) ٠

تبعد عن سراقب بـ ٣٦ كم الى الشرق منها وعن حلب غربا ١٧كم كان فيها خانان ، الاول يعود الى القــرن الثالث عشر الملادي ، والثاني الى القرن السادس عشر الميلادي ٠ بدأت أحوالهمــا بالانحدار حيث انتعش خان سراقب على حسابهما ٠

★ ★

والآن هيا بنا نرافق الرحالة الى منطقة ادلب ، لنطلع على الطريف والجديد عنها ٠

---

(١٢) شيخو ـ لويس : من حماه الى حلب ـ مجلة المشرق ص ٩٢٢ ـ المجلد الثامن عام ١٩٠٥

الفصل الأول

« منطقة ادلب »

تتمتع محافظة ادلب بموقع استراتيجي هام ، فهي تشكل صلـة وصل بين الشرق والغرب ، وهي لهذا تمتلك تراثا حضاريا غنيا ، ولانبالغ ان قلنا ان هذا التراث ، أكبر من أن يلم بكافة جوانبه أي باحث ولو ظل يسعى الى ذلك مدى حياته ·



وكما قدمنا سنبدأ حديثنا عن منطقة ادلب ، لكن قبل الحديث عن تاريخ هذه المنطقة ، وقبل بدء سياحتنا مع الرحالة ، لابـد من تحديدها حسب آخر التقسيمات الادارية المعتمدة حاليا ، لتتوضح الصورة أمام القارىء العزيز ·

تتشكل منطقة ادلب من النواحي التالية :

١ ـ ناحية قرى مركز ادلب
٢ ـ ناحية سراقب

هامش خاص : نظرا لكثرة المصادر والمراجع، فقد ارتأينا اختصارها مشيرين فقط الى مصادر كتب الرحـالة · وسترد جميـع المصادر والمراجـع تفصيلا في نهاية الجزء الثاني ·

٣ ـ ناحية أبو الظهور

٤ ـ ناحية معرة مصرين

٥ ـ ناحية بنش

٦ ـ ناحية تفتناز

يحدها من الجنوب منطقة معرة النعمان ، ومن الغرب منطقتا حارم وريحا ، ومن الشمال منطقتا حارم وجبل سمعان ، ومن الشرق ناحية الزربة التابعة لمنطقة جبل سمعان في محافظة حلب ٠

بلغ عدد سكان منطقة ادلب ١٧٨٣٢٥ نسمة سنة ١٩٨١ ٠

أما مساحتها فتبلغ ٥١٦٨٣ كم ٢ ٠

★

تعمدنا بدء دراستنا هذه في منطقة ادلب ، لانها تشكل اولى استراحات الرحالة المارين في المحافظة القادمين من حلب الى دمشق، او الى انطاكية ، للاسباب الآتية :

١ ـ كونها ممرا للقوافل التجارية والرحالة والحجيج النصارى والمسلمين بسبب خلوها من الجبال والممرات الوعرة ، فهي ذات سهول حمراء وخصبة وخضرة دائمة (نقصد بذلك في السابق ، اذ كانت مدينة سرمين محاطة بأشجار كثيفة ، وكذلك شرقي سراقب وأبو الظهور ، حيث كانت هذه المناطق مرتعا لتنزه أمراء وسلاطين حلب ، كما كانت الرقة ـ الرصافة ـ متنزها للخلفاء العباسيين ـ وكل هذا سوف نفصله في حينه في أبحاث أخر)

٢ ـ وجود الصحراء في الشرق ، وقبائل العربان التي كانت تعترض القوافل بالأذى والسلب ٠

٣ ـ وجود الخانات والآبار الكثيرة ·

٤ ـ وأخيرا ، لانها كانت تشكل حلقة وصل بين حلب ـ قنسرين ـ المعرة ، أو الطريق الآخر المتجه غربا : حلب ـ قنسرين ـ سراقب ـ سرمين ـ ادلب ـ أويتفرع من سراقب ـ سرمين الى الغرب الشمالي باتجاه ناحية الجزر [١] الى حارم ـ انطاكية او الاسكندرونة أو الى الروج وبالتالي جسر الشغر ·

لهذه الاسباب كانت هذه المنطقة اولى استراحات الرحالة المارين في محافظة ادلب ، والقادمين الى دمشق او الى انطاكية ، عبر قرى أو خانات يعتقد القارىء باستحالة وجودها ، كما في كفتين ومعارة الاخوان ، اذ كانتا محط رغبة كل سائح أوربي ، حتى ان شهرتهما وصلت الى فرنسة · وسوف نتكلم في حينه عن كل منهما تفصيلا ·



نبدأ رحلتنا مع الرحالة الى سرمين نظرا لاهميتها كموقع تجاري قديم ، وممرا للقوافل القادمة من الشرق الى الغرب ، وبالعكس ، والمتجهة كذلك الى دمشق فالقدس ·

فتحها أبو عبيدة بن الجراح سنة ١٧ هـ ٦٣٧ م بعد فتح قنسرين كما ذكرنا وكانت بعدئذ تابعة اداريا لجند قنسرين ، اذ كانت ذات أهمية ادارية · وقد ذكر « ابن خرداذبه » المتوفى في حدود ٣٣٠ هـ أن من كور قنسرين « كورة سرمين » وكورة حلب أي أنها عادلت حلب اداريا ·

---

(١) الجَزْر : هي المنطقة التي تقع فيها ناحية معرة مصرين الأن من أهم بلدانها وقراها مرتحوان ـ كفتين ـ بيت راس ـ الكفر ـ حزانو ـ حربنوش وفي أرض الجزر جرت المعركة بين المسلمين بقيادة « أبي عبيدة » والروم حيث لقيهم وقتل عدة بطارقة منهم وفتح معرة مصرين على مثل صلح حلب ، كما ذكر البلاذري ، عرفها ياقوت الحموي بأنها « كورة من كور حلب »

وبالرغم من الحروب والشدائد التي مرت بها « حروب الصليبيين » وحملة المغول » ظلت مدينة ذات أهمية ادارية وسياسية واقتصادية حتى أوائل العهد العثماني ·

أما الآن فهي قرية تابعة لناحية قرى مركز ادلب سكانها ٦٩٦٦ نسمة تبعد عن ادلب ٨ كم الى الشرق منها ·

ذكرها ياقوت الحموي المتوفى ٦٢٦ هـ ١٢٢٩ م بما يلي ـ سرمين بفتح أوله ، وسكون ثانيه ، وكسر ميمه ثم ياء مثناه من تحت ساكنة ، وآخره نون : بلدة مشهورة من أعمال حلب قيل انها سميت بسرمين بن اليفر بن سام بن نوح عليه السلام ، وقد ذكر الميداني في كتابه الامثال أن سرمين هي مدينة سدوم التي يضرب بقاضيها المثل ، وأهلها اليوم اسماعيلية ـ كما ذكرها ـ أبو الفداء المتوفى ٧٣٢ هـ ١٣٣١ م أي بعد ياقوت بقرن بما يلي ـ من الاقليم الرابع من أعمال حلب · بفتح السين وسكون الراء المهملتين وكسر الميم ثم ياء مثناة من تحت ساكنه ونون بعدها · ومدينة سرمين بلدة ذات أشجار كثيرة من زيتون وغيره ، وليس لها ماء الا مايجتمع من الامطار في الصهاريج ولها ولاية وعمل متسع · وهي ذات خصب وأسواق ومسجد وجامع وليس لها سور · وبين سرمين وبين حلب مسيرة يوم واحد · وحلب في شمالها وهي على منتصف الطريق بين المعرة وحلب ـ ·

لن نطيل وقفتنا في سرمين ، فهي تستحق كتابا مستقلا عنها ، وسنعود اليها في أبحاث مستفيضة أخر ·

ماذا كتب الرحالة عنها ! وهل أوفوها حقها من الاهمية ؟ !

لنقرأ حديثهم عنها ···

★ ★

كتب ناصر خسرو ٤٣٨ هـ ١٠٤٧ م ـ بعد أن أمضينا ليلة في قنسرين غادرناها في اليوم التالي وسرنا ستة فراسخ وبلغنا مدينة سرمين التي لاسور لها ـ ٠

★

وحدد شيخ الربوة المتوفى ٧٢٧ هـ موقعها فقال ـ وسرمين هي في طرف جبل السماق ، وهذا الجبل معمور بطائفة تسمى النصيرية وطائفة الاسماعيلية ٠ وهو جبل أعمر الارض وأعملها فلاحا من رآه رأى الاندلس لم يفرق بين فلاحتها وفلاحة الاندلس ـ ٠

★

وفي ذات الوقت زارها الرحالة العربي المشهور ابن بطوطة سنة ٧٢٥ هـ ١٣٢٥ م ـ في القرن الرابع عشر الميلادي ـ ، قادما من المعرة ويصفها لناقائلا ـ ثم سرنا الى مدينة سرمين ، وهي حسنة ، كثيرة البساتين ، وأكثر شجرها من الزيتون ، وبها يصنع الصابون الآجُرّي ويجلب الى مصر والشام ، ويصنع بها أيضا الصابون المطيب لغسل الايدي ويصبغونه بالحمرة والصفرة ٠ ويصنع بها ثياب قطن حسان تنسب اليها ٠ وأهلها سبابون يبغضون العشرة ، ومن العجب أنهم لايذكرون العشرة وينادي سماسرتهم بالاسواق على السلع ، فاذا بلغوا الى العشرة قالوا تسعة وواحد ٠ وحضر بها بعض الاتراك يوما فسمع سمسارا ينادي : تسعة وواحد فضربه بالدبوس على رأسه ، وقال قل عشرة بالدبوس وبها مسجد جامع فيه تسع قباب ولم يجعلوها عشرة قياما بمذهبهم ٠ ـ ٠

حول النصوص السابقة نبدي بعض الملاحظات ذكر ناصر خسرو بأن سرمين ليس لها سور ، ولكن المتأخرين من المؤرخين ذكروا بأن سورها قائم ، وهو من الحجر ، لكنه خرب ودثر ٠

أما ذكر ابن بطوطة أهلها فهو يعني بذلك ـ الاسماعيلية ـ الذين انتشروا في مدن المحافظة وبالاخص في جبل السماق ـ جبل الزاوية الآن ـ ٠ وفي سرمين كان لهم بها دار دعوة ٠ ولم يزل بهذه الدار نائب عن الاسماعيلية بعد استيلاء التتر على حلب وبلادها حتى رفع أيديهم عنها السلطان الملك الظاهر سنة خمس وستين وسبعماية هجرية ١٣٦٣ م ٠ أما المسجد الجامع فهو مازال قائما ويدعى ـ الجامع الكبير ـ وهو كما وصفه بتسع قباب ٠

كما كانت سرمين زمن مروره ، مزدهرة اقتصاديا ، وخاصة في صناعة الصابون ونسج الثياب ٠ وكان يطلق على الالبسة المصنوعة فيها ـ البسة سرمين ـ في الاسواق الاخرى ، كما يطلق الآن على بعض الانسجة الدمشقية في اللغات الاوربية Damesgué ـ دامشكي ـ

★ ★

في العهد العثماني ـ ١٥١٦ ـ ١٩١٦ وفي بدايته كانت سرمين موضع اهتمام السلاطين العثمانيين ٠ هذا الاهتمام جعل منها :

١ ـ مركزا اداريا للمنطقة كلها ٠

٢ ـ وسطا تجاريا بين حلب وميناء الاسكندرونة ودمشق ـ وفي فترة من الفترات عمل أهلها مع أهالي ادلب بتهريب البضائع من ميناء الاسكندرونة الى حلب ـ ٠

٣ ـ مركز اشعاع فكري في الفقه والتصوف والشعر والطب حتى ان علماءها وصل صيتهم الى القاهرة واسطنبول ٠ هذا على

الصعيد الخارجي ، أما في سورية ففي كل بلد تجد العالم والشاعر السرميني ٠

٤ ـ مركزا لانتاج الصابون والحرير وغيرها من الصناعات التي كانت تغرق أسواق مصر والشام ٠ بل ان صناعة الصابون فيها وصلت الى تفوق جعل الاسواق الاخرى تسعى الى أضعاف صناعتها ٠ وهذا ماكان بعدئذ اذ حكر ـ محمد باشا الكوبريلي ـ في منتصف القرن السابع عشر ـ انتاج الصابون في المنطقة بمدينة ادلب ، وأعفاه من الرسوم والاعشار ٠

★ ★

الرحالة الهولندي الدكتور ليونهارت راوولف Rauwolff ـ زار المحافظة سنة ١٥٧٣ م بعد أن غادر حماه مر بقرب المعرة متجها نحو حلب ـ واذ ذاك شاهدنا عن يسارنا مدينة سرمين وهي على مسافة بعيدة عنا وعلى مقربة منها وحواليها غابة كثيفة من أشجار الفستق الذي يجمعونه هناك ويبعثون به الى طرابلس ، ومن ثم يصدر التجار منها الى بلادنا الاوربية ٠ وتنمو هذه الاشجار على مقربة من الطرق الخارجية وعلى الاخص عند قرية باسيلو والتي مكثنا فيها ـ ٠(٢)

★ ★

اذن من هذا النص نستنتج بأن سرمين كانت محاطة بأشجار كثيفة كالغابة ، وبالاخص الفستق الذي يصدر الى البلاد الاوربية ٠ أما قرية باسيلو فلم نتمكن من تحديدها ولعلها دثرت أو تغير اسمها ٠

---

(2) RAUWOLFF - Dr. LEONHART : Collection of Curious Travels and Voyages in Two Tomes - LONDON 1693

وفي عام ١٧٢٥ م امضى الرحالة الانكليزي كرين Green ليلة في سرمين فوصفها بأنها ـ بلدة جميلة وظريفة ، ذكرت مرارا لدى كتاب الحروب الصليبية ، وبالنسبة لنا كانت أولى مراحل سفرنا ـ لقد وصف سرمين بأنها بلدة جميلة ، بينما كتب عن المعرة بأنها قرية حسنة فقط حيث لايشاهد فيها الا مخازن وآثار دارسة هنا وهناك ـ ٠

★ ★

وبعد كرين بثلاثة عشر عاما أي في عام ١٧٣٨ م يزور سرمين بعد المعرة رحالة انكليزي مثقف ومطلع في التاريخ يدعى بوكوك Pocock لكنه لم يصف لنا الكثير كما فعل في المواقع الاخرى كتب يقول ـ وفي الخامس والعشرين انطلقنا من المعرة وبعد حوالي ست أو سبع ساعات وصلنا الى سرمين ، حيث ذهبنا للنوم في مصطبة دكان ، لقد أرسلت من حماه الى صديقي في حلب رسالة أعلمه فيها بأني مع القافلة ، كما أوصاني صديقي بأن أفعل بمضمون الرسالة ، وبلغ من لطفه أن أتى الى هذا المكان لمقابلتي ٠ فلما وجدني قادني الى خيمته ٠ وبعد الظهر ذهبنا الى ريح (٣) ـ ٠

وفي حوالي عام ١٧٥٠ ذكر الاخوان رسل Russel بأن سرمين كانت تعتبر آخر مدينة آهلة في جنوب ولاية حلب (٤) ولايقصدان بعبارتهما آهلة الا أنها ذات واقع عمراني جيد واقتصاد مزدهر ٠

★ ★

---

(3) POCOCK : Mention Above P. 146
(4) RUSSELL (ALEX) : The Natural History of Aleppo - LONDON 1794 Tome - 2 - P. 338 - 339

في عام ١٨٠٥ أطل الرحالة ستيزن Steezen الى سرمين فكتب يقول
ـ الساعة التاسعة الا عشرة دقائق وصلنا الى قرية سرمين Sermin
وهي مشهورة وجديرة بالاهتمام · فيها أربع مقاهي ومئذنة
مربعة الشكل و جامع · نصبنا خيمتنا هناك ، ومكثنا في هذا
المكان · وعلى يميننا تقع على بعد ساعة مدينة ادلب

★

أصبح الطريق فيما بعد أسوأ مما كان عليه الى أن وصلنا في الساعة العاشرة والنصف الى قرية اسفين I'Sphine حيث القرية المهدمة المهجورة الواقعة قرب هضبة صخرية كلسية اصطناعية · وعلى مسافة ساعتين من هذه القرية تقع بلدة ريحا Riha باتجاه مدينة لاذقية Lattakia · كان في قافلتنا حوالي مائة شخص من الرجال والنساء الذين تركوا حلب ونزحوا الى دمشق طلبا للعيش ، فهم من العمال الفقراء العاملين في قطف القطن ونسج الحرير (٥)·

★

ذكر هذا الرحالة أهمية سرمين ولكنه بخل علينا بالمعلومات التي التي زودنا بها فيما بعد الرحالة بوركهارد ·

أما قرية اسفين فهي تقع الى الجنوب من قرية النيرب وقميناس الى اليمين من طريق ـ الاوتوستراد ـ القادم من ريحا الى سراقب زرناها صيف عام ١٩٨٤ فلم نجد آثار القرية ، فقط بعض الاحجار المنقوشة ·

وبعد معاينتها وجدنا مايلي :

---

(5) STEEZEN Ulrich Jasper : Reisen Duch Syrien, Palastina, Phonicien, Arabia Petraea und Unter - Aegypten Berlin — 1854 P. 4 — 10

١ ـ ساكفة منقوشة نجد مايماثلها في المواقع الاثرية الاخرى، وهي ذات نقش بديع ٠

٢ ـ آثار قصر روماني أو بازيليك ٠

وهذه القرية الاثرية الدارسة تعود الى القرن السادس الميلادي أما التل فما زال يدعى تل اسفين ، يبلغ ارتفاعه ٤٦٣ م عن سطح البحر وبقربه تل آخر اصنطاعي كذلك و يدعى تل اسفين ويبلغ ارتفاعه ٤٧٠ م عن سطح البحر وجدنا فيه بعض القطع الحجرية الصوانية السوداء ، من مصانعتها عرفنا بأنها كانت بعض أدوات الطواحين أو معاصر الزيت ٠

تلك آثارنا تدل علينا ، ٠٠٠ فانظروا بعدنا الى الآثار

★ ★

ومع اطلالة القرن التاسع عشر يزور سرمين الرحالة الباحث بوركهارد Burkhardt ليحدثنا حديث العارف المطلع ، الباحث المنقب ، فلاغرابة في ذلك ، لانه عالم في اللغات ، باحث في الشرق، وكل بلدة يكتب اسمها في العربية الى جانب اسمها بالانكليزية في كتابه القيم ٠كتب في مذكراته ـ شباط ١٥ منه ١٨١٢ :

ـ بعد السير عشر ساعات ونصف ، وصلنا الى سرمين بعد أن وجدنا بعض المشقة في عبور السهل الوحلي ٠ ولعل أول مايلاحظ فيما يجاور سرمين ، وجود العدد الكبير من الصهاريج والآبار المنقورة في الصخر ٠ في البلدة بل في كل منزل صهريج خاص به ، لتقديم الماء الى قطعان مواشي الفلاحين في الصيف ، لعدم وجود ينابيع في هذه البقاع ٠

في جنوب غرب سرمين سرداب واسع تحت سطح الارض ، محفور

في الصخر الصلد ، موزع الى عدة حجرات ، ومدعم في أماكن عدة بدعائم دائرية عليها أحرف نافرة وبالقرب منها حفر أخرى متعددة . كلها مسكونة من قبل الفلاحين الفقراء .

سرمين تخص عائلة ـ قدسي أفندي ـ في حلب .

★

ان نص بوركهارد هذا يؤكد بلا شك قدم سرمين بل يرشدنا ، الى أن سرمين القديمة هي تحت أنقاض سرمين الحديثة ، فهل تنتبه بلدية سرمين وابناؤها عند اجراء الحفريات الى مدينتهم العظيمة التي كانت في يوم من الايام عاصمة بل مركز محافظة ادلب ان صح تعبيرنا هذا .

نخلص من نص بوركهارد أيضا ، الى أن واقع سرمين الاقتصادي والاجتماعي ، بدأ بالانحدار نظرا لوجود الاقطاع فيها ، فعائلة قدسي كانت لها اليد الطولى في الحصول على منتجات سرمين ، وكذلك منازلها لم تعد تأوي الفلاحين الفقراء لقصر يدهم ، وضعفهم الاقتصادي مما دفعهم للسكن بين الخرائب الاثرية ، حتى ولوكانت في كهوف تحجبعنهم الهواء والشمس .

★ ★ ★

وفي عام ١٨١٥ يزور الشيخ ـ اسماعيل الكيالي ـ سرمين مهد أجداده ، ملتقيا مع أفراد عائلته يقول مرافقه الشيخ محمد الكيالي وهو بادلب ـ ثم جاء لزيارته من هو بالخلق الجميل موصوف ابن عمه المحترم السيد الشيخ الحاج عبد الرؤوف فدعاه لصلة رحم بضعته واحفاده ، وزيارة ضريح ولده وضرايح آبائه وأجداده . فأجابه حضرة الاستاذ لذلك . فذهبنا صحبة سعادته الى هنالك . فلما أقبلنا

قصبة سرمين ورأى الاستاذ الاشائر والاعلام خافقة بأيدي الحاملين أسرعت مهرولة لديه وعكفت من كل الجهات عليه . فأخذه المقيم المقعد من الهيام فنزل عن المركوب يمشي على الاقدام فبدأ بزيارة الشيخ عبد الكريم أبي جده وخرج لزيارة جده الشيخ أحمد مسرعا بكليته وجهده . فدخل لمزاره ثم لمزار شقيق أبيه وزار ضريح أبي الشيخ عبد الرؤوف ومن يليه ثم كرراجعا لزيارة ولده الشهيد الولي المرحوم المبرور السيد الشيخ علي . فحين وصوله جلس مستلقيا على رمسه ، فحصل له من الجلال والحال ماغيَّب كلا منّا عن شعوره وحسه ثم أفاق من الغيبة ، ودقت له عند مسيره الى الزاوية النوبة . فاستقام الى أن أقبل الليل . فامر بالرجوع الى المحل وتوجيه الخيل فبادرنا بالركوب وسرنا الى أن على البلـد أشرفنا ـ يقصد بالبلد ادلب ـ .. (٦) .

ولتوضيح هذا النص أكثر يراجع بحثنا عن رحلة الكيالي بادلب ، حيث قدمنا لمحة موجزة عن بعض شخصيات هذه العائلة الكريمة .

★ ★

وفي خريف سنة ١٨٩٥ زار المحافظة الابلويس شيخو والذي لم يزر سرمين ، لكنه تحدث عن المواصلات المؤدية اليها كتب يقول ـ وخان سبل هي نصف الطريق بين حماه وحلب . ومنهـا الى الشهباء دربان قديم وحديث فالقديمة لايصلح للعجلات . ويمر على سرمين وقنسرين غربا وهما مدينتان جليلتان أصابتا قبل حلب مجدا عظيما وكانت سرمين كثيرة البساتين شهيرة بمعامل صابونها الذي كان ينقل الى الشام ومصر ، وكانوا يصنعون منه ضروبا شتى كالصابون الآجري والصابون المطيب لغسل الايدي ، وكانوا

---

(٦) الكيالي ـ محمد : الحلة السنية للرحلة الشامية ـ مخطوط خاص ـ

يصبغونه بالالوان شأن الصابون الغربي في أيامنا ، وكانت قنسرين تدعى كلسيس ، تتوارد اليها تجارة الهند والعجم والعراق كما نقلت بعد ذلك الى حلب لما خربت قنسرين . أما الدرب الحديث فيقطع السهول تواً شرقي سرمين وقنسرين - .

★ ★

وفي عام ١٩١٠ م ١٣٢٨ هـ مر بها الامير محمد علي باشا فكتب يقول - ومررنا بعدئذ ببلدة تسمى السرمين - وهي مشهورة بالينابيع والعيون الكثيرة التي تتفجر من خلال الصخور ويقال ان في هذه القرية عددا كبيرا من المغارات والكهوف حيث كان الناس في سابق الزمان يسكنونها ويأوون اليها والى بطون الجبال. أما أرضها فكان منها الخصب المزروع ، ومنها القحل الاجرد بسبب تغلب الملوحة في تربته . أما تلك الاراضي المملحة فكانت ترى للمسافر على مسافة بعيدة من البلد ثم مررنا ببلد يدعى بخان تومان . ويزعمون أن هذا الاسم مأخوذ من اسم أحد السلاطين . وعند هذه القرية يشاهد المسافر مآذن حلب من بعيد . (٧)

★

هذه هي سرمين في لمحة موجزة ، وسنوفيها حقها في كتاب مستقل عنها ، لانها أم المدن في محافظة ادلب ..

أين أيامك ! أين مجدك الذي تنازع عليه الامراء !

أين ضياعك التي كانت تتسمى باسمك ! فاذا بها الآن تستقل عنك ولا نقول لها « نيرب سرمين » كما كانوا يدعونها سابقا .

---

(٧) محمد علي باشا - الرحلة الشامية ص ١٤٤ - القاهرة ١٩١١ .

ننتقل الآن الى ادلب البلدة المنسية في زوايا التاريخ ، والتي حار في أمرها المؤرخون ، كما استغلق على أهلها حكاية تاريخها ، مما أوقع الكثير بالتفسيرات الخاطئة حول نشوئها ، كأنها ـ اسطورة غامضة ـ كل هذا دفعنا لوضع كتاب يؤرخها ويفتح مغاليق أبوابها المغلقة بعنوان ـ ادلب ·· البلدة المنسية ـ وهو قيد الاعداد · لذا لن نتحدث كثيرا عنها ، طالما سنتبع كتابنا هذا بكتاب آخر يبحث بتاريخها والقرى المجاورة لها ·

تقع ادلب شمال ـ غرب الجمهورية العربية السورية ، وهي مركز محافظة ادلب منذ عام ١٩٦٠ ـ انظر المرسوم الخاص بها في صدر الكتاب ـ عدد سكانها ١٤٦٨٢ نسمة تبعد عن دمشق ٣١٥ كم وحلب ٥٩ كم ولاذقية ١٢٧ كم وحماه ١٠٦ وحمص ٤٤٢ كم ورقة ٢٧٧ كم ·

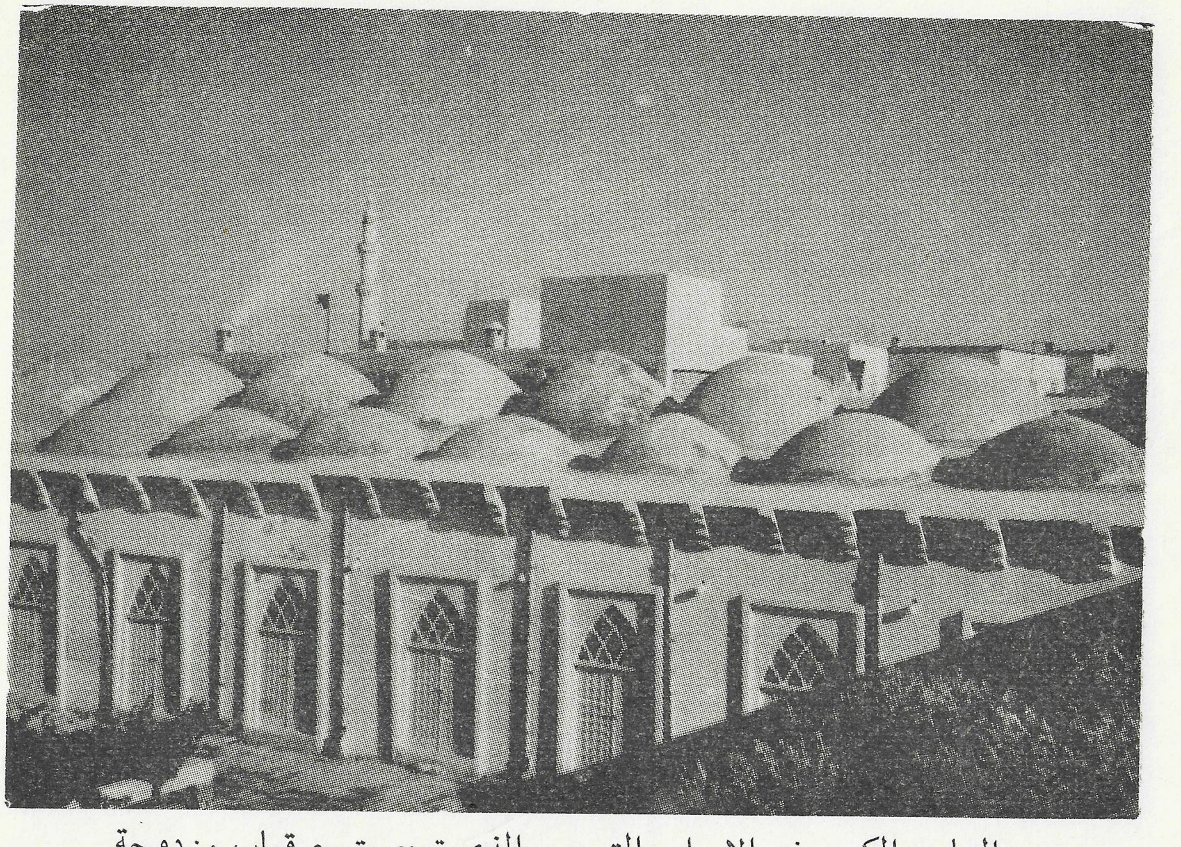
لم نعثر الا على خمسة نصوص للرحالة الذين مروا بادلب ، ولا نشك بوجود كتب أخرى ، ولكن هذا يحتاج الى وقت ، وان كنا نعتقد بان هذه النصوص كافية لالقاء أضواء ساطعة على تاريخها · فهيا بنا نرافقهم ، فمتعة الرحلة أجمل متعة ·

★ ★

في عام ١٧٣٧ م ١١٥٠ هـ جاء جماعة من الرحالة من علماء الازهر على رأسهم الشيخ العلامة الادهمي الطرابلسي ، حيث انطلقوا من دمياط في مصر الى طرابلس الشام ، وعبر الساحل الى لاذقية · فلنستمتع بما شاهدوه في ربوع المحافظة ·

غادروا لاذقية الى حلب فمروا بقرية ـ البهلولية ـ وهي ملك أحمد الزيادي الذي كانوا ضيوفه في لاذقية ومروا بعقبة السكون

ـ أو السفكون ـ ووادي القرشية ، الذي مر منه صلاح الدين الايوبي سنة ١١٨٨ م في طريقه الى قلعتي شغر بكاس في محافظة ادلب ووصف وعورة هاتين العقبتين وصعوبة السير فيهما فقال ـ وفي أثناء ذلك الضيق لاح لنا بيت على قارعة الطريق • فتقدمنا لطلب البيان • فاذا نحن بشيخ وثلاثة نسوان • فسألنا عن الناس الاجواد • فقيل لنا انهم من أهالي الاكراد • واحدى الثلاثة رعبوبة ذات جمال وغادة قد تسربلت برداء الدلال • فتقدم اليهن رفيقنا ـ ابن بدران ـ • وقال : هل ماء الى ابن السبيل الوارد العطشان •• وصار يطيل النظر اليها • ويلقي من أسرار لواحظه عليها فاندفعت تسقي الوارد وطفقت تطفي ببرودة كلامها حرارة الاكباد وابن بدران هذا كان امرأ فيه دعابة وحسن نادرة ، فكانوا يستخرجون من نكته ولطائفه مايطربهم ويزيل كربهم ويخفف عناءهم • قال : ومرت علينا ونحن في ذلك المكان قافلة كبيرة من الركبان • فسألنا الى أين أيها الاخوان فقالوا لنا من ادلب الى زيارة السلطان • فقلنا لهم مصحوبين بالسلامة • ولازالت العناية لكم ترعى • ولاتنسونا معاشر الاخوان من صالح الدعاء ـ والسلطان هذا هو السلطان ابراهيم بن أدهم دفين جبلة في محافظة اللاذقية ، قصدته هذه القافلة من ادلب مكابدين عناء السفر ، وقطع تلك العقاب الشاقة لاجل زيارته • ثم وصلوا الى جسر الشغر فذمها المؤلف وقدح في مروءة أهلها حتى بلغوا ادلب • فلم يجدوا محلا لنزولهم • ثم وقعوا على مكان عظيم البناء رحب الفناء ، وسألوا عن صاحبه فخرج اليهم شاب لطيف حسن المحيا ، فرحب بهم وأخبرهم أن المكان ـ مطبخة صابون ـ أي موضع طبخه وصنعه ويسمى ايضا ـ مصبنة ـ على وزن مفعلة من الصابون • وصنعة الصابون حينذاك كانت من أكبر موارد الرزق في ادلب • ثم سألوا الشاب عن مالك ـ المطبخة ـ فقال هو ـ أحمد



الجامع الكبير ذو الابواب التسع ، الذي توج بتسع قباب مزدوجة
— سرمين —

أفندي ابن طه افندي ـ نقيب أشراف حلب . ثم هيأ لهم في المطبخة مكانا لنزولهم فنزلوا واذا رجل شائب فظ دهمهم وجعل يسب الشاب بكلام بذىء ونال منهم ايضا . فسألوا الشاب عنه وعن خبره فقال ان اسمه ـ على النداف ـ وان والده أي ـ والد الشاب ـ كان في هذه المصبنة بيّات ـ كذا فلعل البيّات هو رئيس عمالها أو حارسها الذي يبيت فيها ـ . ولما مات والدا الشاب جعل هذا الشيخ الفظ يعارضه ويريد رفع يده عن المصبنة قال ـ وبرقبتي اخوة صغار . وثلاث أخوات أبكار ـ ثم قال والداهية الدهماء ـ انه سُرق لافندينا نصف قنطار من الصابون ، وأنا خايف من أفندينا أن يدري ـ ويعني بقوله افندينا مالك المصبنة نقيب أشراف حلب فبشروه أنهم اذا وصلوا حلب واجتمعوا بنقيب الاشراف قصوا عليه الخبر وسألوه تفريج الكرب عن الشاب . وهكذا وقع . فانهم ذكروا للنقيب حادثة ـ على النداف ـ وما ارتكبه من قلة الانصاف فخجل وعزله من بياتة المصبنة . ثم تفسحوا في شوارع ادلب وأسواقها فرأوا ـ في أهلها حسن بشاشة ونوع من الانس واللطافة ـ ولكنهم لما ارادوا االصلاة وجدوا المساجد مقفلة الابواب حتى ظفروا أخيرا بمدرسة مفتحة الابواب وأرادوا زيارة ـ الكاملي الكبير ـ ؟ وهو الذي اتفق على زهده الصغير والكبير ـ فلم يهتدوا الى داره ! ثم استزارهم المفتي فزاروه للتبرك ودخلوا ـ الى مكان صغير وجدوا فيه من الاشراف جما كثيرا ـ ثم ان المفتي جعل يشنف آذانهم باخبار بلاد الروم ـ يعني القسطنطينية ـ اسطنبول اليوم . وطلبوا منه زيارة والده . لاجل الشرب من رايق موارده ـ فأخبرنا أنه نائم . وهو في بحر من الولاية عائم ـ . ثم أنهم خرجوا من دار المفتي ولم يروا والده وذهبوا مع الشيخ عمر ؟ فدخلوا الى جامع صغير وتركهم الشيخ عمر وغاب قدر نصف ساعة ثم عاد ومعه ـ هيطلية ـ فأكلوا منها بحسب الامكان . ثم برحوا ادلب الى

بنيش فخان طومان ثم حلب .

أمضوا في حلب أحد عشر يوما ثم عادوا الى طرابلس الشام كما يلي خان طومان ـ قرية القناطر ـ ادلب ونزلوا فيها في ـ مصبنة النداف ـ ومعهم كتاب بعزله عن بياتة المصبنة من صاحبها ـ أحمد أفندي بن طه أفندي ـ نقيب أشراف حلب فارسلوا الكتاب الى نقيب أشراف ادلب فعزله بالطبع . ثم زاروا في ادلب ـ الكامل الكبير ـ . وقد قال في صفته ـ وجدناه كعبة الهداية غارق في بحور الولاية . نفعنا الله ببركاته . ومتع أهل ادلب بطول حياته ـ . وبرحوا ادلب فنشبوا في أوعار الطريق ومضايق الجبال وعقابها قال ـ ولما قطعنا صعابها .. أخذت دابتي بالخشوع فهوت الى الارض فنزلت ناويا السجود والركوع . فرَضّ كتفي وجنبي واحتسبت مصابي عند ربي ـ . (٨)

من مضمون النص السابق نستخلص مايلي :

١ ـ ـ المصبنة ـ التي ناموا فيها لم تكن ملكا لابناء ادلب بل هي ملك نقيب أشراف حلب ـ أحمد أفندي بن طه أفندي ـ وهذا

---

(٨) النص الكامل وجده « المغربي » في مخطوطات مكتبة والده ، راجع في ذلك مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ـ المجلد السابع سنة ١٩٢٧ ص ٣٠٢ ـ ٣٠٣ ذكر بأنه لم يعرف اسم العنوان فسماه كراس شارد ووضع له عنوانا من خلال مضمونه « رحلة الى حلب والشام في سنة ١١٥٠ هـ » قائلا لم يعرف مؤلفه لفقدان الورقة الاولى من المخطوط ـ ولكننا لدى تنقيبنا في البحث عنه عرفنا اسمه اذ نشر الشاعر الكبير « أمين نخلة » في مجلة المشرق الجزء الثاني ـ تشرين الاول ـ ١٩٤٥ ص ٥٦ رداً على مجلة المجمع بأن اسم المخطوط « تحفة الادب في الرحلة من دمياط الى الشام وحلب » للشيخ أحمد بن صالح بن منصور المعروف بالادهمي الحنفي الطرابلسي المتوفي سنة ١١٥٩ هـ / ١٧٤٦ وأنه فرغ من تحريره سنة ١١٥٠ هـ ـ راجع ترجمته في تراجم الرحالة
كما أن « المغربي » في النص المنشور علق كثيرا على بعض أسماء الشخصيات ، اذ نسبهم الى آل الكيالي دون تحقيق . ويلحظ القارىء ذلك خلال نصنا المحقق .

صحيح ، لان هناك وثيقة تقول ومصبنة في ادلب الصغرى فيها قدران وثلاثون جبا هي وقف خاص بالمدرسة الاحمدية بحلب التي هي في زقاق بني الجلبي • أما واقف المدرسة المذكورة فهو ـ أحمد أفندي بن طه أفندي ابن مصطفى أفندي ـ • وهذه المصبنة مازالت قائمة ولكنها الآن معصرة زيتون تقع في الجهة الشرقية من البلدة قرب الجامع الكبير كما قدم لنا الرحالة صورا من حياة المصابن والواقع الاجتماعي والاقتصادي فيها •

٢ ـ وجدوا المساجد مقفلة الابواب ـ فلماذا ؟ لدى الرجوع الى الوثائق تبين أن المساجد كانت تغلق لقلة المياه وكي لايأخذ بعض الفقراء مياه الوضوء من الجوامع •

٣ ـ ثم تفسحوا في شوارع ادلب وأسواقها فرأوا في أهلها حسن بشاشة ونوع من الانس واللطافة ـ • اذن أخلاق أهالي ادلب هي هكذا منذ وجدت ترحب بالغريب وتفتح له صدرها وهي مازالت حتى الآن كما كانت • أما ذكرهم الشوارع والاسواق فدليل على تقدمها الاقتصادي وتنظيمها العمراني وهذا من أفضال ـ محمد باشا الكوبريلي ـ عليها اذ هو الذي نظمها عمرانيا ورتب أسواقها ، ووزع حرفها ، فلكل حرفة سوق ، ولكل صنعة مكان • وهو الذي بلّط شوارع ادلب ، مع أن كثيرا من البلدان الاخرى لم تكن مبلطة ـ وبكل أسف أزيلت مثل هذه الشوارع •

٤ ـ وجود مدرسة بادلب في ذاك الوقت دليل على تقدمها العلمي وكذلك وجود علماء فيها ، اذ عرفت ادلب بعض الشخصيات الهامة ، والتي وصل صيتها وسمعتها الى البلدان المجاورة الى حماه وحلب ودمشق والقاهرة واسطنبول بالذات كالاستاذ العلامة الشيخ

ـ شعيب الكيالي ـ أستاذ الزبيدي مؤلف ـ تاج العروس في شرح القاموس ـ ٠

كما ذكر الرحالة وجود المساجد والمدرسة التي تفتح أبوابها للجميع وعلى رأسها العالم الجليل ـ الكاملي الكبير ـ الذي ـ اتفق على زهده الصغير والكبير ـ فوجدوه ـ كعبة الهداية ـ ، غارق في بحور الولاية ٠ نفعنا الله ببركاته ومتع أهل ادلب بطول حياته ـ ولكن للاسف فقد توفي العالم الكبير ـ أحمد الكاملي ـ سنة ١١٥٢ هـ بعد زيارة الرحالة بسنتين ٠ ولد الكاملي سنة ١٠٨٠ هـ في قرية بكفالون التابعة لناحية قرى مركز ادلب تبعد عنها بـ ٣ كم ـ وهي الآن مزرعة ـ أخذ عن والده مبادىء العلوم ورحل الى مصر ، حيث درس في الازهر الشريف عشر سنوات وعاد بعدها الى بلده بكفالون ، غادرها بعدئذ الى ادلب واستقر فيها وبلغ صيته البلدان المجاورة ٠ كان قبره يقع جنوب البلدة القديمة ودفن ابنه الى جواره وبكل أسف ازيلت معالم قبره الذي كان يقع أمام مديرية الخدمات الفنية وذلك حوالي الخمسينات من هذا القرن لم يذكر الرحالة اسم المفتي الذي زاروه للتبرك به ، ولدى اجتماعهم معه وجدوه مع كثيرمن الاشراف ٠لكننا عرفنا اسم المفتي في ذلك الوقت هو ـ الشيخ علي الجوهري ـ من الاسرة المعروفة بادلب ٠ وقد كتب هذا المفتي على باب أحد المساجد هذين البيتين ٠

عرِّجْ ركابك إن مررت بادلب
واحفظ أخي نصيحةً من ناصح
فيها الجوامع قفلت أبوابُها
والماء لو تبقى فما من مانح

أما والد هذا المفتي الشيخ علي الجوهري فقد كان من رواد الصوفية بادلب ، والتي كانت طرقها سائدة في ادلب وسرمين وريحا أما الشيخ عمر فلم نتمكن من معرفته ، والذي أحضر لهم الهيطلية هذه الاكلة المعروفة بادلب منذ ذاك الوقت • أما معنى هيطلية فهو اسم جماعة كان لها دور بارز في التاريخ الايراني •

٥ ـ بنيش : هي بلدة بنش الحالية تقع الى الشرق من ادلب ب ٩ كم • عدد سكانها ١١٢٨٠ نسمة وهي من القرى القديمة في المحافظة • سنذكرها عرضا في كتابنا هذا • مر فيها كذلك ـ الشيخ اسماعيل االكيالي ـ عام ١٨١٥ قادما من حلب • كتب مرافقه الشيخ محمد الكيالي يقول ـ وكلما مررنا على قرية خرج أهلها للقيانا وطمعوا في نزولنا عندهم و قرانا فلم نجبهم لما هم فيه من الصدد حيث سبق البريد من قبلنا الى البلد • فحين جاورنا قرية بنش بميل أقبلت وفود الملاقين ـ من ادلب ـ غايرة على أجنحة التعجيل ••• وبعد ادلب يزوران بلدانا وقرى عدة في بلاد الشام • ولدى عودتهما الى حلب يمران بادلب وبنش عام ١٢٣٢ هـ ١٨١٦ م فكتب يقول ـ شرعنا نتدارك مهمات السفر الى ان طلعت طلايع صبح يوم الاربعاء الذي هو من شوال الرابع عشر فتواعدنا مع ذي الكمال المعروف حضرة ابن العم الاكرم السيد الشيخ عبد الرؤوف بأن يلاقي لنا الى قرية بنش العامرة لنكون في خدمة الاستاذ في الطريق حتى ندخله الى زاويته الفاخرة، ولما شاع خبر نزول الاستاذ ذلك اليوم جاء في الصباح بعض أهل القرية يستدعون النزول عندهم مع النوم ، فأجبناهم لما قصدوا ، ورددناهم لتهيء النزول من حيثما وفدوا وأقبل الناس من وضيع

وشريف يودعون الاستاذ ... الى القرية المعمورة ـ بنش ـ فخرج أهلها لملتقانا ، فادخلونا واحسنوا نزلنا ومثوانا ، وأكرمونا غاية الاكرام ، وبذلوا جهدهم في احسان الطعام ، فلما رفعت مائدة العشاء وصليت فريضة العشاء ، أمر الاستاذ الاكرم بقيام الذكر المنير ، وحضر من أهل القرية جم غفير . فلما انقضت تلك الساعة، انصرف من حضر من الجماعة واستقمنا الى نصف الليل فحين مرور القافلة ، بادرنا لركوب الخيل ، ورجع من كان مودعا لنا من البلد ، وسرنا متوكلين على الواحد الاحد . وانما كان سيرنا في تلك الليلة المنيرة حذرا مما ينالنا من وهج حر الظهيرة ، وانزلنا الاستاذ في الطريق مرتين لحصول الراحة والاطمئنان . ثم نزلة أخرى للفطور في خان طومان ، ثم عقب الفطور ، اركبناه في الحين ، وطفقت ترد علينا وفود الملاقين . ولم نزل سائرين بالمدد الساري حتى وصلنا الى سبيل الانصاري ، فوجدنا المشايخ والافاضل والاكابر والاعيان والاماثل قد خرجوا لملتقى الهمام والاسد الضرغام ـ الشيخ اسماعيل الكيالي ـ .

★ ★

ننتقل الآن الى جو آخر ، ولنسمع ماذا كتب عنا الاوربيون مع العلم بأن معظم الرحالة كانوا في مستوى جيد من الثقافة ، فهذا طبيب وذاك قنصل ، وآخر عالم أو راهب .

الطبيبان الانكليزيان الكسندر وباتريك رسل Russel مكثا مدة في حلب من عام ١٧٤٢ الى ١٧٦٨ دونا انطباعاتهما عن حلب وولاية حلب في مجلدين ضخمين صدرا في لندن في طبعة اولى ١٧٥٦ ثم طبعة ثانية ١٧٩٤ .

لم يدونا عن ادلب والمنطقة الا القليل قالا ـ أدى وضع القرى المهمل من قبل باشوات حلب الى حالة يرثى لها على الرغم من أنها مكتظة بالسكان ، والتي تتقدم وتزدهر ببطء ، كما حدث في مطلع القرن الحاضر ـ يقصدان القرن الثامن عشر ـ • هذه القرى في انحطاط وبعضها في دمار • قريتا النيرب وتادف هما الى حد كبير منحطتين • اما قرية شجر الزيتون The Olive Tree Village ـ والتي عنيا بها ادلب الكبرى ـ بدت كأنها ستهجر كلية • ومن المؤكد ان من تلك الثلاثمائة قرية المهجورة لدى الباشوية سابقا ، بقي ثلثها االآن ١٧٧٢ م مأهولا بالسكان • أما الزراعة فمتأخرة نسبيا •

ولحديثهما شجون ليس مجال عرضها الآن ، مايهمنا قولهما مساحة كبيرة من الريف المكشوف ليست فقط معرضة للنظام الروتيني للسادة خلال حكمهم فيها ، ولكن أيضا معرضة الى فساد القبائل المتجولة من الاتراك والعربان ، والاسوأ من هذا كله فساد الجنود السارقين الذين لاتدفع لهم أجورا من الذين يطوفون من مكان لآخر تحت ضغط الاعدام وهذا ماساهم في الحاق الاضرار بالقرى العديمة القدرة على الدفاع عن نفسها ـ وكما سيحدث بعدئذ لدى زيارة بوركهارد الى ادلب •

نوجز تحليلهما للفساد الذي استشرى في البلاد ، وحالة البؤس التي صار اليها العديد من القرى القائمة في أطراف حلب ، قرى كانت حتى مطلع القرن الثامن عشر عامرة مزدهرة ، فتحولت في أقل من ثلاثة أرباع القرن الى أطلال ، كادلب الكبرى ، ومنطقتها أو الى قرى سائرة في طريق الفناء والزوال كتادف ونيرب وما جاورهما • كما ذكرا تحديد ولاية حلب من حيث العمران والسكان واعتبرا سرمين آخر مدينة آهلة في جنوب الولاية ـ بالطبع منطقة

سرمين تشمل ادلب ايضا ـ • كما ذكرا أيضا أن ـ من مناطق الولاية التي استقلت مؤخرا الشغر أي جسر الشغر حيث يرأس حكومتها آغا من أبنائها تشمل سلطته ادلب أيضا ، يعينه الباب العالي ولا يخضع لوال ما ـ •

★

نخلص الى القول مع رسل ، الى أن ادلب كانت تابعة اداريا الى جسر الشغر في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، لفترة وجيزة ، والمقصود بها طبعا ادلب الصغرى • أما الكبرى فقد بدأت بالانحدار كما ذكرا مع بقية القرى حيث هاجر أهلها الى مكان آخر وبالطبع الى الصغرى التي بدأت بالازدهار ابتداء من النصف الثاني من القرن السابع عشر ومطلع القرن الثامن عشر ، وفعلا لم يعد يذكر المؤرخون ادلب الكبرى بعد هذا الزمن •

والى الآن يذكر كبار السن في سرمين ، نقلا عن أجدادهم الذين عاصروا عظمة سرمين قولهم ، فيما اذا أرادوا السفر الى ادلب ـ نحن ذاهبون الى قرية الزيتون ـ مما يؤكد كلام الحالة ، وتطابقه مع روايات السكان • لنعد ونتابع رحلتنا مع بوركهارد الذي زار ادلب بعد سرمين ، وكتب عنها مايشفي غليلنا :

ـ شباط ١٦ منه ١٨١٢ : الى الشمال بنصف ساعة قرب طريقنا تل منعزل ، مع مقام مقدس يدعى قبة دينيت (٩) وجدنا زراعة السهل جيدة هنا ، لكن لاشيء مزروع الآن مابين سرمين وخان طومان • على يمين الطريق ـ يقصد سرمين ـ ادلب ـ تل مشابه ،

---

(٩) هي مزرعة تتبع قرية قميناس • الى الشرق الجنوبي من ادلب بـ ٥ كم • موقع دينييت له أهمية تاريخية كبرى • أما قبة دينيت فقصد بها المقام المشاد فوق تل دينيت ويسمى مقام العجمي (راجع تفصيل ذلك كتابنا « ادلب-البلدة المنسية » فصل القرى والمزارع) •

يقع مزار قبة منبيع [10] وعلى بعد ساعة واحدة الى اليمين أيضا في أعلى التل يقع مزار طار ، ونصف ساعة جنوب شرق دينيت تقع قرية قميناس [11] ، وفي خلال ساعتين ونصف من سرمين وصلنا الى بلدة ادلب، التي بدت لدى اقترابنا منها كلوحة فنية رائعة • تقع حول أطراف تل يقسمها الى قسمين ، و التل الاصغر في الطرف الشمالي •

هذه البلدة المحاطة بأشجار الزيتون ، وهذا المنظر ـ جملة ـ أثر فينا نحن الرحالة الانكليز ، في تصورنا كأنها أثينا بما يجاورها•؟ وهنا كذلك ، تجد آبارا كثيرة تحيط بالبلدة ، حفرت في التراب الصخري • هذا المكان يدعى ـ ادلب الصغرى ـ أما ادلب الكبرا التي لم يبق منها الا الاسم فتقع على بعد نصف ساعة من البلدة الحالية ، والتي لها تاريخها الحديث ، اذ يعود الى حوالي منتصف القرن السابع عشر •

قدرت عدد منازلها بحوالي الالف • أغلبية السكان ـ أتراك ـ ، لكن هناك حوالي ثمانين عائلة مسيحية يونانية ، وثلاث منهم أرمن يونان ، لهم كنيسة ، وثلاث خوارنة ، وهم تحت رعاية بطريرك اليونان بدمشق •

ـ أما التجارة الرئيسية بادلب فهي الصابون ، لكن يوجد بعض المصانع لحلج القطن ، ومنازل صباغة قليلة • ان الاسواق مبنية بناء جميلا ، وبعضها بني من الحجر •

---

(١٠) مزار قبة منبيع ومزار طار يقعان الى الشرق من ادلب قبل دخولك البلدة بحوالي ٢ كم •

(١١) قميناس قرية تقع شرق ـ جنوب ادلب ب ٥ كم قرب تل دينيت • تابعة لناحية قرى مركز ادلب • سكانها ٩٩٠ نسمة • وهي من القرى القديمة في المنطقة •

في البلدة عدة خانات ، اثنان منهم خصصا لاستقبال الغرباء ، لكن المبنى المتميز فهو مصنع الصابون ـ المصبنة ـ ، اذ هو بناء كبير ٠ ليس في ادلب حدائق ، اذ لايوجد ماء ، فقط من الآبار والصهاريج يوجد بساتين قليلة للرمان وأشجار التين ، وبعض مزروعات الخمر ـ العنب ـ ٠ أما الخضروات فيحصلون عليها من ريحا ومن عرى [١٢] وهي قرية تبعد مسافة ساعتين بين دركوش وجسر شغر [١٣] ٠

لايوجد سوى نبع وحيد في البلدة ، ذي ماء مالح قليلا ، ولا يستعمل أبدا ، فقط في الفصول الشديدة الجدب ٠ أخبرني الرجل الذي نظف قعر البئر العميق ، حيث ينبع الماء ، أنه وجد فتحتين في الصخر متقاربتين ، من احداهما ينبع ماء حلو ، بينما من الاخرى ينبع ماء مالح ٠

لقد قمت بجولة حول البلدة خلال سبع وثلاثين دقيقة ٠ فوجدت الارض الصخرية مليئة بالمغاور ، والآبار والحفر ٠
ان ادلب تحت اشراف عائلة كوبريلي زاده القسطنطينية [١٤]،لكن

---

(١٢) عرى قرية تقع في سهل الروج في الجانب الشرقي منه ، بقربها نبع ماء يروي **مدينة ادلب التي تبعد عنها** بـ ١٤ كم ٠ قرية قديمة ولعلها كانت **ذات تاريخ** ومركزا اداريا **هاما** ٠

(١٣) دركوش : مركز ناحية تابعة لمنطقة جسر الشغور تقع على طرف العاصي الى الشمال من بلدة الجسر بـ ٢٥ كم وعن ادلب ٣٥ كم ع/ط جبل الوسطاني سكانها ٢٩٤٤ نسمة ذات تاريخ حافل بالاحداث الدامية ٠

(١٤) القسطنطينية Constantipole هي اسطنبول الحالية التي كانت عاصمة الامبراطورية العثمانية ٠ كانت تسمى الآستانة وهي أيضا بيزنطة عاصمة الامبراطورية البيزنطية ٠ أسسها الاغريق في القرن السابع قبل الميلاد ، تقع على ضفتي البوسفور في آسية واوربة ٠ أطلق عليها المسلمون « اسلام بول » وتعني بالعربية « مدينة الاسلام » وفي التركية « ثروة الاسلام » فتحها العثمانيون سنة ١٤٥٣ م ٠

جزءا من موردها يكون وقفا للحرمين ، وكما يقال فان التبرع ينفق على المدينتين المقدستين مكة والمدينة • تدفع البلدة سنويا الى العائلة المذكورة عشرين كيسا من الدراهم لانفسهم وخمسة عشر للمدينتين المقدستين ، المبلغ الاخير أرسل سابقا الى مكة ككل عام مع قافلة الحج ، لكنه دفع الآن لايدي الكوبرليين • لادلب ولا شغر تدفعان ضريبة أرض أو ميري ، طالما بالنتيجة يتبعان مكة • لكن هناك نقطة مراقبة جمركية في ادلب ، حيث تفرض الرسوم على جميع أنواع المؤونة كالارز والقهوة ، والزيت، والزبيب ، والتبغ ••• وهكذا ••

وارد هذا المبلغ يصل الى حوالي مائة كيس ، بالاضافة الى ضريبة المنزل التي يبلغ واردها عشرين كيسا •

ان الحكومة في ادلب بيد متسلم يسمى من قبل الباب العالي ، لكن السلطة الفعلية ، قد كانت لسنين عدة بيد العائلة الغنية ـ اياش ـ ولغاية الوقت الحالي ، رئيس تلك العائلة ـ محمود بن اياش ـ الرجل معروف بحسن ضيافته وشخصيته المستقيمة ، لكن سوء الحظ صادفه ، ليفقد كل هذا النفوذ •

اذ في عام ١٨١٠ جرى شجار قاتل حول منزله مع ـ آل جحا ـ نتيجة ـ لعبة الجريد ـ التي أخذت دورا جادا ، وأدت الى سفك الدماء الكثيرة •

غادر آل جحا ادلب ، وذهبوا الى ريحا وجسر شغر ، حيث وفقوا بالارتباط مع من رعاهم من ـ سيد آغا ـ و ـ طوبال علي ـ الزعيمين المتمردين في هاتين البلدتين ، هما اللذان ارادا الاحتجاج كي يسقطا ادلب ، وبالتالي حشا الركاب ـ اي السكان ـ ضد ـ محمود ـ أي ـ اياش ـ الذي أرغم على الهرب الى حلب ، والذي أرسل المتسلم

ـ نوري آغا ـ عائدا الى القسطنطينية ، وكذلك وضعا ـ أبو شاه ـ أخ ـ طوبال علي ـ اخوه من أبيه في هذا المكان ، وأعادا ـ آل جحا ـ الى ادلب ٠ لكن بعد مضي بضعة أشهر ، عاد المتمردان يسعيان للوفاق مع ـ محمود ـ الذي عاد الى ادلب وآل جحا عادوا الى الهروب الى حلب ولكن في جميع الاحوال سلطة محمود وصلت الآن الى نهايتها ٠ هما الآن في الوقت الحاضر ، الزعيمان وسيدا البلدة ، يشاركان بافسادها ، وبالاشتراك مع ميلي اسماعيل الزعيم الآمر في قلعة المضيق ويعتبرون الظلام في جميع الاراضي من ادلب الى حماه ٠

لكن ثروة البلد انحطت كثيرا ، منذ بداية هذه الحوادث التي أخذت مكانها فيها ٠٠٠

وفي ثمانية عشر شهرا ، تكون البلدة قد دفعت مايزيد على ستمائة كيس من الدراهم ، بل وصل الامر أنه في اليوم السابق لقدومنا ، كانت قد فرضت ضريبة جديدة مقدارها مئتي كيس من الدراهم ونشرت القنوط بين السكان ٠

ـ أما القاضي ـ فيرسل الى هنا من القسطنطينية كل عام ٠

وقرية سرمين بالنسبة لادلب فتقع نحو الجنوب الشرقي الى الشرق ولايوجد قرى مستقلة في منطقة ادلب (١٥) ٠

★

هذا ماكتبه بوركهارد عن ادلب وقت زيارته لها سنة ١٨١٢ ولعله وصف كاف من رحالة زارها مدة يومين ، فاستطاع استشفاف واقعها من كافة الاوجه ٠

---

(15) BURKHARDT : Ibid, P. 121 - 124

لقد ساد تاريخ ادلب الغموض ، ويأتي بوركهارد ليزيل بعض الغيوم الحاجبة بعض الشيء تاريخها عن انظارنا ، فلنقف قليلا معه ، ولنعرف الاكثر من كلامه ، لنستشف المزيد من تاريخ ادلب ٠

أولا ـ الواقع الاداري :

ادلب الحالية اذن كانت تسمى ـ ادلب الصغرى ـ بينما ـ ادلب الكبرا ـ ـ والتي كتبها بألف ممدودة تمييزا لها عن الصغرى ـ فكانت تقع على بعد نصف ساعة من البلـدة الحالية ٠ فالمتسلم والقاضي والسلطات كلها كانت في ادلب الصغرى ، التي انتعشت وازدهرت على حساب ادلب الكبرى وذلك في منتصف القرن السابع عشر ، ومنذ ذلك الوقت بدأت ادلب الكبرى في الانحدار ، بهجرة أهاليها الى الحالية ، نظرا لما تمتعت به ادلب الصغرى ، من نشاط اقتصادي فعال بما حباها محمد باشا الكوبرلي وعائلته من بعده من اهتمام اقتصادي واداري قلما تمتعت به المدن الاخرى كجسر الشغر وانطـاكية وغيرهمـا ، والتي في كل منها كان له وقف أو مشروع أو بناء خيري باسمه ـ وسنذكر فيما بعد ، وقفـه في جسر الشغر وريف الجسر ـ كما أعفى ادلب وكذلك جسر الشغر من ضرائب الارض والميري طالما هما وقف للحرمين الشريفين ، وقد وقع جميع مؤرخي ادلب بخطأ تحديد زمن وقف الكوبرلي لمدة معينة ، فالوقف لايحدد ، ونص بوركهارد يناقض كل ماقالوه ٠ ولم يلحظ بوركهارد وجود قرى مستقلة اداريا في أراضي ادلب وأغفل ذكر تبعيتها الادارية ، أوهل هي قصبة ـ قضاء ـ منطقة ـ أم ناحية !! ولكن ذكره بوجود ـ قاض ـ فيها يشير على أنهـا كانت قضاء ٠ فكل سنجق يقسم الى أقضية على رأس كل منهـا قاض ، والسنجق يعادل في زماننا محافظة ٠

كما ذكر ـ المتسلم ـ الذي يعين من قبل الباب العالي في اسطنبول ـ أي رئاسة الوزراء أو حكومة اسطنبول ـ . وقد اشتقت من تسلم ، وتعني الشخص الذي يعهد الوالي اليه بتسلم البلدة من سابقه ، ويدخل المدينة لابسا خلعة خاصة به وبموكب حافل . كما تطلق أيضا على الشخص الذي ينوب عن الوالي ـ وهو الذي عناه ـ بوركهارد ـ كان يدعى بعدئذ ـ قائم مقام ـ .

ثانيا ـ الواقع الاقتصادي :

كانت التجارة مزدهرة فيها لعدة عوامل : كاعفاءات الرسوم ووجود الخانات والاسواق الكثيرة ، فلكل حرفة سوق خاص بها ، وهذا لايتوفر الا في المدن الكبرى كحلب ودمشق ، ولكن بفضل الكوبرلي ، كان ذلك التنظيم العمراني الرائع في ادلب ـ وسنفصل جميع ذلك في حينه ـ وايضا وجود صناعة الصابون ، وحلج القطن ، والصباغة ، وهذه صناعات رئيسية تحتاج كما نعلم لتوفر خبرة فنية عالية ، وأسواق لتصريفها ، وزراعات نشيطة . وكل هذا كان متوفرا في ادلب وأراضيها .

وكما ذكرنا فان الاخوين ـ رسل ـ عندما تحدثا عن المنطقة وجدا القرى في انحدار بل موات مما دفع الاهالي بالهجرة الى أمكنة أخرى كحلب واسطنبول وادلب ، ولو لم يكن النشاط الاقتصادي في ادلب الصغرى مزدهرا لما هاجر سكان ادلب الكبرى اليها بالاضافة الى القرى الاخرى والمزارع المجاورة .

أما دخلها الاقتصادي فكان جيدا ، رغم الاعفاءات التي وهبها آل الكوبرلي ، فلا يوجد ضريبة أرض أو ميري كما ذكر . والمقصود ـ بمال الميري ـ المال الذي يعود لخزانة السلطان

العثماني ، أو هو مجموعة الضرائب المقررة لخزانة السلطان على الارض أو الضرائب والرسوم ، المقررة على القرى ، بعدما يأخذ الملتزم حصته ـ والملتزم هو الجابي في عصرنا ـ . وقد جاءت كلمة ـ ميري ـ من مال الامير نسبة الى الاراضي الاميرية اي الحاكم . ولنوضح الامر بمثال يعود الى سنة ١٠٦٤ هـ ١٦٣٦ م اذ أن ثمانية عشر شخصا من قرية أقمنياس ناحية سرمين كان عليهم ـ ليعقوب بشه ـ ـ الراجل العثماني ـ مبلغا قدره ٢٤٦٠ غروش أسدى من دين شرعي ، ومال ميري قريتهم ، العائد لجهة السلطنة عن واجب هذه السنة .

أما الرسوم الاخرى ، فكانت مفروضة على المواد الاساسية كالارز ، والقهوة ، والزيت ، والزبيب ، والتبع وهكذا . وليلحظ القارىء وجود الارز والقهوة في بلدة كادلب وفي سنة ١٨١٢ ، فهذا ان دل على شيء فانما يدل على رفاهية الشعب الادلبي في ذاك الوقت ، ذلك لان القهوة لم تكن سائدة في تلك الايام ، فهي مشروب الاثرياء ، أو ذوي السعة فقط . فادلب كانت في غنى ورفاهية تغبطها عليها المدن الاخرى ، ولاغرابة في الامر فصيت اقتصادها وجودة بضائعها ، وصل الى أضنه واسطنبول في تركية .

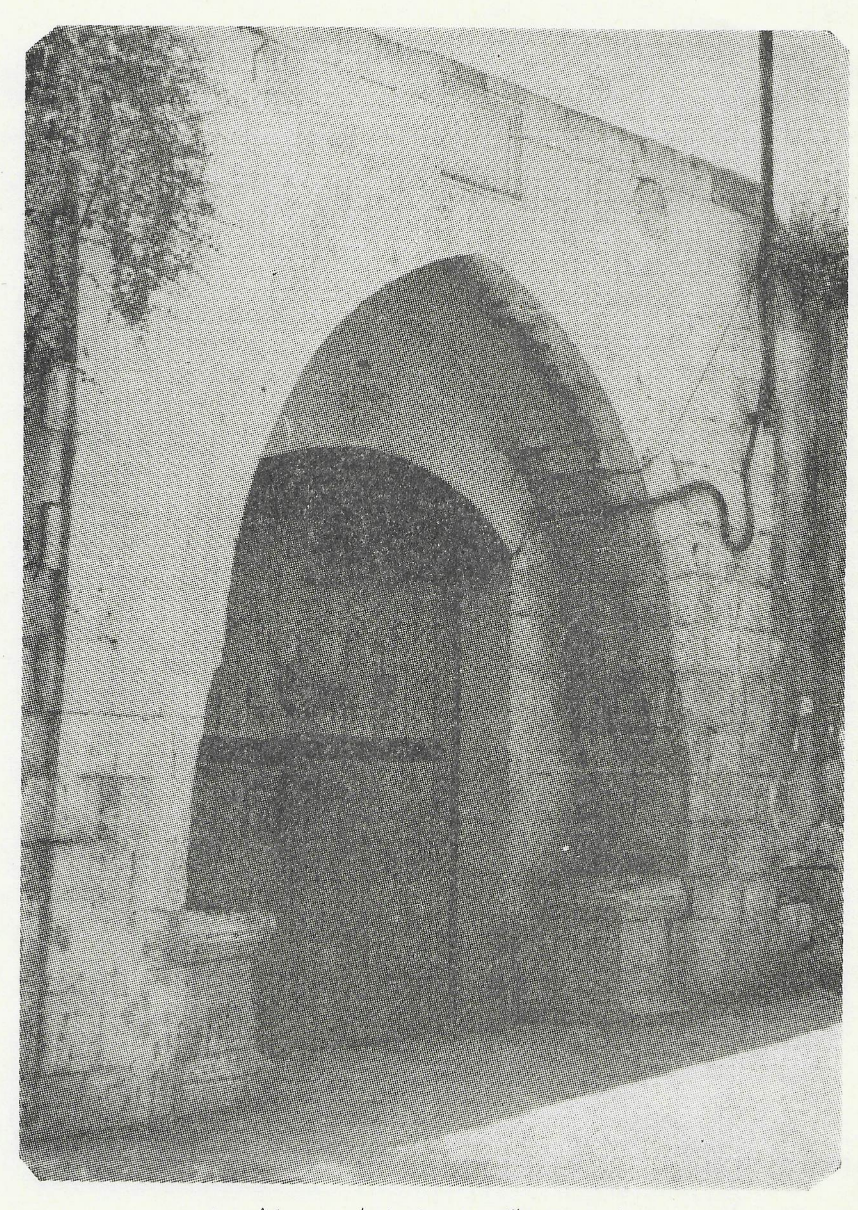
★

كما لاحظنا أن ادلب تدفع سنويا عشرين كيسا من الدراهم لآل الكوبرلي وخمسة عشر الى الحرمين الشريفين ، بينما مواردها فقط من الرسوم المالية على المواد التموينية وصل الى مائة كيس بالاضافة الى عشرين كيسا وارد ضريبة المنازل ، وبالتالي يبلغ المجموع مائة وعشرين كيسا أي أن الفائض المالي من موردين فقط بلغ خمسة وثمانين كيسا من الدراهم ـ وكما ذكر الرحالة الفرنسي فولني ـ ١٧٨٣م بأن الكيس يعادل خمس ليرات ذهب

والليرة مئة قرش تركي صاغ والقرش التركي أربعون بارة ـ فكيف من الموارد الاخرى التي لم يذكرها بوركهارد كما ذكر وجود نقطة مراقبة جمركية بادلب . وقد يستغرب القارىء هذا ، ولا غرابة في ذلك ، لان بعض أهالي ادلب وسرمين كانوا يشتركون بعمليات تهريب البضائع من ميناء اسكندرونة الى حلب ، عبر ادلب وسرمين ، لانهما بلدتان بعيدتان عن نقاط المراقبة الرئيسية مما استدعى انشاء مركز مراقبة جمركي بادلب ، بالاضافة الى أهميتها الاقتصادية في تصدير الصابون منها ومن ريحا وسرمين . وأخيرا نلاحظ تأثير الاحداث المحلية ، والمنازعات بين العائلات ، وتمرد الاشقياء ، وعدم استقرار واقع البلدة عام ١٨١٢ ، مما كان له التأثير الفعال في ضعف البلدة بعد ازدهارها في منتصف القرن السابع عشر .

ثالثا ـ الواقع الحضاري والعمراني :

ولعل أول مالفت نظر الرحالة قبل وصوله ، منظرها من بعيد ، اذ بدت له كلوحة فنية رائعة ، ولاغرو فهو لم يبالغ ! الاسواق والحمامات والخانات ، والدور الكبيرة ، والازقة المبلطة ـ بكل أسف أزالت البلدية معظم هذه المعالم ـ هي التي جعلته يصفها هذا الوصف ، بل يقارنها ـ بأثينة ـ عاصمة اليونان ، فأبنيتها جميلة مبنية بالحجر ـ بالمقارنة مع القرى الاخرى المبنية بالطين ـ وخاصة أسواقها الجميلة الجيدة وخاناتها ، وبناء المصبنة المتميز بين كل أبنيتها ذات الطابقين وهي التي تقع شمال الجامع الكبير . أما عن وجود الحدائق فيها فليس تخلفا حضاريا ، ولكن ظروف قلة الماء ، وغلاء شجر الزيتون وأهميته بالنسبة لهم ، وهواءها العليل ، دفعهم الى اهمال الحدائق ، وما حاجة الحدائق ان كانت ادلب محاطة بالبساتين الغنية بالرمان وأشجار التين والعنب ،



المصبنة الكبرى في ادلب ـ المدخل

ـ ١١٢٠ هـ ـ

بالاضافة الى شجر الزيتون الذي يطوقها كما يطوق العقد الثمين عنق الفتاة الجميلة • ونضيف كذلك بان معظم أهالي ادلب ملاك أرض ، ففي حر الصيف يذهبون الى أراضيهم ، والتي هي بالنسبة لهم ، متنزهاتهم المفضلة •

لقد أحصى عدد منازلها فبلغت الالف ، أي عدد سكانها حينذاك يعادل سبعة آلاف نسمة تقريبا •

أما البئر الذي تحدث عنه فهو ـ بير الشهيد ـ كما عرفناه صغارا ، والذي كان يقع في طرف االتلة الشمالية الغربية ـ الرمادة ـ والتي أزيلت مؤخرا ١٩٦٣ •

وهذا البئر ـ بكل أسف ـ ازيلت معالمه ، لتحل محله أبنية ودكاكين تجارية ، ولو استثمر جيدا لاغنى المدينة بالماء ، وهي عطشى له ، ولكن معظمنا لايدري أنه نبع ماء لولا فضل الرحالة بوركهارد !!



رابعا ـ الواقع السياسي :

كما ذكرنا سابقا ، كتابنا هذا ليس تاريخا لبلدة ادلب أو غيرها بل هو اطلالة تاريخية على كل بلدة أو قرية ومكان زاره هـذا الرحالة أو ذاك لذا سيكون بحثنا مقتضبا ، يعرج على الاهم فالاهم ، والتفاصيل ندعها لابحاث أخرى عن كل مدينة أو بلدة أو قرية ، وبعض قرانا أغنى من البلدان بالاحداث التاريخية •
لعل ادلب الحالية والتي كانت تسمى ـ ادلب الصغرى ـ سابقا تمييزا لها عن ـ ادلب الكبرى ـ الواقعة شمالا على طريق معرة مصرين الحالي ، وهي قرية دارسة ، تكاد تكون نسيا منسيا •

وأما ادلب الحالية ، فبدأت أهميتها بالظهور يوم اهتم بها محمد باشا الكوبرلي وذلك في منتصف القرن السابـع عشر ، عندما أصبح صدرا أعظم ، بعد أن كان سابقا واليا في عدة مدن هامة جعل موردها وقفا على الحرمين الشريفين وأعفاها من الرسوم والضرائب (١٦) ٠

كما ذكرنا ، مما دفع أهل الريف بالهجرة اليها ، فازداد عـدد سكانها ، بعد أن كانت قرية صغيرة تبع لقضاء سرمين ٠ ـ قرية ادلب الصغرى قضـا سنده سرمين كما ورد في اللغة العثمانية آنذاك ٠

وبعد وفاته طالب ورثته بحقوقهم في ادلب ، وظلوا يطالبون بها من حين لآخـر حتى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي ٠ ففي أوائل القرن التاسع عشر ، كانت ادلب تدفع عشرين كيسا من الدراهم لاسرة الكوبرلي بينما كانت جسر الشغر تدفع لهم خمسة عشر كيسا ٠

قد تأخذ القارىء الدهشة والتساؤل ، لمَ يوقفون ولمَ يأخذون ثانية ؟! وجواب هذا مسألة تحتاج لدراسة خاصة ، ولكن فضل آل الكوبرلي على ادلب وجسر الشغر فضل لايرد لهم ، الا باطلاق أسمائهم على الساحات الكبرى في هاتين البلدتين : فالمال الذي كانوا يأخذونه ـ وبالاخص جد العائلة محمد باشا ـ ينفقونه على الفقراء ، واقامة المنشآت كالخانات وغيرهـا ، في ادلب وجسر الشـغر ٠

---

(١٦) محمـد باشا الكوبرلي : من أعظـم الصدور العثمانييـن الـذين تولوا رئاسة الوزارة في الامبراطورية العثمانية ٠ أعماله ومنجزاته وأوقافه انتشرت في بقاع عدة ومنها محافظة ادلب ٠ حول حياته واسرته من بعده راجع في ذلك كتابنا « ادلب ٠٠ البلدة المنسية ! » وكذلك الفصل الاخير « فصل الفصول » في هذا الكتاب

واعفاء البلدة من ضرائب الارض أو المـيري ، أمر له شأنه ، اذ من المعروف ان السـلاطين العثمانيين كانوا يبيعون مناصب الولاة لمن يدفع الاكثر ، مما يدفع هؤلاء الولاة الى التعويض عما دفعوه ، فيرهقون الفلاحين بالضرائب والرسوم ، وما أكثر القرى التي هاجر أهلها كما ذكر الرحالة رسل وفولني ـ راجع ذلك الفصل الاخير ـ أما السلطة والحكم في ادلب فهو بيد ـ متسلم يسمى من قبل الباب العالي في استانبول ـ وقـد شرحنا معنى متسلم ـ واسمه ـ نوري آغا ـ

لكن سلطته كانت شكلية والنفوذ الحقيقي ظل بيد تلك العائلة الغنية ـ اياش ـ ورئيسها ـ محمود بن اياش ـ الذي أوقعـه سوء الحظ بالعراك القاتل مع آل جحا ، والسبب كما قلنا ، لعبة الجريد التي كانت أصلا اداة تسلية ، وتحولت الى صراع دموي حاد ، بالاضافة الى تمرد ـ سيد آغا ـ و ـ طوبال على ـ في نواحي جسر الشغر وريحا ، فعاثا فيها فسادا في هاتين المنطقتين ، ورغبا بالتدخل في شؤون ادلب الداخلية وفرض حاكم لادلب موال لهما ، فوضعا ـ أبو شاه ـ أخ طوبال على في مكان محمود ـ بن اياش ـ ولم تمض بضعة أشهر حتى عادا يسعيان للوفاق مع محمود مما دعا آل جحا الى مغادرة ادلب الى حلب ؟!

لكن سلطة محمود ظلت شكلية ، وظلاهما ـ سيد آغا وطوبال على ـ المتنفذين في ادلب .

وقد أدى تدخلهما المستمر بشؤونها الى اضعافها اقتصاديا وسياسيا وهذا ماكانا يهدفان اليه سابقا ، مما يؤكد قولنا السابق ، ان الريف نظر الى ادلب نظرة فيهـا الغيرة ، على تقدمها السريع وتميزها الظاهر عن المدن الاخرى بما حباها به آل الكوبريلي

من رعاية واهتمام، فمن يوم تدخلهما في شؤون ادلب ، وهي تدفع لهما ـ اتاوة ـ شديدة على الاهالي ، ففي ثمانية عشر شهرا دفعت ادلب مايزيد على ستمائة كيس من الدراهم ، بينما كانت تدفع لآل الكوبرلي عشرين كيسا وللحرمين خمسة عشر كيسا سنويا ، وقبل وصول بوركهارد بيوم واحد ، فرض هذان الشقيان المتمردان مئتي كيس على الاهالي ، مما دفعهم لليأس الشديد في تغيير الحال ، أو بالهجرة الى حلب وريحا .

أما القاضي ، فشرحنا منصبه في الواقع الاداري ، لكننا نضيف أن ادلب كانت قضاء سنة ١٨١٢ ، ولكن هذا ـ المنصب ـ قد نازعتها عليه جسر الشغر سابقا ، وريحا فيما بعد ، وسرمين فيما قبل في فترات زمنية مختلفة .

أما حاكم ادلب لدى مرور الرحالة بوركهارد فقد كان كما كتب اسمه ـ محمود بن اياش ـ ولكن الاصح اسمه ـ محمد عياشى ـ أو محمد أفندي وهو محمد بن حسن بن أحمد الادلبي الشهير بالعياشي ولد بادلب ١١٧٠ هـ ١٧٥٦ م وتوفي ١٢٣١ هـ ١٨١٥ م . عرف بالسخاء والجود تسلم رياسة بلدة ادلب ، لكن سلطته ضعفت نتيجة الاحداث التي ذكرناها سابقا في عرض رحلة بوركهارد ، وهذا ماكان ، اذ أصاب هذا الرحالة في عمق تحليله للاحداث ، ولنقرأ معا ماكتبه الرحالة الكيالي ١٢٣١ هـ ١٨١٥ م وهو بدمشق في ضيافة العجلاني ـ قال ـ

ـ ثم عدنا لبيت حضرة العجلاني الحمزاوي فما مضى زمن يسير الا وقد دخل علينا الاخ القمطاوي فشاهدنا من وجهه مايوذن بالتغيير ويشعر بباعث على حصول التكدير ، فسألناه هل من حادث بلغ السمع من نواحي الديار ، فأجاب بقدوم ساعي معه جملة

مكاتيب وأخبار فحصل لنا غاية الوجل وارسلنا في طلب الساعي على العجل ، وكان حضرة الاستاذ ـ يقصد الشيخ اسماعيل الكيالي ـ قبل مجيء ذلك الاوان قال ان اهل محلكم اضاعوا الرحمن ثم بعد وصول الساعي لدينا أقبل حضرة العجلاني علينا يخبر ان الاستاذ الآن في معرض الكلام قال ان ادلب مختبطة منذ ثمانية أيام ودخل على الاثر رسول من الوطن ـ يقصد بريد من بلدته ادلب ـ في جملة مكاتيب مفصحة بالحال والخبر من تكدير العيش وحصول الطيش وافول شمس الكمال والسيادة الاخ المرحوم الشيخ ـ محمد عياشى زاد ـ (زاد باللغة العثمانية تعني ابن وتلفظ كذلك زاده) مع هيجان شواظ الفتنة الطامة الحادثة بين حاكم البلد وبين العامة . فحين الوقوف على هذه الاخبار اطبق غيم الغم والهم والاكدار وتشتت الفكر والبال وعرى الجسم النحول والبلبال ، ومر في الاذهان الخواطر الوهمية المقرونة بتخييل كل رزية وبلية ، فعدمنا الاصطبار بحيث لم يقر لنا قرار وتذكرنا ماسلفه في يوم الاربعاء من بكاء الاستاذ وتغيير حاله ، فانه كان ساعة قيام العام وآخر أيام افول كوكب العياشي واختفاء جماله ، وظهر لنا حكمه تثبطه عن التوجه للاوطان بحسب اطلاعه على الاكدار والاحزان ، فلزم بعد الاخبار بهذه الرزايا الملمة عرض الكتب على سعادته ، مع طلب المدد وتنهيض الهمة ، فدخلنا عليه وترامينا على يديه ورجليه وعرضنا عليه المراسيل ، فلم يظهر منه لفظ يشفي الغليل ، فتجاسرنا عليه بألفاظ تحرك همته العلية ، وتنهض حاله وغيرته الكيالية الرفاعية ، فتغير وغلب عليه في الحال وتطور في طور الجلال ولزم السكوت والسكون ، الا في بعض الاحيان والشؤون ، وجعل يردد على لسانه الشريف اسمه تعالى اللطيف ، ثم بعد احضرت مائدة العشاء ، فجلسنا وعلى القلب من الغم غشاء ، فلم نقدر على استيفاء الحظ من الطعام ،

لاسيما بعدم لفظ من الاستاذ يشفي الاوام ، فجرى على لساني بسبب تنفس الصعداء من جناني : وعار على راعي الحمى وهو في الحمى ، فاكمله الاستاذ بقوله اذا ضاع في البيداء عقال بعير ، فرمى الملعقة وقام ولم يتناول سوى لقمة واحدة من الطعام ، وجاء في تلك الليلة قاضي الشام مع قاضي بغداد لزيارته وتشرفا بتقبيل اذياله وراحته ثم خرجا من مكانه لمحلنا النفيس وبقيا في المسامرة معنا ومع الافندي الى وقت التعريس واخرج الجناب العجلاني لنا واهم أنواعا من الكنافات واجناسا لذيذة من الخشافات ، ثم بعد تمام الحظوة والفراغ من شرب القهوة تفرقت الجمعية وبتنا على هذه الكيفية وهكذا ـ .



خامسا ـ الواقع الزراعي :

وجد هذا الحالة ادلب محاطة بأشجار الزيتون ، وبعض البساتين القليلة التي زرع فيها الرمان والتين والكرمة ، مما أضفى على البلدة جمالا وجاذبية .

لكننا نجد ادلب الآن تنعدم فيها هذه البساتين ، وأذكر أيام طفولتي أننا كنا نغادر منزلنا لنذهب الى البستان ـ بستان غنوم ـ (وهي حاليا منطقة البستان في شرقي المشفى الوطني وجنوب حي النصارى) ونقطف التوت الشامي واللوز والمشمش والكرمة وغيرها من الفواكه ، وبكل أسف أزيل هذا البستان رغم كثافة الشجر فيه وخصب أرضه ، ولم يحافظ عليه ، ليكون رئة المدينة ومتنفسا لاهل البلدة . أما الخضروات فكانت تحصل عليها من عرى كما ذكر ، وكذلك من ريحا ، اذ لم يكن التشجير منتشرا في منطقة ريحا كما هو الآن ، بل كان المزارعون يهتمون بزراعة الحبوب والخضروات ، كما سنبحث لاحقا .

سادسا ـ الواقع الاجتماعي :

كانت هناك أسر غنية ذات نفوذ ـ كآل العياشي ـ الذين كانوا متنفذين في البلدة مدة طويلة . ثم جاءت أسرة ـ جحا ـ لتنازعهم هذا النفوذ برعاية ـ سيد آغا ـ و ـ طوبال على ـ اللذين سيطرا على المنطقة الواقعة بين جسر الشغر وريحا وادلب . وهذا صحيح اذ كان لآل جحا في القرن التاسع عشر كثير من أراضي مسطومة الواقعة بين ريحا وادلب .

وكان التعايش بين النصارى والمسلمين سائدا في ادلب ، اذ بلغ عدد النصارى فيها ثمانين عائلة تدين بالمذهب الارذكس ، وثلاث عائلات أرمنية أرذكسية ، يقيمون شعائرهم في كنيسة ، ولهم ثلاثة خوارنة يتبعون بطريرك الارذكس بدمشق وعددهم كان يبلغ حوالي الستمائة نسمة .

أما عبارة بوركهارد ـ بقية السكان أغلبهم من الاتراك ـ يقصد بهم ـ المسلمين ـ . اذ لم يكن أهالي ادلب أتراك ، كما يبدو لاول وهلة ، اذ تؤكد الوقائع التاريخية الاخرى والوثائق الرسمية، بأن أهالي ادلب عرب يتكلمون اللغة العربية .

★

ومن جملة لعب التسلية والرفاهية فيها ـ لعبة الجريد ـ والجريدة هي العصا مطلقا ، ترمي بها في لعب الجريد وهو رمى الفرسان بعضهم بعضا بالعصي في الميدان ، لكن الجريد في الاصل هو قضيب النخل عرّى من سعفه . ثم أصبح علما على ساق المزراق ـ لارأس له ، وهو يستخدم في العاب الفروسية . وكانت لعبة الجريد شائعة جدا بين الفرسان العثمانيين ، وكان السلاطين يشجعونها بمشاهدة من يمارسونها ، وقد حدث مرة أن السلطان ـ أحمد الاول ـ تنازل ولعب مع الصدر الاعظم نصوح باشا

وكان الجند فرسانا برعوا بصفة خاصة في رمي الجريد ، وقد درج بعض الشباب في دمشق على مألوف اسلافهم ، فهم يخرجون في الربيع الى ظاهر المدينة ويرمون الجريد ، ومن ثم فهم يتزودون بقضيب جعل طرفه على هيئة عصا الاسقف، وهم يسمونه الباكورة، ـ أي تباشير الثمار ... ـ

ولعبة الجريد بادلب ، كانت تجري في الجهة الغربية ، في المنطقة الواقعة الآن مابين ثانوية المتنبي ، والمشفى الوطني ، وكذلك في جنوبي البلدة .

سابعا ـ الوقف والخانات :

كثير من الاراضي في محافظة ادلب والابنية العامة كانت وقفا ـ خيريا ـ بل قرى بكاملها توقف لجامع أو مشروع خيري كما كانت بنش سابقا ، وقفا للجامع الكبير بحلب منذ أيام نور الدين الشهيد . هذا الوقف الخيري تعود جذوره الى العهد المملوكي ، لكنه انتشر وتوسع في المحافظة خلال العهد العثماني . ولن نطيل تفصيلا في ذلك ، بل نبحث في أوقات الحرمين الشريفين ـ مكة والمدينة ـ ، وكذلك حرم الصخرة المقدسة في القدس . فقبل الكوبريلي ، كانت بعض القرى موقوفة لهم .

فمثلا قرية النيرب (١٧) التابعة لناحية سرمين كانت وقفا لمقام سيدنا خليل الرحمة والصخرة المشرفة بالقدس سنة ١٠١٧ هـ

---

(١٧) النيرب : قرية تقع الى الجنوب الشرقي من ادلب بـ ١٥ كم سكانها ١٨٢٠ نسمة تابعة لناحية قرى مركز ادلب . دعيت سابقا ـ نيرب سرمين ـ لها تاريخ حافل وقديم .

١٦٠٨ م ومزرعة تلثيتا [١٨] التابعة لقضاء حارم وقف للحرمين والناظر على الوقف اوالمتولي عليه ـ سليمان آغا ـ ونسبة الوقف ثلثا القرية وذلك سنة ١٠٤٦ هـ ١٦٣٧ م ٠

والمتولي على الاوقاف او ناظر الاوقاف فكان شخصية دينية معتبرة أما متصرف الجباية للحرمين الشريفين فقد كان يعين بموجب براءة سلطانية ، ووظيفته مالية ، أكثر منها دينية ٠ وقد اتبع محمد باشا الكوبريلي هذه السُنة فجعل من موارد ادلب ماهو وقف للحرمين الشريفين ، وظل أحفاده ، ومتولي أوقافه يحافظون على نهجه حتى أوائل القرن التاسع عشر ، كما ذكر بوركهارد اذ كانت ادلب ترسل سنويا خمسة عشر كيسا من الدراهم ، بينما جسر الشغر تدفع فقط سبعة للحرمين ٠

وحتى لاترهق ادلب بالضرائب ـ مما يؤدي الى هجرة سكانها كما حدث في العديد من قرى المحافظة ـ فقد أعفاها الكوبريلي مع جسر الشغر من ضرائب الارض ـ الميري ـ ، طالما هما وقف للحرمين ٠

لقد أشيع الكثير ، ولبس على الافهام حقيقة ـ محمد باشا الكوبريلي اذ ذكرت صحيفة الثورة السورية بعددها الصادر في ٢٤ /٦/ ١٩٨١ أن ـ محمد باشا الكوبريلي ـ اشترى قرية ادلب من الدولة العثمانية في أواخر القرن العاشر الهجري ٠ وهذا غير صحيح للاسباب التالية :

---

(١٨) تلثيتا : تسمى الآن تلتيتة ٠ قرية تتبع ناحية كفر تخاريم في منطقة حارم عنها بـ ٨ كم وحارم ٢٩ كم وادلب ٢٥ كم ٠

أ ـ لم يكن الكوبريلي هذا الا طفلا لم يتجاوز العشر سنين في أواخر القرن العاشر الهجري ·

٢ً ـ لم يشتر ادلب ، ولم تبع في يوم من الايام ، لاي سلطان أو أمير على عكس ماجرى في القرى الاخرى ، بل كانت له بعض الاراضي ·

٣ً ـ كيف يشتري قرية ادلب ، ثم يعفيها من ـ الميري ـ فهذا تناقض واضح !!

٤ً ـ لم يُعرف في أوقافه المنتشرة في المنطقة ـ حينذاك ـ شراءه قرى بكاملها لمنفعته الشخصية ، بل معظم قرى جسر الشغر جعلها وقفا على الفقراء الذين يطعمون يوميا مجانا من أوقافه في بلدة جسر الشغر وكما سنبحث لاحقا في فصل منطقة جسر الشغر ·

★

أما الخانات في ادلب فهي عديدة ، بناؤها جيد ، والخدمات فيها متوفرة ، كغيرها من الخانات المنتشرة في المحافظة ـ راجع الفصل الاخير بحث الخانات ·

وقد خصص اثنان منهم لاستقبال الغرباء ، أحدهم تمكنا من معرفته وهو خان الشحاذين ـ والذي مازال قائما ـ وقد سمي بهذا الاسم لانه كان يستقبل الفقراء والمساكين يأوون اليه ويجدون فيه طعاما لهم · حيث جعله الكوبريلي وقفا ، ليستقبل الغرباء الذين لاتمكنهم أحوالهم المادية وظروفهم المعاشية دفع المال المطلوب بالاضافة الى الفقراء من السكان أو المزارع المجاورة، كما فعل آل الكوبريلي في خان الجسر أيضا ـ راجع في ذلك فصل منطقة جسر الشغر ·

ونحن لانؤيد تلك الكتابات التي تقول بأن خان الشحاذين بناه الملك السعيد بن الملك (١٩) الظاهر بيبرس للاسباب التالية ٠

أ ـ نموذج ـ خان الشحاذين ـ لايتطابق مع تصاميم الابنية المملوكية في المنطقة الشمالية من سورية ٠

ب ـ لم يذكر أي مؤرخ لعهد المماليك هذا القول ٠

ج ـ أما ـ الملك السعيد بن الملك الظاهر بيبرس ـ لم يذكر أي مؤرخ حضوره الى هذه المنطقة ، بل انه لم يتمكن من الحكم الا قليلا توفي الملك الظاهر سنة ٦٧٦ هـ ، فلما توفي تولى الحكم ابنه وخبط وخلط خلال حكمه ، حاصره العسكر في قلعة الجبل بالقاهرة ، فخلع نفسه سنة ٦٧٧ هـ على أن يعطي الكرك ، فأجابوه الى ذلك ، فلحق بها وهلك بعد قليل ، ويروى بأنه حكم عشرة أشهر بعيدا عن الاحداث ٠

د ـ معنى ذلك أن ادلب موجودة منذ عهد المماليك كبلدة عامرة ، إن كان فيها خان ـ وله من الاوقاف الكثيرة الموقوفة لصالحه ـ كما كتبوا في مجلة العمران وغيرها ٠ ولدى رجوعنا الى سجلات الاوقاف والوثائق العثمانية بعدئذ ، لم نجد ذكرا لمثل هذا الوقف ، علما بأن العثمانيين حافظوا وصانوا أوقاف المماليك ، ومثالنا على ذلك حصه من قرية بنش التي كانت وقفا للجامع الكبير بحلب ، وهذا الوقف من أيام نور الدين الشهيد ٠ ومن بين الوثائق التي لدينا صورة عنها وثيقة صادرة

---

(١٩) نقصد بذلك بحث السيدة ـ مفيدة بيطار ـ بعنوان ـ مدينة ادلب دراسة بشرية واقتصادية ـ رسالة جامعية ١٩٦٤ ٠ وكذلك مجلة العمران في العدد الخاص عن محافظة ادلب العدد ٤٣ ـ ٤٤ تموز آب ١٩٧٢ والتي أخذت عن البحث السابق ٠

عن السلطان العثماني في القسطنطينية ، نوجز مضمونها ـ أمر سلطاني حول حرية التصرف بحلب ، بأوقاف الجامع الاموي الكبير الموقوف من قبل نور الدين الشهيد والتابعة لجبل سمعان وفي قرية معراتا وقرية بنش التابعة لقضاء معرة المصرين ومنع التعدي من قبل البكوات والعرب ـ

القسطنطينية صادر في ١٣ صفر ١١٤٩ هـ حرر في ٩ شعبان ١١٤٩ هـ ٠

فأين نحن من هذه الآراء ؟!!

ولحسم الموضوع نقرر بأن ـ خان الشحاذين ـ عائد الى العهد العثماني ، وبالذات الى منتصف القرن السابع عشر ٠ وأخيرا ذكر بوركهارد ان ادلب تقع حول أطراف تل يقسمها الى قسمين التل الاصغر في الطرف الشمالي ، وهما ـ الرمادتان ـ الشمالية الغربية والتي كانت تقع أمام المجمع الاستهلاكي ٠ والشرقية الكبيرة التي كانت شرقي الجامع الكبير ٠ ازيلتا في الستينات من هذا القرن ٠ ولقد تكونتا من رجيع الصابون الذي كانت صناعته مزدهرة في ادلب لقد أثيرت الشكوك حول هاتين الرمادتين وحقيقتهما وزمان تكونهما ٠ لكننا نؤكد بأنهما ليستا بعيدتا الغور في القدم ٠

فالرحالة الذين حضروا الى ادلب سنة ١١٥٠ هـ١٧٣٧م تجولوا في ساحة البازار وفي أسواقها وذكروا المصبنة التي هي بالذات ذكرها بوركهارد ، وليس من المعقول ألا يتطرقا الى ذكر ـ الرمادتين ـ لكنهما لم يتكونا بعد ، ولأنزيارتهما كانت في زمن قريب من ازدهار بلدة ادلب حيث توسعت فيها صناعة الصابون بينما بوركهارد زارها سنة ١٨١٢ وذكر الرمادتين بالعبارة التالية ـ تقع حول أطراف تل يقسمها الى قسمين .والتل الاصغر في الطرف الشمالي ـ لدى المقارنة تبين لنا

أ ـ لدى زيارة ـ الادهمي ـ عام ١٧٣٧ م لم تكن الرمادتان موجودتين . ومعنى هذا أنهما مستحدثتان وليستا في أصل تكون البلدة او سابقتان عليها .

٢ ـ وجود المصبنة التي ذكرها كل من الادهمي وبوركهارد يشير الى أنهما تكونتا من رجيع الصابون ، من هذه المصبنة الرئيسية ومن غيرها .

٣ ـ تعود فترة تكون الرمادتين الى النصف الثاني من القرن الثامن عشر . أي أنهما تعودان الى قرنين فقط ـ مائتي عام ـ .

★ ★

ننتقل الآن الى جو آخر من الكتابة الى التراث ـ تراث بلدتنا الحبيبة ادلب ـ لنسمع حكاية سفر ، يعطرها هواء الصوفية الطاهر ، ولنعبق من رحيقه ، رائحة زكية شذية ، فهيا بنا نسمع منهم ، ونصغي الى تجلياتهم ، ولنفكر بعض الشيء بتأملاتهم .

في عام ١٢٣١ هـ بدأ الشيخ الاستاذ الاكرم السيد اسماعيل الكيالي ـ والذي رافقه في رحلته التي دونها محمد بن العلامة السيد عمر الكيالي باسم ـ الحلة السنية للرحلة الشامية ـ والتي استغرقت سنة وخمسة أشهر زار خلالها عدة بلدان وقرى وسنعرض لكل منها في حينها . انطلق الكيالي من حلب متوجها الى بنش فقال ـ فكان خروجنا من حلب ثاني عشر جمادى الاول . وفي سيرنا عليه سبحانه وتعالى النكلان والمعول . ولم نزل نرفل في ابراد الافراح ونميس في حلل البسط والانشراح . وكلما مررنا على قرية خرج أهلها للقيانا و طمعوا في نزولنا عندهم وقرانا ، فلم نجبهم لما فيه من الصدد حيث سبق البريد من قبلنا

الى البلد ، فحين جاوزنا قرية بنش بميل أقبلت وفود الملاقين غايرة على أجنحة التعجيل ، ولم نزل بهم أفواجا مقبلين ، ولاقدام حضرة الاستاذ مقبلين ـ يقصد تقبيل الشيخ اسماعيل الكيالي ـ الى أن وصلنا الى قرب البلد ـ ادلب ـ فنظرنا بعين الاعتبار كانه لم يبق فيها أحد ، حيث خرج المشايخ والاعيان والشباب والنساء والصبيان حتى حضرة المفتي والحاكم وكلٌ لركبتيه ورجليه لاثم ، قد غصت بهم الارض ، وضاقت فيهم بالطول والعرض · وخرجت النوبات والاعلام وحصل ماشاء الله أن يكون من الوجد والهيام ، وكلٌ من الناس لرؤية الاستاذ والتبرك مزاحم ، مع عدم الالتفات تلك الساعة لمراعاة حرمة الرؤساء والحاكم ، ومن كثرة الازدحام والحال المطرب لم يتيسر لنا الدخول الى قبيل المغرب ، فدخلنا صحبته بالسلامة ، وصيرنا الدار الغربية مقامه ، فنلنا بذلك المنا وأقبلت بشائر السرور والهنا · وقبل قدومه كانت غيوم الغم والظلم مطبقة ، فساعت اذ انجلت وظهرت شمس المسرة مشرقه · فالايام بوجوده أعياد ومواسم وتهاني ، والليالي اذكار وصفاء ومغاني ونظم عقد الانشراح على هذا الحال ، ونسج برد الانبساط على هذا المنوال · ثم جاء لزيارته من هو بالخلق الجميل موصوف ابن عمه المحترم الشيخ الحاج عبد الرؤوف ، فدعاه لصلة رحم بضعته واحفاده وزيارة ضريح ولده وضرايح آبائه وأجداده ، فاجابه حضرة الاستاذ لذلك · فذهبنا صحبة سعادته الى هنالك فلما أقبلنا على قصبة سرمين ···ـ وبعد أن زار من يرغب بزيارته في سرمين ، قفل عائدا الى ادلب فقال ـ الى أن أقبل الليل ، فامر بالرجوع الى المحل وتوجيه الخيل ، فبادرنا بالركوب وسرنا الى ان على البلد أشرفنا ، واذا بالاحباب قد خرجوا لملتقانا بالفنرات والقناديل · وابتدروا لايدي حضرة الاستاذ بالتقبيل · ثم مضا ـ نكتب الكلمات كما خطها الكاتب ـ مدة أيام من الزمان أمر

بالتوجه الى قرية كفر دريان ٠٠٠ـ في هذا النص ذكر الشيخ الحاج عبد الرؤوف وهو من آل الكيالي ، دفين سرمين والمتوفى عام ١٢٣٧ هـ وذكره زيارة ضرائح آبائه وأجداده يقصد بذلك الطيارية ، وجدهم الاعلى هو الاستاذ الشيخ عبد الكريم دفين زاوية سرمين ٠ أما مؤلف كتاب الرحلة فهو الشيخ محمد الكيالي الادلبي المتوفى سنة ١٢٥٥ هـ بادلب ٠ عالم من علمائها ، أفاد منه الكثير ٠ رافق الشيخ اسماعيل الكيالي في رحلته التي نعرفها الآن ٠ والشيخ اسماعيل بن عبد الجواد بن أحمد الكيالي السرميني الاصل ٠ قطب من أقطاب الرفاعية ولد عام ١١٧٢ هـ وتوفى ١٢٣٢ هـ ١٨١٦ م عرف بعلمه وكراماته واحوال غيبية ، كما عرف بزهده وتقواه ٠ هابه الامراء والحكام والقضاة وذوي الشأن وبلغ صيته بلاد الشام ٠ ولدى عودته في رحلته أحس باختلال في صحته واختار الوفاة بادلب لكنه توفي بحلب ٠ ومن خلال عرضنا لرحلته عبر الكتاب يستشف القارىء بعضا من أخباره وسيرته ٠

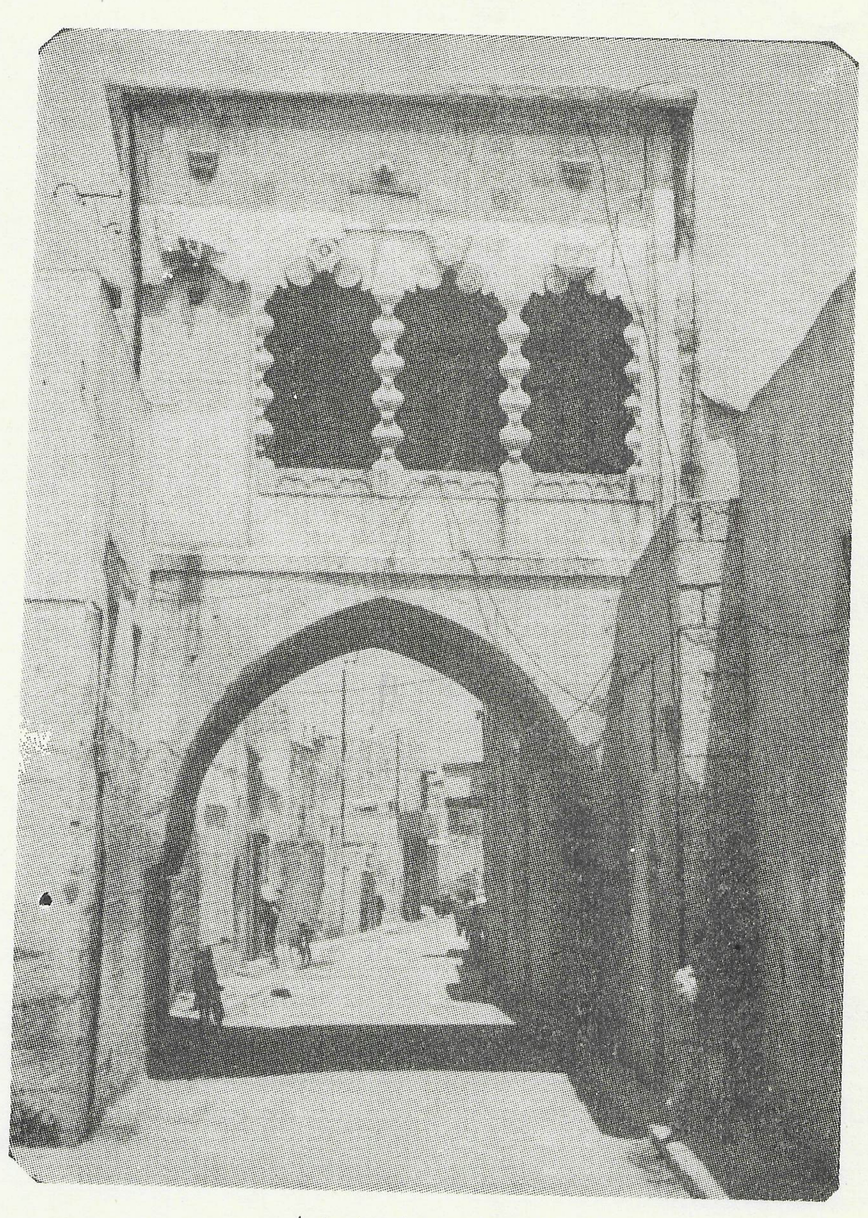
ثم اتجه نحو لاذقية بعد تجوله في عدة قرى سنذكرهم جميعا كل في فصله ، ومايتعلق بمحافظتنا وفي سفرته يذكر بأنه رافقه بعض المسافرين والرحالة ، ولكنه لم يذكر أسماءهم لنتمكن من معرفتهم ٠ لكن مايهمنا عرضه بأنهم في لاذقية التقوا بابناء ادلب وجسر الشغر القاطنين فيها فقال ـ فأول ملاق لنا من قبل السيد كان أبا علي بن قريد ثم بعده الاخ الذي بالظرف قد احتف الشيخ حسين جلبي ابن المشنتف ، ثم تلاهما بقية الملاقين من اللوادقة والجسرية والآدالبة النازحين فبادروا لتقبيل أيدي الاستاذ والسلام علينا ، ومشوا عند ذلك أمامنا وبين أيدينا ٠٠ـ

مما سبق ، بالامكان القول ان شهرة الشيخ ـ اسماعيل الكيالي ـ وصلت الى بلاد الساحل ومعظم بلدان الشام كما سنلاحظ لدى

تتبعنا رحلته فكانت الجماهير والعلماء والحكام والمتولين وقضاة البلاد تتسابق للقياه وتتسارع للتبرك به وتقبيل يديه ·· ان دل هذا ، بلا شك على صيت علماء ادلب ، وبالاخص آل الكيالي التي عرفت بالعلماء والفضلاء بين أفرادها سواء بادلب التي التي سميت بالازهر الصغير أو في سرمين وكفر دريان وفي حلب ودمشق ·

لنتابع جولتنا معه بعد لاذقية زار جبلة ـ طرطوس ـ طرابلس الشام فالتقى فيها بالعديد من العلماء والوجهاء ـ ثم القلمون ـ جبيل ـ بيروت ـ البقاع ثم دمشق · وامضى فيها فترة طويلة ، حدث خلالها أحداث ، واجرى لقاءات مع أكابر دمشق وعلمائها ، وممن التقى بهم مشايخ أصلهم من محافظة ادلب كما تحدث عنهم فقال ـ ومنهم العالم والفاضل والجهبذي الكامل ، الفهامة الاديب واللوذعي الاديب من تفاخرت به الشُغر وادلب وحماه ومعرة النعمان وتغايرت عليه ، وتجاذب كل بلد منهن نسبته اليه ، باطراف البنان ، فجرى الاتفاق لزوال الشقاق ، ان ينسب في بعض الاحيان لكل على الانفراد من هذه البلدان ، وماهو لصلاحه الموجب لذلك ، والمؤدى ، الا فهو الحب السيد الشيخ عبد الرحمن افندي ـ الادلبي ـ فشمنا منه صفو الود القديم ، وشمنا روح الانس والعهد المستقيم ، وتمتعنا بشريف رؤياه ، وشفينا الغليل من طيب حديثه وريّاه ، ولم يزل يتردد الينا في الصباح والعشية ، نتسلى معه في ايراد الفرائد الادبية ، والمسائل العلمية مصحوبا بولده الخلاصة الظاهر السيد الشيخ عبد القادر ، ثم بعد الفراغ من مائدة الغدا نزلنا للجامع لصلاة الظهر ·· ـ

وتمضي أيام في دمشق ، ليعود ويحدثنا عن لقائه الآخر مع أبناء منطقته فقال ـ وفي ذلك اليوم كنافي دعوة الشيخ عبد الرحمن



زقاق يحيى بك في ادلب

أفندي الادلبي ، ذهبنا فيه صحبة الاستاذ ـ اسماعيل الكيالي ـ والاخوان الكرام ، فتلقانا بالاجلال والاحترام ، فحصل لنا في ذلك اليوم كمال النشاط ، وغاية الصفاء والانشراح والانبساط ، الى أن حضر الطعام الفاخر ، فأكلنا منه مايسر الخاطـر ، ثم استعملنا البخور والطيب واستاذنا في الرجوع لمحلنا ذلك الاخ الحبيب ، فخرج معنا الى الباب ، وشيع الاستاذ وجميع الاحباب ـ كما يلتقي ايضا باحد مواطني بلدة ادلب القاطن بدمشق فيقول ـ وكان ذلك يوم الخميس الخامس والعشرين من ذي القعدة ، فدعانا لضيافته فيه ذو الخلة والمودة ، نخبة أهل السيادات الحاج ديب جلبي الادلبي الاصل المدعو بابن السادات ، فذهبنا قبيل العصر لمحل الضيافة ، فوجدناه في غاية الطلاقة والظرافة ، قد حوى بحرة ماء عظيمة مفرطة في السعة ، تدفع النجاسة ولا تقبلها مع التغير على المذاهب الاربعة · فجلس الاستاذ والجماعة في القاعة الكبرى ، وجلسنا مع جناب الشيخ عبد الرحمن أفندي في ـ قاعة صغرى ـ تارة نتسلى بايراد المسائل والحكايات ، واخرى بمطالعة الرحلة القدسية لصرف الاسماع عن سماع الآلات ، الى أن حضرت مائدة العشا وكاد من الطعام ان يمتلاء الحشا ، تحولنا عن الطعام الى محل متسع ، وجلسنا نحن والاحباب على مكان مرتفع ، ثم شربنا القهوة ، واستعملنا البخور ، وخرجنا من المكان بالمسرة والحبـور ··· ـ

وفي دمشق كما ذكرنا أمضيا فترة طويلة ، وتطلب طول الاقامة ، مراسلات مع الاهل والاحباب فكانت الرسائل تردهم بين الحين والآخر ، واحداها ذكرناها في بحثنا عن رحلة بوركهارد لادلب ، والتي تضمنت وفاة محمد عياش حاكـم ادلب · والآن لنقرأ ماكتبه عن الرسائل الاخرى قال ـ وكان قبل ذلك اليوم قد ورد علينا جملة مكاتيب من الاهل ووجوه القوم · من جملتها كتاب

ممن هو لجيد الدهر قلاده جناب حضرة محمد أفندي غوري زاده ، وكذا كتاب من نخبة السادات الكرام الاخ الماجد السيد الشيخ عبد السلام ، وفي ضمن كتابنا عريضة من الافندي المذكور لحضرة الاستاذ المهاب مع هدية يستمطر بها سحب امدادات ذلك الجناب. ففضضنا ختم كتابه ، وشنفنا السمع بشريف خطابه ، ومتعنا النظر في بديع مباينه ، واخرجنا من غور بحر الفاظه لؤلؤ اصداف معانيه ،وتنزهنا بمطالعة روض كتاب الشيخ عبد السلام المصون. فيحسن سبكه وترصيعه قرت العيون ، وبقية الكتب من الوطن قد أرسلها أعز الاهل والاخلاّء والسكن ، احدها من انسان العين ابن شقيق الروح التي بين الجنبين ، وثانيهما ممن شدت به البلاغة نطاقها ، ومدت به الفصاحة رواقها الاديب البارع الشيخ أبو النور الساطع ، وثالثها من الولد النبيل السيد اسماعيل ورابعها من عميد المعالي وابن عميدها ، ومالك أزمة المفاخر طريفها وتليدها كريم الاخلاق والشيم الاخ الاجل المحتشم السيد محمد هاشم أفندي غادري زاده . لطف الله بنا وبه ونوله مراده . وغيرها من ابن العم المحترم وبني الشقيقة والاجناب والحشم . فاطلعنا منها على كل معنى بديع وسررنا بها حيث أفصحت بصفاء خاطر الجميع ، وحصل برؤيتها الايناس ، وزال ماوسوسه في الصدور الخناس فعرضها على حضرة الاستاذ الجليل ذي الفضائل جميع مالدينا من الرسائل . فطالعها فردا فردا ، وابتهج بها فرحا وللمسرة أبدى ـ .. في النص السابق ذكر بعض شخصيات ادلب ولم نتمكن الا من معرفه الشيخ أبو النور المدعو محمد ابو النور الكيالي بن السيد ابي السعود ولد عام ١١٩٠ هـ وتوفى عام ١٢٥٢ هـ . اديب شاعر وناثر عرف بخطه الجميل . له في متحف المكتبة السلطانية باسطنبول مصحف . بخط يده وكتاباته

معظمها مفقود ، كماله شعر كثير ومدائح نبوية ، وتواشيح غزلية . أما الزاوية النورية بادلب فقد عرفت بزاوية ابي النور نسبة اليه بعد أن كانت تدعى زاوية الكيالي .

★

ويطل علينا عام ١٢٣٢ هـ ١٨١٦ م ليعود خلاله رحالتنا الى بلدهم ادلب – حلب . ويحدثونا عن انطباعاتهم في كل مدينة مروا بها او امضوا ليلة فيها . كحمص وحماه وخان شيخون والمعرة وغيرهم . ولدى عودتهم الى ادلب كتب يقول واصفا استقبال الاهالي لركب الرحالة قبل دخولهم البلدة .

– فمن ذلك الحين بدا ركب الملاقين ، فحثثنا السير بالجد والاجتهاد ، شوقا للقيا الاهل والاولاد ، وكلما كنز السوق تزايد الشوق ، كما قال ذو القال .

وأعظم مايكون الشوق يوما .. اذا دنت الخيام من الخيام

فما مضى ساعة من الزمان الا وأقبلت علينا افواج الاحبة والخلان ، ولم نزل على هذا السنن ، الى ان اشرفنا على الوطن ، ولمت في الخواطر لوامع السكان ، واقبل السواد الاعظم من الرجال والنساء والولدان ، وعلى مقدمتهم العلماء والاكابر ، اهل المحامد والمحاسن والمفاخر . ثم اقبلت النوبات والاعلام وحصل الوجد والهيام ، والتقى الجمع بالجمع ، وصار الكلام بالمشافهة للسمع ، وتصافحت الارواح وتعانقت الاشباح ، ثم دخلنا في معية الاستاذ من باب البلد – يقصد باب ادلب – ممدودين من الله تعالى بنظم المدد ، وصحبنا اولو العرفان والالباب ، وأهل الكمال والآداب ، الى ان دخلنا دار المقام بامان وسلام ، واجتمع شملنا بالاهل والعيال ، وصفى بقدومهم

الخاطر والبال ، وقرت العين بالعين ، وفر البين بالبين ، ونلنا المقاصد والاماني ، وجاءتنا رسائل التهاني ، فمن سلم على الاستاذ الاكرم بقصيدة بديعة النظم في حسنها ، فريدة الاخ الفاضل والعالم الكامل ، البدر الغالي ، والكوكب المتلالي ، ولد القلب السيد الشيخ الحاج محمد الغزالي وكذا ممن سلم أيضا بقصيدة زها نورها

واشرق في افق الفضل نورها السيد الفاضل الاديب والكامل الحسيب النسيب ، ابن العم الراقي ذرى المعالي السيد الشيخ محمد ابو النور الكيالي ، ولقد احببت ان اضمخ ختم هذه الرحلة بشذا عرف مسكها ، واقلد جيدها ببديع جواهر عقدها ، وهذه فريدةعقدالغزالي التي نظمها ،وبنت فكره التي من مخدرات قريحته استخرجها : ــ وهي قصيدة طويلة اخترنا منها هذه الابيات ــ .

ضحك الوجود وقد غدا متبسما

وازاح غيم البعد غيث قد هما

وبدا السرور فاصبحت أوقاته

بعد الظلام تخال حقا انجما

وغدا لسان الحال ينطق معلنا

أهلا بروح الانس من أهل الحما

فلذكره تبدي الرجال مهابة

وبعزمه حبل العداة تصرّما

فلطالما اشتاق طيفُ خيالكم

لو في الكرى حتى أشاهد انجما

فلك الهنا ياقلب ابشر هـذه

اعلامهم فاطرب وصخ مترغا

فلمرحبا بقدومكم حل الهدى

فمن انتما لجنابكم فلقد سما

ولقد أقول مؤرخا يبدو المنا

بقدومكم نلنا الهناء وخيَّما

وهذه الفريدة الثانية تؤمها بنت فكر ثاقبها وناظمها ابن العم المتقدم ذكره الذي فاح عبيره ونشره ـ وهي قصيدة طويلة نقتطف منها هذه الابيات ـ :

ياحسنها من روضة قد أينعت

وهزارها غنا وزاد ترنما

فرحا بمقدم سيدٍ ذي همة

معلومة وبكل فضل قد سما

أعنيه اسماعيل مولانا الذي

هو قطب هذا الوقت والحامي الحما

شمس الحقيقة والطريقة مرشد

للسالكين ومن اليه قد انتما

وله الكرامات التي قد شوهدت

لم تخف الا عن اصم وذي عما

بشراكما يافرقدي صبح الهدى

فالفضل يروى في البرية عنكما

منا القلوب تباشرت وعيوننـــا

قرت وقد نلنا السرور الاعظمـــا

لقدومكم بعد الغيـــاب فيا لــه

يوما بـدا ضحى السرور مخيمـــا

حـزنت لفرقتكم دمشق واصبحت

تبكي وحمص بعـدها وكـذا حما

وبادلب الافراح اسفر صبحهـــا

ولسان أهل المدح عاد مترجمـــا

وكذا امتدحه الفاضل الاديب والبارع النبيه الأريب من للاكارم منتمي السيد الحاج على الخاتمي مسلما على سعادته بعقده الفريد ومهنئا له وللائذين بدره النضيد. ولقد اثبتناها في هذه الرحلة لئلا نبخس نبله وفضله وهي هذه :

صـاحت بلابـل أشواقي واشجاني

اهـلا باكمـل اسياد واعيـاني

ايا نداماي طاب الوقت وانبسطت

ايدي السرور وساقي القوم حياني

ـ وهي قصيدة طويلة نكتفي منها بهذين البيتين ـ

ثم انه افتتحت ابواب العزائم والضيافات ، ودارت كؤوس الهنا والمسرات ، ووفـد المسلمون من كل جانب ، واصبـح الكدر عنها مجانب ، وبدلت الاتراح بالافراح ، ودقت بشائر البسط في حانات

شرب الـراح ، وانجلت غيوم الغمـوم واحـزان ، وماست بابرادها الاشواق والاشجان ، واستمر الحال على هـذا النمط والموال من يوم الاحد السادس والعشرين جمادى الاول الى ليلة الجمعة عاشرة شهر شـوال ــ ١٢٣٢ هـ ــ بالعيش الـرغيد ، والتجلي الحميد ، فالايام مغانم الصفا والليالي مواسم خمر الحب بين ندمان الوفا وفي تلك الليلة دقت نوبة الذكر ، وصفـا من الكدر الخاطر والفكر فحصل للاستاذ ــ اسماعيل الكيالي وجـد وهيام ، فبادر في حال شطحه ، بالقيام فأخذ يدق بالمزهر الى ان رُدَّ من الغيبة ، وانتهت مدة تلك النوبة ، فافتتح الذكر بالانشاد ولاحت بوارق الاولياء الامجاد ، فتطور الاستاذ بطور الجلال ، وتغير مزاجه في الحال . ودخل بعد تفرق الجمع لمقامه ، ولـم نجتمع به الا غب الاستيقاظ من منامه ، فدخلنا على حضرته العلية ، فاخبر انه اصيب برجة سماوية وطلب منا الاستغفار ، فشاهدنا عليه لوايح الذل والانكسار . وقد كان عازما في بلدتنا عـلى الاقامة ، فظهر لنا منه تلك الساعة العدول والندامة ، فرجـع عما كان من امله لمكاشفته والله اعلم بانقضاء اجله فطلب النزول الى الوطن ، وحن الى الاهل والسكن فأكد ذلك بصريح الطلب ، وامرنا بمصاحبته الى مدينة حلب ... ــ ولما عاد الشيخ اسماعيل الكيالي الى حلب توفي فيها بعد وصوله ببضعة أيام عليه رحمة الله وسلوانه ..

★

مما تقدم تبين لنا :

أ ــ كان لادلب أبواب ومنها الباب الجنوبي المتجه الى الشيخ أبو الحسن ــ مسطومة ــ ريحا .

ب ــ في النصف الاول من القرن التاسع عشر الميلادي عرفت ادلب نهضة ادبية دينية ، كان لاسرة آل الكيـالي فيها الـدور

الاوفي والاكبر بل لم تقتصر هذه النهضة على هذه الفترة الزمنية ، بل كذلك في القرن الثامن عشر كما عرضنا في نص رحلة الادهمي ١٧٣٧ م ١١٥٠هـ ٠

جـ ـ كان لابناء وشخصيات ادلب اعتبار واحترام في مدن بلاد الشام بما فيها طرابلس الشام وبيروت ودمشق ، أينما سرت في أسواق بيروت ودمشق ، تجد التاجر ـ الادلبي ـ أو ـ الشخصية ـ الادلبية ذات الاعتبار والاحترام ٠ كل هذا كان لما تمتعت به ادلب من علم وتقدم على مدى قرنين من النصف الثاني من القرن السابع عشر الى النصف الثاني من القرن التاسع عشر ٠

فهل تستعيد هذه البلدة بعض زهاياها !!!

★ ★

وآخر الرحالة الذين مروا بادلب عام ١٩٤٧ وكتبوا عنها فهو البستاني ، لكنه وصف القليل قائلا ـ ويتوالى الاخضرار من حول ريحا وجوارها الى قرية مسطومة ٠ ثم ينكشف الافق من سهل بعيد المدى محمر التربة ، مخضوضر الاطراف ، وتحد النظر في وسطه بقعة دكناء بما يزدحم فيها من شجر الزيتون فيه العادي الاصيل ، وفيه الناشيء وكله ينم عن عناية متتابعة ٠ وفي وسط هذه البقعة تقوم مدينة ادلب الغنية بمنتجاتها الزراعية ولا سيما الزيتون والزيت ، الدالة على هذا الغنى ببناياتها الجديدة المرتفعة على روعة في الحجر ، وتنوع في الهندسة ٠ وليست بنايات المدارس بأقلها جمالا واعتناء ٠٠ ويزداد اعجابنا ببناء الحجر ، اذا ماذكرنا أننا في منطقة تكاد تخلو من المقالع الصخرية خلوها من الشجر الصالح أعمدة والواحا لرفع القناطر وعقد السقوف ٠٠ ـ (٢٠)

(٢٠) البستاني فؤاد : خمسة أيام في ربوع الشام ص/١١٣ ومابعد ٠

مر هذا الرحالة قبل اصابة زيتون ادلب بالصقيع الشديد الذي وقع شتاء عام ١٩٤٩ ، لكنه أعطانا وصفا لواقع الزيتون قبل هذه الكارثة • التي كان لها الوقع الاليم في نفوس أهالي المنطقة ، ودمر اقتصادها القوي من شجر الزيتون ، شجر المحبة والسلام • ولم يصب البستاني في الرأي بقوله ـ منطقة تكاد تخلو من المقالع الصخرية ـ بل تكثر المقالع المجاورة لبلـدة ادلب وبالاخص في الجهة الغربية منها قبل الوصول الى سهل الروج ، والا لما عمد السكان الى اقامة تلك الابنية الجميلة كما قال ، بل أقاموا بيوتهم من طين يضعون فيه القش والتبن كابنية القرى المجاورة •

اما الآن فقد أصبح البناء في ادلب وبقية القرى المجاورة متشابها من حيث المواد الاولية وطراز البناء • فالتقدم والعمران يسير بوتيرة سريعة،ولعمري فاني ألاحظ الريف يسابق المدن في العمران، قبل ان تسابق المدن القرى • ومدينة ادلب تجدها عاما بعد عام غيرها بالامس ، كيف ستكون في المستقبل ! ! هـذا أمر أدعـه لاحفادنا ، ليتابعوا هذه النهضة العمرانية ، أسوة بأجدادهم بناة هذه الامجاد وتلك الاوابد ، وذاك التراث الحضاري •• فهـل أنتم فاعلـون • اني متفائل بـكم ، ان آمنتم بالعـلم والنظام وبأنفسكم كأحفاد لاجداد نفخر بهم وبسواعدهم الجبارة ، وعقولهم المفكرة ، وصدورهم الواسعة ، أمـام الثقـافات التي صبت في أرضها ، لكنها لم تقتلعها من جذورها ، فهـي حضارة محليـة واصيلة ومتميزة ، وسيشهد لنا بذلك ، كـل مفكر وباحث في تراثنا وآثارنا ومنجزاتنا الحضارية في ربوع المحافظة •

★ ★

في عام ١٨٠٥ م جاء الرحالة ستيزن Steezen قادما من حلب • فلما أطل الى أراضي المحافظة كتب يقول ـ ١٠ نيسان ـ الخميس

استيقظنا صباحا في الساعة السادسة وخمسة دقائق ، مشينا في هذه المنطقة الخالية من الآثار القديمة • كان الجو جميلا رماديا ، والحقول مستوية ، والهواء والطبيعة فيها شيء من الضباب • في اثناء سيرنا قابلنا قافلة أخرى • وفي حوالي الساعة الثامنة شاهدنا بعض الآثار وحقول القمح الواسعة •

حوالي الساعة الثامنة والنصف صادفنا في طريقنا بعض المرتفعات الجبلية • حوالي الساعة الثانية بعد الظهر ، ارتفعت الحرارة عما كانت عليه سابقا • وصلنا الى قرية معاره Maara المحاطة بالحقول الجميلة والغنية بسنابل الحبوب والحشائش النامية فيها • يعيش سكان القرية في بيوت أشبه بأنقاض مهدمة تقريبا • وفي حوالي الثالثة وعشرين دقيقة نصبنا خيامنا قرب هضبة اصطناعية في سفحها قرية أخرى اسمها شلق ـ هكذا كتبها بالعربية ـ Schülluk • كانت قافلتنا مكونة من ـ ٤٠٠ ـ حصان وحمير وبغال • ونصف العدد تقريبا من الرجال والنساء ، لكن النساء كن متحجبات بالملايا وممتطيات الدواب كالرجال •

لم يكن للمواشي حظائر ومراعي فنية كالحظائر التي شاهدناها في هنغاريا وكانت المناظر التي تحيط بنا من هذه الهضبة البسيطة جميلة جدا ، فالافق الواسع من جميع الجهات ، الا من الجهة الغربية حيث تقع هناك بعض السلاسل الجبلية المنخفضة • وحول هذه الهضبة الصغيرة كانت تنتشر البغال والحمير والاحصنة •

---

(٢١) معارة : قرية تقع الى الشرق من ادلب • وهي تدعى معرة النعسان وسابقا معارة الخاسكي عدد سكانها ٣٠٧٠ نسمة تابعة لناحية تفتناز وعنها بـ ٩ كم وعن ادلب ٢٦ كم •

(٢٢) شلخ : كتبها الرحالة هكذا ـ شلق ـ بالعربية ولكنها تدعى الآن شلخ وهو الاصح • تقع الى الشرق من ادلب تابعة لناحية تفتناز عنها بـ ٣ كم وعن ادلب ٢٠ كم • عدد سكانها ٨٧٠ نسمة •

استيقظنا في الساعة السادسة الا عشرين دقيقة في الحادي عشر (٢٣) من نيسان وسرنا في طريقنا الى أن وصلنا الى قرية تفتناز Taftanas وفي الساعة الثامنة وعشرة دقائق صادفنا حقول الزيتون الجميلة · شاهدنا ثورين قادمين الى مراعي الحبوب الجميلة ــ

★

ليس لنا تعليق على هذا النص ، فهو بسيط ، ببساطة ثقافة هذا الرحالة ، وهذا من طبائع البشر ، فليس كل رحالة مثقف ك بوكوك وفولني وبوركهارد ، لكن في كل الاحوال من النصوص البسيطة نستشف بعضا من واقع المحافظة زراعيا واقتصاديا كهذا النص ·



نعود الى جولتنا مع بوركهارد لنودعه قبل مغادرته منطقة ادلب في ــ شباط ١٧ منه ١٨١٢ ، بعد الظهر غادرنا ادلب ، كان طريقنا خلال غابة من أشجار الزيتون في سهل خصب ذي تربة حمراء · في غضون ساعة وصلنا « شيخ حسان » ضريح مقدس ، وبعد ساعة وربع تجد تلا منعزلا تل ستمَك ، مع قرية ستمك في الجانب الغربي منه · وبالاتجاه من ادلب جنوبا الى الغرب ، يبدو هذا التل أكمة اصطناعية من الارض · والى هنا تنتهي أشجار الزيتون الكثيفة ·· ــ

قرية ستمك هذه هي بذاتها قرية مسطومة التي تقع الى الجنوب من ادلب بسبعة كيلومترات · عدد سكانها ١٩٥٢ نسمة تتبع

---

(٢٣) تفتناز ناحية باسمها تقع الى الشرق من ادلب بـ١٧ كم عدد سكانها ٣٨٠٦ نسمة

ناحية قرى مركز ادلب · وقـد كتب بوركهـارد اسمهـا هكذا ستمك باللغة العربية · وهو لم يخطىء لان اسمها هكذا كان زمن مروره وان تغير الآن ، ليكتب بألـف ولام مضافة اليهـا ـ المسطومة ـ والاصح بدون ألف · هذا وقد مر رحالة آخرون في القرن التاسع عشر وكتبوا اسمها ـ ستمك ـ · هذا وقد تبدل اسمها منذ القدم غير مرة ولكنه حافظ على أصالة معناها ، ومن اراد المزيد عنها فليراجع كتابنا ـ ادلب ·· البلدة المنسية ! ـ فصل القرى والمزارع ·

أما التل الذي شاهده وتكهن بانه اصطناعي ، فقد أصاب برأيه ، فهو تل أثري هام ، وقـد باشرت البعثة اليابانية التابعة لمتحف الشرق القديم في طوكيو ، التنقيب فيه عام ١٩٨٠ ·

شكل التل بيضوي ، يبلغ ارتفاعه حوالي عشرين مترا ومساحته ٢٠٠ × ٢٥٠ م ·

أما ـ شيخ حسان ـ فما زال هذا المزار قائما · يقع جنوب ادلب الى الشرق من منطقة ـ الشيخ عثمان ـ · عن ادلب ٢ كم وعن ادلب القديمة بحوالي ٣ كم · ويدعى الآن ـ شيخ أبو الحسن ـ وكما لاحظنا فقد كان بقربه سير الطريق من ادلب الى ريحا ·

★ ★ ★

نقف في رحلتنا هذه في استراحتين مع شيخ الربوة المتوفى سنة ٧٢٧ هـ اذ ذكر بايجاز بعض المواقع ، والتي كان ينبغي فيها الشرح والتفصيل ·

كيف لا والفوعة ذات التاريخ القديم والاحداث الحافلة · وكذلك معرة مصرين التي ذكرتها كتب الفتوح الاسلامية ·

لنقرأ معا ـ ونتحسر قليلا ـ هذا النص لـ شيخ الربوة ـ والفوعة ولها عمل حسن · ومعرة صرمين بلدة طيبة ولها عمل متسع ·

أ ٠ هـ ـ لاندري لم كان ـ شيخ الربوة ـ وهو الدمشقي مقلا تجاه هاتين البلدتين ، رغم عملهما المتسع ، أي حدود أراضيهما ، وكثرة القرى التابعة لهما ٠ هل لانه لم يمر بهما ، بل سمع بهما وهو يزور المحافظة ؟! ٠

ـ الفوعة ـ بلدة موغلة في القدم ، اذ يعود تاريخها الى ماقبل الاسلام ، تتالت عليها حوادث الدهر ، فأخذتها الى قرية صغيرة ٠ تقع الى الشرق الشمالي من ادلب بـ ١٠ كم وهي تابعة لناحية بنش [٢٤] كقرية عنها بـ ٢ كم عدد سكانها ٦٣٥٩ نسمة ٠ ذكرها ياقوت الحموي فقال ـ الفوعة ، بالفم ، ولا اشتقاق له على ذلك ، وانما الفوعة بالفتح ، للطيب رائحته ٠ وفوعة السم : حمّته ، وفوعة النهار : أوله ، وكذلك الليل : وهي قرية كبيرة من نواحي حلب ، واليها ينسب دير الفوعة ـ

لقد أصاب ياقوت بالنسبة للدير الذي كان يقع الى الغرب الجنوبي من القرية وهناك مزرعة باسم ـ الدير ـ عدد سكانها ٤١ نسمة ٠ قمنا بزيارتها ـ ١٩٨٤ ـ للبحث عن أوابد الدير ، ولكننا لم نجد إلا مغاور كان فيها سابقا بعض الاجداث ٠ وهذا الدير له ذكر في التاريخ ، عدت عليه عوادي الزمن ليصبح أثرا بعد عين ٠

وعبارة شيخ الربوة ـ ولها عمل حسن ـ أي لها قرى ومزارع تابعة لها ٠ وهذا ماكان ، اذ كانت يوما ما مركز ناحية تتبعها عدة قرى ٠ وكانت سابقا تابعة اداريا الى سرمين وتعتبر من أعمالها لكن الملك الظاهر غياث الدين غازي ـ ٥٦٨ ـ ٦١٣ هـ ١١٧٣ ـ ١٢١٦ م افردها بولائه وجعلها في خاصته ٠

---

(٢٤) هكذا في التقسيمات الادارية من حيث الشكل ، ولكن من حيث الواقع ، فما زالت هذه القرية تابعة لناحية معرة مصرين ٠

كما ذكر شيخ الربوة كذلك ، بأن أهالي الفوعة ، كانوا يشاركون نصارى حماه في عيد الفصح ، بالاضافة الى قرى عديدة ترد اليها من محافظة ادلب ككفر طاب والمعرة · وسنعود الى هذا الموضوع في بحث معرة النعمان ·

★ ★

أما ــ معرة مصرين ــ فكتبها ــ معرة صرمين ولم يعرف لها مثل هذا الاسم ولعله خطأ من الناسخ ، وقد كان يطلق عليها ذات القصور ، وكذلك معرة قنسرين ومعرة نسرين ، بالنون والسين المهملة ·· لكن المشهور اسمها هكذا ــ معرة مصرين ــ ·

★

فتحها المسلمون بقيادة ابي عبيدة بن الجراح ١٧ هـ ٦٣٧ م صلحا كصلح حلب · ذكر البلاذري انه بلغ ــ أباعبيدة ــ ان جمعا من الروم بين معارة مصرين وحلب · فلقيهم وقتل عدة بطارقة منهم وفتح معارة مصرين على مثل صلح حلب · وأصبحب بعد الفتح الاسلامي تابعة اداريا لقنسرين · ولما تراجعت مدينة قنسرين، لتصبح حلب مملكة ، عدت معرة مصرين من كور حلب بالاضافة الى كورة مرتحوان ·

ذكرها ياقوت الحموي المتوفى ٦٢٦ هـ ١٢٢٩ م بما يلي ــ معرّة مصرين : بفتح أوله وثانيه وتشديد الراء ، قال ابن الاعرابي : المعرّة الشدة ، والمعرة كوكبٌ في السماء دون المجرَّة ، والمعرة : الدية ، والمعرة قتال الجيش دون اذن الامير · والمعرة تلون الوجه من الغضب · وقال ابن هانىء : المعرة في الآية أي جناية كجناية العَرّ وهو الجرب ، وقال محمد بن اسحاق المعره الرُّم ، وأما

مَصرين فهو بفتح الميم ، وسكون الصاد المهملة ، وراء مكسورة ، وياء تحتها نقطتان ، ساكنة ونون ، كأنه جمع مصر كما قلنا في أندرين ، والمَصر : بالفتح ، حَلْبٌ بأطراف الاصابع · وهي بليدةٌ وكورةٌ بنواحي حلب ومن أعمالها ، بينهما نحو خمسة فراسخ وقال حمدان بن عبد الرحيم يذكرها :

جادت معرّةَ مَصرين منَ الدِّيمِ
مثل الذي جاد مِنْ دمعي لبنيهم

وسالمَتْها الليالي في تغيُّرها
وصافحتْها يد الآلاء والنِّعمِ

ولاتناوحت الاعصار عاصفةً
بعرصتيها كما هبَّت على إرَمِ

حاكت يدُ القطر في أفنانها حُللاً
من كلِّ نورٍ شنيب الثَّغر مبتسمِ

اذا الصَّبا حركت أنوارها اعتنقت
وقبَّلت بعضها بعضا فماً بفمِ

فطال مانشَّرت كفُّ الربيع بها
بَهارَ كسرى مليك العرب والعجم

وذكرها ايضا الملك المؤيد عماد الدين بن أيوب صاحب حماة فقال ومن الاماكن المشهورة معرة نسرين بالنون والسين المهملة عن السمعاني · والمشهور انها معرة مصرين بميم وصاد مهملة ـ تقع هذه البلدة الى الشمال من ادلب بـ٩ كم وهي مركز ناحية باسمها وعدد سكانها ٩٤٧٧ نسمة ·

زارها ــ الكيالي ــ عام ١٢٣١ هـ ١٨١٥ م فقال ــ ٠٠٠ فامتثلنا أمره المطاع ــ أي أمر الشيخ اسماعيل الكيالي ــ وعلونا متون الخيل بالاسراع ، فلم نزل سائرين الى أن أقبلنا على معارة مصرين ــ فخرج أهلها للقيانا بالعلامات والمزاهر ، واستدعوا المبيت عندهم لحصول جبر الخاطر ، فلبينا دعواهم ، ودخلنا حصنهم ومأواهم ، فأنزلونا في ذلك القصر المشاد ، وتشنفت الاسماع باصوات المغاني والانشاد ، فعرى الاستاذ سنة من النوم لما أطربه من سماع أصوات القوم ٠ فنزلنا من مكانه لمحل آخر في رفاهية زايدة ، فاستقمنا الى ان حضرت سفرة المائدة ، ذات الالوان الوافرة والاطعمة اللذيذة الفاخرة ، فأيقظنا الاستاذ للعشاء ، فوجدناه غير مرتاح متغير المزاج لما لحقه من نسمات تلك الارياح ، فلم يتناول من الطعام الا القليل وصار يئن أنين العليل ، فبتنا تلك الليلة معدومي المنام ، لما توارد على الاذهان من الخيالات والاوهام ٠ فلما لاح الصباح واشرق نوره الوضاح عزمنا على المسير ملحوظين بعناية الله القدير ،فسرنا الى أن وصلنا الى قرية ــ الكفر ــ وشاهدنا من تغير مزاج الاستاذ حالا ينقصم له الظهر، فتلقانا الاقرباء بالاجلال والترحاب ، وانزلونا لاجل راحة جناب الاستاذ المهاب ــ يقصد الشيخ الصوفي اسماعيل الكيالي ــ ٠ فبعد نزوله بساعة سرى عنه ذلك الحال ، واعتدل مزاجه حتى كانه نشط من عقال ، وركبنا حينئذ مسرورين ، والى جهة المقصد متوجهين ، فتعرض لنا في الطريق شيخ قرية كله فجبرا لخاطره دخلنا لشرب القهوة محلته ثم توجهنا الى كفر دريان ٠٠٠ ــ

وهكذا نجد الشيخ الكيالي يستقبل في كل مكان استقبالا حسنا ، نظرا لعلمه وشهرته في ربوع المحافظة كصوفي له كرامات ، وعالم يعترف بفضله فأنزله أهل معرة مصرين في ــ قصر مشاد ــ وأقيم له حفل طرب وانشاد اذ عرف عنه حبه سماع الموسيقا قبل غيابه

الصوفي وتجلياته الروحانية · وهذا ماحدث فاخذته سنة من النوم كما قال مرافقه الشيخ محمد الكيالي · وفي صباح اليوم التالي اتجهوا قاصدين كفر دريان فزاروا قرية الكفر التابعة لناحية معرة مصرين وهي ذاتها قرية ـ كفر يحمول ـ الحالية عنها بـ ٤ كم وعن ادلب ١٣ كم عرفها ياقوت الحموي فقال ـ يحمول : اسم قرية مشهورة من قرى حلب من ناحيه الجزر · ينسب اليها أبو الثناء محمود ، كان من أهل الشر ، وكان الملك الظاهر بن صلاح الدين يستعين به في استخراج الاموال وعقوبات العمال ، وله ذكر في تاريخ الحلبيين ـ وهي قرية لها ذكر في التاريخ سنعود اليها في بحوث قادمة · تقع الى الشمال من معرة مصرين عدد سكانها ١٦٥٠ نسمة · ـ انظر كذلك الفصل الثاني والهامش ـ والقرية الاخرى ـ كله ـ سنعرفها فيما بعد ·

★ ★

في عام ١٨٤٦ زار الرحالة الاميركي القس طومسون Thomson ناحية معرة مصرين قادما من حلب مع مرافقه الذي كان من أهالي كفتين فكتب عنها يقول ـ وتتميز كفتين ـ بتربية الحمام ، بدرجة انتاجية رئيسية · ويربى الحمام في بيوت عالية دونما سقوف ذات حيطان مزخرفة · ويحملون الحمام الى أسواق حلب بكميات كبيرة · عددت في كفتين اثنين وسبعين نوعا للحمام ·

والى الجنوب من كفتين وعلى بعد ساعتين عنها تقع معرة مصرين التي يبلغ عدد سكانها ثلاثة آلاف · وقد كان يوجد فيها أسوار وقلعة ولكنها حاليا خربة ، وكانت محاطة بالاشجار الكثيفة قديما ·

وهنا في معرة مصرين توجد عائلة نصرانية أصلها من ادلب تعمل في الصباغـة ٠

وهنا في الايام الشاغرة يقام سوق للتجارة ، تباع فيه زبدة ـ عسل زيت ـ حمام ـ سكر ـ ملح ـ بهار ـ كاسات ـ قطن ٠ وفيه يعني سوق التجارة ـ سوق كبيرة للحيوانات من خيول وحمير وبغـال وغنم ونعاج وماعز (٢٥) ٠

★

ان هذا النص يوضح لنا بعضا من الحياة الاقتصداية في المنطقة في منتصف القرن التاسع عشر ٠ قصد بالسوق ـ البازار ـ الذي يقام كل يوم جمعة في معرة مصرين ٠ أما القلعة فقد ذكرها قبله الكيالي بقوله ـ ودخلنا حصنهم فأنزلونا في ذلك القصر المشاد ـ ولكن اليوم لاتوجد أية أوابد تشير الى هذا المعلم الاثري الهام ، فهل هي تحت البلدة الحالية !!!

★ ★

ننتقل الآن الى الشمال من معرة مصرين ، بعد حصولنا على نصوص جيدة ، وصفت لنا تلك المنطقة الخصبة بتربتها ، والغنية بآثارها ، فهيا بنا نرافق ـ هنري موندريل H, Moundrelle الذي زار المنطقة عام ١٦٩٧ م قادما من حلب الى خان العسل ومنـها الى أورم فقال ـ وصلنا بعد ساعة ونصف الى اورم ، قرية قديمة ليس فيها شيء يذكر ، سوى كنيسة صغيرة ٠ ومن اورم وفي خلال نصف ساعة وصلنا الى كفر Kaffre وفي أكثر من ثلاثة أرباع الساعة الى Essoyn (ES - a in) ٠

---

(25) THOMSON . W : Journey From Aleppo to Mount Lebanon by Jepel Ala P - 663

وفي هذا المكان الاخير ، دخلنا في سهــول كفتين Kefteen (Kaftin) أسرعنا الخطا ، فوصلنا بعد ساعة الى قرية اخرى لجينة Legene وفي أكثر من نصف ساعة أخرى الى حزانو Hazano ثم في أكثر من ساعة الى كفتين .

كل تجوالنا اليوم استغرق حوالي خمس ساعات جنوب ـ غرب قليلا .

مساحة سهول كفتين واسعة ، تمتد جنوبا ، الى ماوراء مد البصر ، وفي معظم الاماكن تجد الزراعة الخصبة والجيدة .

وبعد اجتيازنا السهل وفي Essoyn أحصينا أربعـا وعشرين قرية . بدت من موقعنا وعلى مرأى من محطتنا ، كقرى متباعدة . لون ترابها أحمر ، حراثته جيدة ، ولاتكاد تجد حصى فيه . على كل حال في الجهة الغربية على امتداد عدة أميال تجد تلالا مرتفعة لاشيء فيها ، سوى صخور جرداء ـ لاتقدم شيئا مفيدا ـ وفي تلك المنطقة ، تتدخل يد الطبيعة لتلملم الاحجار وتجعلها كومة واحدة كأنها جبل واحد .

ـ كفتين ـ قرية واسعة ومنتجة تقع في الطرف الغربي من السهل ، الذي يزرع فيه القمح الغزير ، غذاء السكان والحمام ، ولعل في تلك المنطقة تكثر أبراج الحمام أكثر من أية منطقة أخـرى ! شاهدنا في هذا المكان ، فوق باب الحمَّام حجرا رخاميا نقشت عليه اشارة الصليب وكتابة تاريخ لم نستطع حلها . من المحتمل هو باب عال لاحدى الكنائس في الازمنة القديمة . لهـذا كنت متأكدا من أهل القرية ، بوجود كثير من آثار الكنائس والاديار التي مازالت تشاهد في الجبال الصخرية المجاورة .

ـ السبت ٢٨ شباط ١٦٩٧ : أمامنا مرحلة طويلة للسفر هذا اليوم ، حيث غادرنا كفتين باكرا ، وما زلنا مستمرين في السهل الخصيب والغزير بالقمح والزيتون والكرمة ٠

وصلنا في ثلاثة أرباع الساعة الى حربنوش Harbanoose ('Arbanus) قرية صغيرة تقع على امتداد السهل ٠ بعد اجتيازنا ارتفاعا بسيطا ، وصلنا الى واد غني يدعى ـ روج ـ



من النص السابق نستخلص مايلي :

١ ـ أورم : هي اورم الصغرى التابعة لمحافظة حلب ٠

٢ ـ كفر و Essoyn لم نتمكن من تحديدهما بدقة ففي المنطقة أكثر من قرية تدعى كفر ك كفر نوران وكفر يحمول ٠

٣ ـ لجينة : وهي قرية اللجينة ٠ كانت تابعة لناحية معرة مصرين في مطلع القرن ٠ اذ ذكرتها سالنامة ولاية حلب تقويم ١٣٢٤ باسم ـ جينة قرية تتبع قصبة معرة مصرين ـ وهي حاليا تابعة لحلب ٠

٤ ـ حربنوش : قرية تقع في الشمال الغربي من ناحية معرة مصرين وهي تابعة لها عنها بـ ١٠ كم وعن ادلب ١٩ كم ٠

---

(26) MAUNDRELL(Henry) Ajourney From Aleppo to Jerusalem - P, 384 - 384 , London 1848

سكانها ١٧٩٤ نسمة ، من القرى القديمة لكن الاقدم تقع الى الشرق منها بـ ٢ كم وتدعى ـ خربة حربنوش ٠ كتب عنها ياقوت فقال ـ حرْبنوش : بالفتح ثم السكون ، وفتح الباء ، وضم النون ، وسكون الواو ، وشين معجمة : قرية من قرى الجزْر من نواحي حلب ٠ قال حمدان بن عبد الرحيم الجزْري :

ألا هل إلى حثِّ المطايا إليكمُ

وشم خزامى حَربَنوش سبيل

في أبيات ذكرت في الديرة ـ

كما ذكرها البغدادي كذلك وغيره ٠ وبقربها يقع دير مرقس ٠

٥ ـ حزانو : قرية تابعة لناحية معرة مصرين الى الشمال منها بـ ٧ كم وعن ادلب ١٦ كم عدد سكانها ١٧٢٤ نسمة يعود تاريخها الى ماقبل الاسلام ٠

٦ ـ كفتين : قرية تابعة لناحية معرة مصرين الى الشمال منها بـ ١٢ كم وادلب ٢١ كم ٠ سكانها ١٠٦٧ نسمة ٠ وهناك قرية أخرى تدعى ـ بيرة كفتين ـ تقع الى الشمال من ناحية معرة مصرين بـ ٩ كم وعن ادلب ١٨ كم ٠ من نص موندريل عرفنا بانها قرية كبرى ومن القرى العامرة في المنطقة ، والمزدهرة تجاريا ٠ حتى ان سمعتها وصلت الى أوربة ، وبالاخص فرنسة وكذلك مرتحوان ٠

أهم زراعاتها الحبوب وتشتهر بتربية الطيور ٠ ووجود حمام فيها دليل على عظمتها ، فلا بد أن يكون فيها ـ خان ـ طالما أمضى الرحالة ليلتهم فيها ، وكذلك رحالة آخرون أتوا فيما بعد ٠

أما حجر الرخام المرفوع فوق باب الحمام والمنقوش عليه كتابة نقلها رحالتنا دون ترجمة ، فقد تمكنا من الحصول على ترجمتها وهي ـ المجد للآب والابن والروح القدس ـ وهي مكتوبة باللغة اليونانية نحن نرجح بأنه باب كنيسة أودير ، جلبه الاهالي من الاراضي المجاورة ، الغنية بالاديرة والكنائس • فهناك دير سيتا الى الغرب من كفتين ، ودير مرقص المجاور لحربنوش ، وعرشين كذلك • ولم يبق من هذه الاديرة والكنائس غير أطلال بسيطة ، فيد الجهل امتدت اليهم لتشوه معالمهم •

ذكرهم الشاعر الاثاربي حمدان بن عبد الرحيم المتوفى عام ١١٤٥ م فقال :

أسكانَ عرشينَ القصور عليكمُ

سلاميَ ماهبَّت صباً وَقبولُ

ألاهل الى حثْ المطايا اليكمُ

وشمٍّ خزامى حربنوشَ سبيلُ؟

وهل غفلات العيش في دير مرُقسٍ

تعود وظلٌ اللهوفيه ظليلُ ؟

اذا ذكرتْ لذاتها النفسُ عندكم

تلاقى عليها زفرةٌ وعويل

بلادٌ بها أمسَ الهوى غيرَ أنني

أميلُ مع الاقدار حيث تميلُ

وهذه الاديرة والكنائس شاهدها موندريل من بعيد ، بينما الآن لم يبق الا القليل من أوابدهم · ولن نطيل الوقوف في شرح تلك الخرائب ، فلكل حادث حديث ·

كما زار كفتين رحالة آخر ــ بعد قرن يدعى براون Browne ١٧٩٧ م قادما من جسر الشغر · كتب يقول ــ وفي اليوم الخامس وصلنا الى كفتين Keftin ، قرية تعرفها بأبراج الحمام ، تزود بها البلدان المجاورة بما فيها حلب أراضي الضواحي فائضة بالقمح والشعير والمزروعات في الاطراف ، الارض خصبة ، وليسوا بحاجة الى الخنازير ·

أما النساء فيخرجنا هنا سافرات ــ بلا حجاب (٢٧) ··

اذن ظلت هذه القرية ، تتمتع بازدهار اقتصادي طيلة قرن كامل · والكرمة لم تعد تزرع الآن كما كانت في السابق ·

★ ★

لنرحل الآن الى مرتحوان هذه القرية الهامة عبر التاريخ · والتي تدعى الآن ــ معارة الاخوان ــ · تقع الى الشمال من معرة مصرين بـ ٨ كم وعن ادلب ١٧ كم سكانها ٨٨٠ نسمة ·

فتحها المسلمون مع البلدان المجاورة سنة ١٧ هـ ، وكانت تدعى مرتحوان في كتب الفتوح · أصبحت تدعى ــ كورة مرتحوان ــ التابعة لقنسرين ثم أصبحت تابعة لحلب ، بعد تضعضع قنسرين · عرفها ياقوت الحموي فقال ــ مرتحوان : بالفتح ثم السكون ، وتاء فوقها نقطتان ، وحاء مهملة : من نواحي حلب ــ كانت هذه

---

(27) BROWNE (W.G) Travels In Africa. Egypt. and Syria P, 382 London 1799 ,

القرية ممرا رئيسيا للقوافل التجارية مع كفتين القريبة منها روى لنا بعض كبار السن ، سماعهم وجود خان شمال القرية ، وهو بالذات الخان الذي أقام فيه رحالتنا القادمين من حلب الى جسر الشغر وبالعكس • ومازالت بعض أوابده قائمة •

★

في عام ١٦٥٤ مر بها البطريرك مكاريوس الحلبي فقال ـ خرجت أنا مؤرخه وبقية الارفاق يوم الثلاثاء سحراً عيد النبي مار الياس، ووصلنا الى قرية تدعى معرتحوان وسحراً قمنا وأتينا الى حارم والى غزارين وهي قرية بقرب جسر الحديد على حافة العاصي ونمنا فيها [٢٨] •



اذن كانت معرتحوان أولى محطات القوافل بعد حلب لمن يريد السفر الى اسطنبول أو الى القدس كطريق ثان بعد الطريق الاول حلب ـ خان طومان ـ خان سبل أو خان سراقب ـ المعرة ـ حماه وهكذا ••• او بالعكس الآتي من اسطنبول الى حلب وفي عام ١٧٨٣ م زارها الرحالة الفرنسي المشهور فولني Volney ليؤكد قولنا السابق فقال ـ على الطريق من اسكندرون ـ حلب في آخر منامة قبل حلب تقع قرية معرتحوان Martaouan الشهيرة عادة لدى الاتراك والفرنجة •

---

(٢٨) بولس ـ الشماس : نخبة من سفرة البطريرك مكاريوس الحلبي ص ٧٠

ونحن الاجانب نعتبر نساءهم جميلات ، ولكن الحقيقة ، فالسبب هو الامتناع عن النساء في وقت الابحار والسفر وتبجحهم ، دفعهم لهذه الاقوال ـ من كثرة الشوق للنساء ـ ·

وفي رأي هيئتهن الخارجية ، تظهرهن غير جميلات · هذه القرية في جبال ، تنتهي الى الشمال من حلب ، تذكرك ببلدتي كلّه وعينتاب باعتبارهم قرى كبيرة يسكن فيهم أرمن ـ أكراد مسلمون · وهم يعيشون بتآلف وتفاهم ، رغم اختلاف المذهب · يكتسبون من تفاهمهم مقاومة ظلم الباشا الذي تحدوه عدة مرات · ولذلك فهم يحيون عيشة هانئة من نتاج أغنامهم والنحل وبعض الحبوب وزراعة التبغ · (٢٩)

★

وبعد فولني زارها في عام ١٧٩٧ م رحالة انكليزي يدعى براون · كتب عنها يقول ـ وفي معرتحوان Martaouan التي ليست بعيدة عن كفتين ، ترى النساء مع الرجال بلا حجاب والناس يطلقون عليهم بالعربية نصيرية ، ويقال بأنهم يدعون المحمديين ، نساؤها جميلات ذوات عيون سود ، وشكلهن مقبول ···ـ



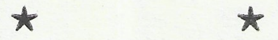
ذكر الرحالة نساء القرية بلا حجاب ؛ والعكس هو الصحيح ، فنساؤها يضعن غطاء أبيض على رؤوسهن ، وغطاؤهن هذا يتميزن به عن غطاء نساء القرى المجاورة ·

(29) VOLNEY(M,C.F) Voyage en Syria et en Egypte Pendant Tome-1- P. 286

وما ذكره الرحالة ـ فولني ـ حول ـ تفاهم الاهالي ساعدهم على مقاومة ظلم الباشا فتحدوه عدة مرات ـ هذا صحيح ، فكثيرا ما كانت معظم قرى المحافظة تتعرض لارهاق الولاة أو الجباة أو أصحاب الاقطاعات بالضرائب والرسوم ، مما يؤدي الى نزوح قرى بكاملها عاما بعد عام وسوف نولي هذا البحث تفصيلا في أبحاث أخرى ٠

كمالنا عودة الى هذا الموضوع في الفصل الاخير ٠

اراد بكلامه ـ رغم اختلاف المذهب ـ انهم من أتباع المذهب الدرزي ، بالاضافة الى كفتين وقرى أخرى ٠ ومن حيث الزراعات فان زراعة التبغ ، لم تعد تزرع الآن ٠ أما عنتاب فهي الآن ضمن الاراضي التركية في لواء اسكندرون عرفها ياقوت الحموي فقال ـ عينُ تاب : عَينُ : تاب قلعةٌ حصينةٌ ورُستاق بين حلب وانطاكية وكانت تعرف بدلُوك ودلوك رستاقها ، وهي لآن من أعمال حلب ـ والقرية الاخرى كللي فتقع الى الشمال من ناحية معرة مصرين وهي تابعة لها اداريا تبعد عنها ١٠ كم وعن ادلب ١٩ كم عدد سكانها ٣٦٨٣ نسمة ونلاحظ بأنها كانت تكتب هكذا كلّه كما كتبها الرحالة الشيخ ـ محمد الكيالي ـ ٠ بينما تكتب الآن بياء بدلا من همزه في آخرها ٠



وفي حوالي ١٨٥٠ أطل الرحالة الفرنسي الحاج لاورتي فكتب يقول ـ ومن المواقع الاخرى في ولاية ـ باشوية حلب ـ والجديرة بالذكر قرية مرتحوان Martoûan ، المشهورة عند الفرنسيين

والاتراك ، كونها المكان الوحيد الذي يحسن ضيافة الاجانب [30]

★ ★

ننتقل الآن الى موقع هام ، يقع الى الغرب من بلدة ادلب بـ ١٥ كم الى سهل الروج الذي احتضن احداثا تاريخية هامة عبر العصور ، وما زال يقدم الخير من أرضه المعطاء · عرفه ياقوت الحموي فقال ـ الروج : بالضم ، والجيم : كورة من كور حلب المشهورة في غربيها ، بينها وبين المعرة · ولها ذكر في الاخبار ـ

كان لهذ االسهل ذكر في التاريخ ، بوجود عدة قرى دافعت او كانت مراكز مراقبة في الحروب الصليبية ، وخاصة تلك التلال الاثرية والحصون المطلة عليه · وهذه تحتاج الى دراسة ليس مجال عرضها الآن ·وفي العهد العثماني كان هناك ناحية ادارية تدعى ـ ناحيةالروج ـ تتبعها عدة قرى · ـ راجع تفصيل ذلك في كتابنا ادلب ·· البلدة المنسية ـ في عام ١٦٩٧م مر الرحالة موندريل بسهل الروج قادما من كفتين ، ومتجها الى جسر الشغر فقال ـ وصلنا الى واد غني يدعى ـ روج ـ يمتد الى الجنوب أكثر مما تصورنا ، لكن صدره من الشرق الى الغرب يتكيء على جبال صخرية ·

وللسفر في هذا الوادي نحتاج الى أربع ساعات ، وصلنا الى مكان ماء واسع يدعى ـ بحيرة الروج مما اضطرنا الى عبور هذه البحيرة الموحلة ، ولم نجد صعوبة في العبور بوجود الخيول وخاصة البغال المحملة · وحينما عدنا من الوادي نفسه رأينا الماء قدجف ، والطريق أصلح تماما ، ولم نر ازعاجا كالسابق ـ

★

---

(30) LOARTYHADJI : La Syria Palestine et La Judée P. 130 Paris - 1854

أطلق موندیل على مستنقع الروج كلمة ـ البحيرة ـ حيث تغمر المياه معظم الاراضي وخاصة في فصل الشتاء · ولدى عودته وجد الماء جافا والطرق صالحة ، لجفاف بعض المناطق ، نتيجة التصريف الطبيعي في جوف الجبل الوسطاني ·

يقع سهل الروج بين جبلين الاول الى الغرب منه يدعى ـ الجبل الوسطاني ـ والى الشرق الجانب الغربي الشمالي لجبل الزاوية · تبلغ مساحته ۵۰۰۰ هكتار · فيه عدة ينابيع أهمها ينابيع عرى المسماة الشمالي والوسطاني والجنوبي · يعتبر من أغزر مناطق القطر الزراعية ، ويعد في مقدمة السهول في المحافظة عطاء ووفرة من حيث دخله الاقتصادي جفف هذا السهل في الستينات من هذا القرن ، بعد حفر نفق يخترق الجبل الوسطاني في موقع متوسط من الجهة الغربية من السهل يسمى ـ البالعة ـ حيث يخترق الجبل مشرفا على موقع ـ عين الزرقاء ـ في حوض نهر العاصي · طول النفق ٤٣٠٠ م · وتم انجازه في نهاية عام ١٩٥٥ ·

وأتذكر في طفولتي ، جلب الخنازير الى ادلب من مستنقعات الروج وكذلك سمك ـ الانكليس ـ بالاضافة الى الطيور الكثيرة المنتشرة ·

كما كانت البعوض والذباب والحشرات الضارة تنتشر في المنطقة نتيجة مستنقع الروج ، ويصل تأثيرها الى ادلب بالذات · وصناعة الحصر المنتشرة في ادلب سابقا ـ يجلب القش الخاص بها من هناك فالأسل والحلفا والبردى والقصب ، يصنع منهم أهالي ادلب الحصر والمكانس ، ويحشون برادع الحمير والبغال ·

ومن الاسماء التي أطلقت على السهل سابقا ـ غاب عرى ـ حيث كان منسوب المياه يرتفع الى ثلاثة أمتار ونصف في ايام الفيض والى مترين في أيام الجدب ·

أما مياه شرب ادلب فكانت تجلب من مياه ـ مرتين ـ ، الى أن جرت اليها مياه ـ نبع عرى ـ من سهل الروج ·

هذا السهل يشبه في بعض الوجوه ـ سهل البقاع ـ في لبنان والذي زاره أيضا ـ الكيالي ـ ١٨١٥ فقال ـ وفي ذلك السهل سرنا ورأينا أراضي البقاع شبيهة عندنا بالروج ، وزائدة عليه بماء العيون والانهر الجارية في تلك المروج ···ـ

★ ★

وفي نهاية المطاف ، في رحلتنا داخل منطقة ادلب ، لن نغفل ناحية هامة يمر فيها رحالتنا ، ألا وهي بلدة سراقب التي تقع الى الشرق الجنوبي من ادلب بـ ١٩ كم وعن حلب ٥٨ كم ولاذقية ١٤٦ كم وحماه ٨٨ كم وحمص ١٣٥ كم ودمشق ٢٩٧ كم عدد سكانها ١٤٥٦٩ نسمة ·

اتوقع لهذه البلدة النمو السريع ، لما يتمتع به أهلها من نشاط وحركة اقتصادية ، وتعاون اجتماعي ، وانتشار الثقافة المتنامية فيها ، اضافة الى موقعها الذي جعل منها محطة عقدة مواصلات بين عدة مفارق ـ حلب لاذقية · دمشق ـ ادلب · دمشق ـ حمص حماه ـ سراقب ـ حلب · تركية ـ سراقب ـ السعودية · ـ

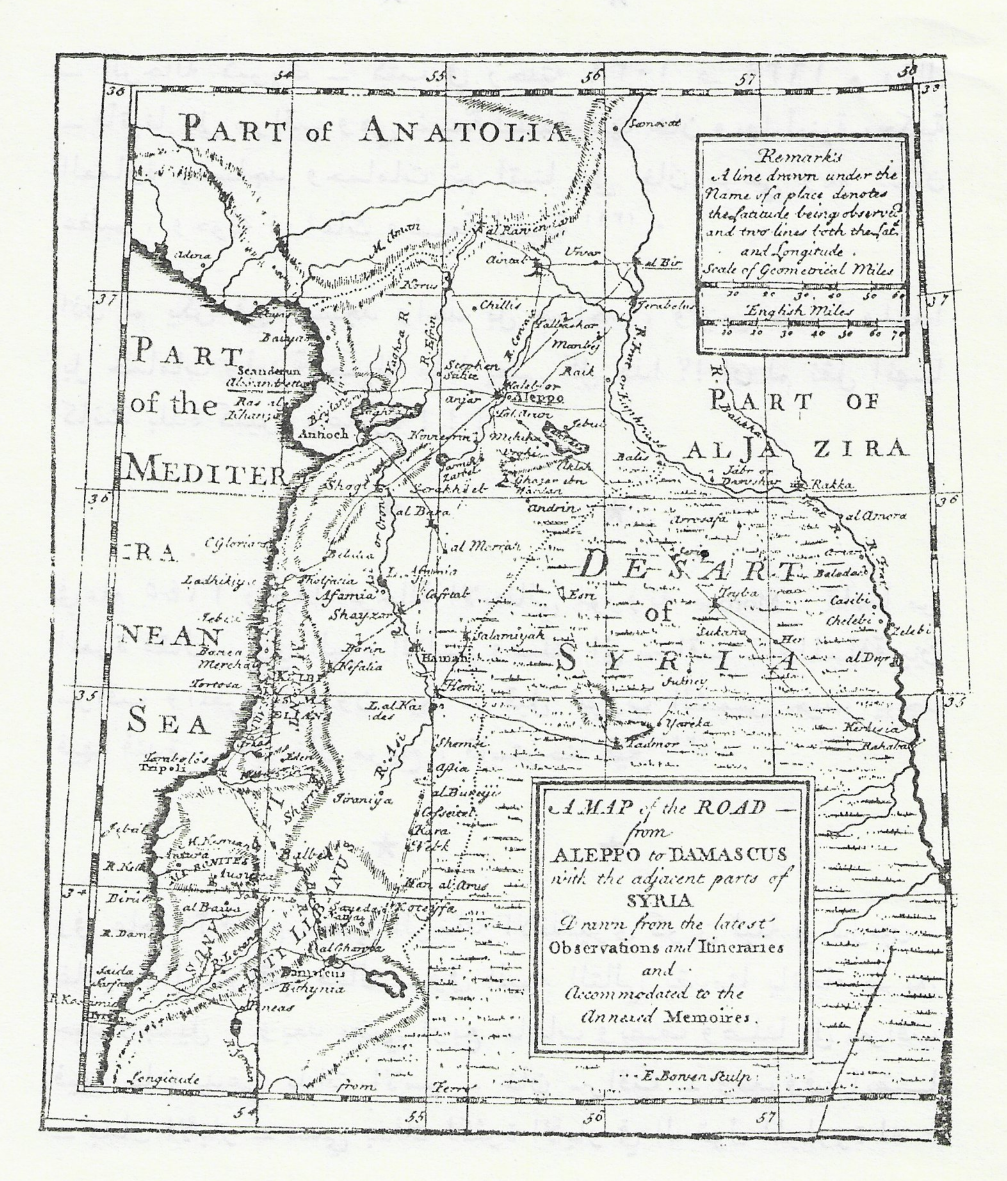
كانت قرية تتبع ـ ناحية سرمين ـ التابعة لقضاء ادلب في مطلع هذا القرن ، ثم أصبحت مركز ناحية بموجب المرسوم المرقم بـ ٩٣٢ والمؤرخ في ٢٥ شباط ١٩٣٣ بديلا عن ناحية سرمين ·

كانت سراقب محط الآمل بالراحة والامان ، بعد عناء السفر وطول الامل بايجاد المكان المناسب والمريح للقوافل · كانت الخانات المجاورة لها تبع لادارة ـ سراقب نظرا لما تمتعت به من مركز متميز عن غيرها من الخانات ·

أقدم نص ووثيقة وقعت في ايدينا تذكر اسم ـ سراقب ـ بـ ـ منزلة سراقب ـ التي توفي فيها برسباي الناصري سنة ٨٥٢هـ ١٤٤٨ م ، وهو مستضعف فغسل فيها وكفن واحضر الى دمشق . وبرسباي هذا كان نائب طرابلس ثم عين نائبا لحلب ـ أي حاكم لحلب ـ . فلما توجه الى دمشق بعد ان طلب الاقالة من نيابة حلب ، ليقيم بدمشق توفي في سراقب . والمنزلة كلمة تطلق على الخان ايضا . اذن فهو توفي في خان سراقب .

وفي سنة ٩٠٤ هـ ١٤٩٨ م نزل بها دولتباي نائب حلب ، حيث كانت محطا لاستراحة أمراء حلب وتوابعها ، أو مكانا لتزويد قواتهم العسكرية بالمؤونة والمياه ، فكثرة الآبار فيها جعلتها رغبة طالبي السفر . ولن نطيل الشرح ، فليس مجال كتابنا هذا عرض تاريخ كل بلدة أو قرية تفصيلا ، فلذلك كتب أخرى . مايهمنا قوله ... تسود في اواسط بعض المثقفين ومعظم العامة ان سراقب قرية حديثة ـ والتي هي الآن قرية عامرة ـ نظرا لعمرانها الحديث . لكننا نؤكد بأنها أقدم مما ذكره بعضهم ، بانها تعود لمئتي عام على الاكثر ، فالنصوص السابقة واللاحقة تؤكد بلا شك صحة رأينا الذي يغاير أقوال الناس التي لاتستند الى أية قاعدة تاريخية موثقة . فوجود خان كبير فيها ، وموقعها الهام على طريق المواصلات التجارية ، وبيوتها المحكمة العمار ، والمساجد والحمامات ـ وليس حماما واحدا كغيرها من البلدان ـ كل هذا يؤكد على تقدم هذه البلدة .

والآن لنرافق رحالتنا ، ونواكب ترحالهم من مكان لآخر ، فمتعة الرحلة لاتعادلها متعة الا لمن عرفها ، وهيا بنا نزور سراقب والنواحي المجاورة لها .



خريطة الرحالة « كرين » عام ١٧٢٥ للطرق ذاكرا فيها : قنسرين سرمين ـ سراقب ـ البارا ـ المعرة ـ كفرطاب شغل (جسر الشغر) الأرن (نهر العاصي)

★ ★

ـ الرحالة كبريت ـ كتب في رحلته ١٠٣٩ هـ ١٦٢٩ م وقال ـ فأتينا على سراقب وهي ضيعة لطيفة فيها خان وبها أبنية محكمة العمارة ومساجد وحمامات ثم أتينا على خان مرعي وهو بنيان عظيم ، وحوله زراعات وضيعة لطيفة (٣١) .

اذن لم يكن فيها مسجد واحد بل مساجد ، وليس حماما واحدا بل حمامات وأبنية جميلة ماذا يعني كل هذا ؟! ان لم نقل انهـا كانت بلدة كبيرة وعامرة ! ! !

★ ★

في عام ١٦٤٥ زارها الرحالة الايطالي مورونه Morone قادما من المعرة فقال ـ وفي اليوم التاسع وصلنا الى سراقب ـ والمسافة بين سراقب والمعرة عشرون ميلا ـ قبل غروب الشمس حيث يوجد فيها فندق ـ أي خان مريح ، فاسترحنا فيه (٣٢)

★ ★

وفي عام ١٧٢٥ م امضى الرحالة الانلكيزي كرين ليلة في سرمين ، غادرها الى سراقب فقال ـ وفي اليوم التالي تقدمنا باتجاه طريق جيد وجميل . وبعد مضي أربع ساعات ونصف وصلنا الى سراقب فيها خان يدعى بذات الاسم ـ خان سراقب ـ ومعروف ايضـا ـ بخان الآبار ـ سمي بذلك لكثرة الآبار في الحقول المجاورة له .

---

(٣١) كبريت : رحلة الشتاء والصيف ص ٢٠٣ .

(32) MORONÉ : La Terra Santa - P 397 ITALIA - 1696

وبعد مسير أربع ساعات مررنا بـ خان حربه Herbe وبقربه قرية وفي غضون ساعة أخرى وصلنا الى خان آخر وقرية أخرى تدعى مرعى Marie وكلاهما يحملان اسم سراقب ، وذلك بالاضافة الى القرية الاخرى والاولى المسماة سراقب ، التي لها صفة خاصة مميزة عن غيرها من القرى • ولدى مغادرتنا خان مرعى ، وجدنا علائم قليلة في جانب يمين الطريق ، خمسة أضرحة كبيرة ، دفن في احداها ـ باشا ـ وبعدئذ وصلنا الى المعرة ••• ـ

من النصوص السابقة ، نستنتج بأن قرية وخان سراقب ، كان لهما صفة متميزة في المنطقة • خانها أفضل الخانات المجاورة ، ويعود تاريخه الى العهد المملوكي • أزيل الخان في الثلاثينات حيث كان يقع غرب ـ شمال القرية ومكانه الآن مديرية الناحية •



كما مر البستاني بسراقب عام ١٩٤٧ فقال واصفا مشاهداته فيها ـ وهذه سراقب يزدحم الناس فيها على البئر في ضاحية القرية ، فنشهد اسلوبا للاستسقاء لانعرفه ، ويفيدنا في بعض الصور التشبيهية في الشعر الجاهلي • يركب أحد الولدان حمارا أو بغلا يشد في جلاله حبل الدلو ، ثم يسوقه مبتعدا عن البئر ، فتصعد الدلو حتى الحافة فيتناولها أحد المستبقين ويفرغها في دسوت النساء المزدحمات على الدرج • ويعود الحمار نحو البئر ، فتنحدر الدلو على مهل • فيكون ان حبل الدلو ، بدل ان يصعد عموديا فيلتف حول البكرة ، على نحو المعروف عندنا ، يمتد أفقيا عالقا بسرج الدابة • وهكذا نفهم الصورة في تشبيه عنترة للرماح بحبال البئر :

يدعــون عنتر ، والرمــاح كأنهــا

اشطــان بئــر في لبــان الادهــم

★

لدى حديثنا عن سراقب ذكر الرحالة وجود خانين يقعان في منطقة سراقب الاول خان حربه والثاني خان مرعى . والاول نرجح انه خان تل السلطان الذي وصلوا اليه بعد مغادرتهم حلب بأربع ساعات - راجع نص كرين - ثم وصلوا الى خان سراقب بأربع ساعات ونصف أي الفارق الزمني نصف ساعة وهي مسافة كافية مابين تل السلطان وسراقب . وسمي بهذا الاسم الآخر - خان حربه - لكثرة وقــوع المعــارك حــوله ، وأهميتــه العسكرية والتجارية . ذكره ياقوت الحموي بقوله - تل السلطان : موضع بينه وبين حلب مرحلة نحو دمشق ، وفيه خان ومنزل للقوافـل وهو المعروف بالفنيدق ، كانت به وقعة بين صلاح الدين يوسف ابن أيوب وسيف الدين غازي بن مودود بن زنكي صاحب الموصل سنة ٥٧١ في عاشر شوال - اذن بالامكان القــول ان هــذا الخــان يعود الى العهد الايوبي وسابق في قدمه خان سراقب وخان المعرة وغيرهما من خانات المنطقة المنتشرة فيها مثل هذه الخانات كما ذكر بقية الرحالة .

يقع هذا الخان وبالاحرى تل سلطان وسط الطريق بين سراقب وأبو الظهور ، يبعد عن ناحية ابي الظهــور ٧ كم وعن سراقب ١٨ كم وعن ادلب ٤٣ كم عدد سكان تل السلطان ٧٠٩ نسمة . كقرية تابعة لناحية - أبو الظهور - جرت فيه معركة عام ٤٥٢ هـ بين ناصر الدولة بن حمدان الذي أرسله الفاطميون لاستخلاص حلب من يد - محمود بن نصر بن مرداس - من بني كلاب فكانت الدائرة على ناصر الدولة . وقد سمي بتل السلطان بعد أن كان اسمه الفنيدق اثر زيارة السلطان ملك شاه السلجوقي له حيث

نزل فيه سنة ٤٧٩ هـ • ويقال كذلك بانه سمي بتل السلطان اثر الـوقعة التي جرت بقربه عام ٤٨٦ هـ بـين أقسنقر وبين تاج الدولة تتش السلجوقي الذي قدم من دمشق لفتح حلب وكانت الدائرة على أقسنقر ، أسر فيها وقتل ، فعرف التل بتل السلطان من ذلك اليوم نسبة الى السلطان ملك شاه تاج الـدولة تتش السلجوقي •

وذكر أبو الفداء ان ملتقاهم كان عند نهر سبعين ، قريبا من تل السلطان على ستة فراسخ من حلب • وهكذا بامكاننا القول ان هذا الخان كان يدعى بعدة اسماء حسب متغيرات الـواقع السياسي والوقوعات الدائرة حوله اولى اسمائه الفنيدق ثم السلطان وأخيرا في العهد العثماني خان حربه • أما نهر سبعين فكان ينبع من عين قريبة من تل السلطان تدعى ـ عين الفردوس ـ ويصب هذا النهر في سهل المطخ والذي يصب فيه كذلك نهر قويق • ونعود لنؤكد القول بأن هذه المنطقة كانت غنية بالمياه والتجمعات السكانية الكثيفة والعمران الحضاري المتقـدم من دارات الى كنائس الى أحداث تاريخية هامة ليس مجال عرضها الآن وبالنظر لوجـود المياه ، فالقوافل التجارية تحط رحالها في هذه المنطقة ذات الآبار الكثيرة والخانات المتعددة كما أكد رحالتنا ك ابن جبير وكرين وراوولف وغيرهم •



لنرافق الآن رحالة مر بهذه المنطقة عـام ٨٧٥ هـ وهو الامير ـ يَشبَك الدوادار ـ حيث يقول كاتب رحلته ـ وفي سابع ذي الحجة رحل من حماه ونزل •• ـ فراغ ـ وضحى بها ثم رحل منها وقت العصر ، ونزل في الثلث الاول من الليل بالقرب من أعجاز ،

وضحى بها ثم رحل منها قبل الظهـر ونزل على عين الفردوس بالقرب من تل السلطان وبات بها · ووصل الامير محمـد بن أسلماش وبعض أمراء التركمان ثم صلى الصبح يوم الاربعاء نهار عرفة ، ورحل فلاقاه قاضي القضاة وحاجب الحجاب ، وبقية الامراء بالمملكة الحلبية بين تل السلطان وقنسرين (٣٣) مكـان الفراغ نرجح أنها معرة النعمان · أما اعجاز فهي تسمى الآن ـ أجاز ـ وهي مزرعة تابعة لناحية سراقب بحوالي ٥ كم شمالا · عدد سكانها ١٧٤ نسمة وتكتب ايضا ـ آجز ـ اما الامير يشبك الدوادار فقد أرسله سلطان مصر للقضاء على أعدائه في الشمال السوري وخاصة شاه سوار وحسن الطويل · وقد فوضه السلطان أمور البلاد الشامية والحلبية وغيرها · وانتصر الامير يشبك وخمدت الفتن · ثم جاء بعد سنتين لذات الامر ، ولكنه أخفق في الحملة الثالثة عام ٨٨٥ هـ · وفي حلب أقام مدرسة سميت باسمه ـ مكتب يشبك الدوادار ـ وتعني كلمة الدوادار : حامل الدواة· وراح ـ [illegible] ـ [illegible] الى هذا الامير ·

★

ننتقل الآن الى الجنوب قليلا باتجاه المعرة الى خان السبل قرية عدد سكانها ٢٥٤١ نسمة تابعة لناحية سراقب تبعد عنها بـ ١٣كم وعن ادلب ٣٣ كم · تقع على الطريق العام المعبد · فيها خان أمر ببنائه ـ أبو سعيد منجك ـ عام ١٣٧١ م بينما ذكر الدكتور عبد القادر ريحاوي بأنه بنى في عام ٧٣٣ هـ ١٣٧٢ م كما تشير الكتابة المنقوشة على الباب · بوابته حصينة متقنة البناء ويعلوها قوس من النوع الذي وصفناه بالمفصص على هيئة كعوب الكتب الشائع في العهد المملوكي · وفوق الباب توجد آثار وشن دفاعي ·

---

(٣٣) دهمان ـ محمد أحمد : العراك بين المماليك والعثمانيين الاتراك مع رحلة الامير يشبك الدوادار مخطوط قيد الطبع ·



خان السبل : العهد المملوكي

بينما أحمد وصفي زكريا الذي زار المنطقة في الثلاثينات قال ـ قرية خان السبل ، وفيها خان كبير من الخانات القديمة المحصنة ، التي مدحها ـ ابن جبير ـ ـ الاندلسي ، في أعلاه كتابة فيها اسم الملك الاشرف شعبان في سنة ٧٧٠ هـ ـ ١٣٦٨ م وعلى يسار قنطرة بابه شبه كأس من الحجر ، وهو من شعار السلاطين المماليك ، والقنطرة مؤلفة من أعمدة حلزونية صغيرة ، كثيرة العدد ملتصقة ببعضها ،على شكل قوس جميل ٠ وفي هذا الخان بابان صغيران ، الاول على يسار الباب الاصلي ، والثاني في داخل البناء الواسع المرتفع وراء الخان ، وكلاهما بنيا على النسق البيزنطي الجميل ، مما يدل على أنهما غريبان ، نقلا الى هنا من مكان آخر ٠

أما السيد كامل شحادة فله رأي آخر مغاير لما سبق كتب الينا يقول بعد سؤالنا عن هذا التضارب وكذلك عن ـ خان مرعي ـ الذي ذكره الرحالة كبريت ثم كرين ـ راجع ماسبق ـ بانه بنيان عظيم ، وحوله زراعات ، وضيعة لطيفة ٠ وبقربه قرية فأفادنا مشكورا بما يلي ـ ان الخان هنا هو الخان القائم بوسط قرية السبل وهو من بناء مراد أفندي الدفتري في أواخر القرن العاشر الهجري ـ والنصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي وحتى أنه أوقف لصالح خان مراد باشا في المعرة ـ متحف المعرة حاليا ـ وشيد لايواء القوافل التجارية على الطريق القديمة بين حلب وحماه ، بالقرب من القرية التي كانت عامرة على مسافة منه للجنوب الشرقي نحو ١٢٠٠ م ٠ وتسمى القرية السبل او خربة السبل بمعنى الطرق المارة بها ٠ وتحتوي القرية على أوابد أثرية أبرزها مسجد كبير ٩,٢٥ م × ٨,١٠ ساكفة مدخله قديم مستخدم ثانية اذ يحمل شارة الصليب وزخارف بديعة ، ويحمل سقفه أقواس وله قبة وعصره أيوبي ، وثمة أطلال بيوت ومدافن

مختلفة العصور . وبطرف الخربة من الجنوب ينتصب تل أثري يرجع الى الالف الثاني قبل الميلاد ، ويحتوي سطحه على قبور اسلامية مملوكية العصر ، أبرزها قبر ذو كتابات تؤرخه وتذكر صاحبه . ـ ولعله القبر الذي شاهده كرين مع خمسة أضرحة وقال انه قبر باشا مما يؤكد تطابق وجهات نظرنا مع السيد شحاده بأن خان مرعي هو بالذات خان السبل (فايز) ـ .

ولم تكن مساكن من حول الخان أثناء تشييده ، وانما شيدت بعد ابتغاء الانس والرزق من المسافرين ، والخان جميل جدا ، ذو مدخل جميل تعلوه قنطرة كقوس مخففة ومزخرفة وعلى الساكف كتابة بالعربية من أربعة أسطر تؤرخه وتذكر بانيه الآنف الذكر اما نسبته الى ـ مرعى ـ فذاك القيم عليه في حينه .

ولم تكن ثمة محطة للقوافل بين خان السبل و المعرة ، اذ ان المسافة محدودة لاتحتاج الى محطة أ . هـ

وفي رسالة ثانية نوجهها الى السيد شحادة مؤكدين ان بناء الخان يعود الى ماقبل مراد جلبي بموجب النصوص التي عرضناها آنفا . أجابنا مرة ثانية فقال :

الاخ الكريم فايز قوصرة المحترم :

تحية وسلاما وبعد : ارجو أن يصلك جوابي الثاني هذا وأنتم تتمتعون بوفرة صحية وتمام عافية . بالنسبة الى خان السبل فاني أعود مؤكدا من جملة العقارات التي كانت بحوزة مراد أفندي الدفتري باني التكية المرادية بمعرة النعمان التي تحول الآن الى متحف . وقد اوقفه المذكور على التكية لينضم ريعه الى ريع العقارات الكثيرة التي أوقفها على التكية وعددها قد كان نحو

٢٠ زورا وبستانا • و٣٥ ناعورة لسقايتهـا و٢٢ طاحونا •

وخان السبل هو موضوع بحثنا •

ولدى" نص مخطوط من سجلات محكمة حماه الشرعية ١٨/١٠١٠هـ مضمونه ـ ابراز بذلك من قبل محمد جلبي بن فرهاد متولي خان السبل الذي هو وقف مراد أفندي على التكية ، وكان الناظر عليها • بهذا التاريخ ـ حسن بن عبدالله جلبي ، وكاتب الوقف على عبد العزيز جلبي ـ ثم ان تاريخ بناء الخان المذكور يطابق بناء خان مراد جلبي بالمعرة وهذا كل تحصيلي ، وقد يلتبس الامر على بعضهم فيكتب حسب السماع ـ ولحسم الامر بيننا نعقب بما يـلي :

أولا : الخـان يعـود بناؤه الى ماقبل مراد جلبي اذ أمر ببنائه أبو سعيد منجك عام ١٣٧١ • وكذلك ذكر هذا التاريخ الدكتور ريحاوي •

ثانيا : رواية أحمد وصفي زكريا لاندري من أين أتى بها بقوله كتابة تؤرخه الخ •••؟؟؟ !!!

ثالثا : ماذكره السيد شحادة بوجود كتابة تذكر بانيه ـ مراد جلبي ـ فهذا صحيح •

رابعا : هناك فارق زمني حوالي ثلاثـة قرون بين الباني الاول والثاني • وهي فترة تحتاج لاعادة بناء الخان مرة ثانية أو ترميمه وهذا مانرجح وقوعه • اذ أعـاد مراد جلبي بناءه ثانية وكتب اسمه على ساكفة مدخله ، لكن ليس بامكاننا القول انه خان يعود الى العهد العثماني بل يعود الى العهد المملوكي •

★ ★

فيعام ١٧٣٨ مر بها المستشرق الانكليزي بوكوك قادما من جبل

الاربعين فقال ـ وفي الثامن والعشرين غادرنا الى شمال شرق • وفي ساعتين الى الخان Elkane أتينا في الطريق المرتفع من معرة الى حلب ، حيث يوجد خان قديم جيد ، انه في منتصف الطريق مابين معرة وسرمين ـ ويقصد بالخان بلا شك خان السبل فهو الوحيد في منتصف الطريق •

★

زار الاب لويس شيخو خان السبل عام ١٨٩٥ فكتب يقول ـ وكان سفرنا من المعرة اليوم التالي قبل الفجر بثلاث ساعات في وجهة الشمال الشرقي فمررنا عند السحر في خان سبل او سنبل(؟) وهي قرية عامرة تدل آثارها على أنها كانت قبلا ذات شأن •

ومن الامور المضحكة ماعرض لنا في هذه القرية في رحلة سابقة • فاننا نزلنا فيها للمبيت في لحف النهار فخرجنا لظاهر القرية لترويح النفس من مشقة السفر وكان في يدنا كتاب الصلاة لنتلوه في عزلة من القوم واذا بعابر طريق رآنا عن بعد فظن أن المكان مرصود وأننا نفك الرصد لاستخراج كنز دفين ، فتقرب منا وسألنا عما نفعل فأجبناه أننا نتلو صلاتنا الى الله فلم يقنع وأخذ يلح علينا بأن نعطيه قسما من الكنز • فلما شعرنا بسوء نيته رجعنا الى منزلنا وهو يتعقبنا ولولا بعض أهل القرية الذين رأوا جهله فأمسكوه لأصابنا أذاه • فانتهزت الفرصة لاعرض على هؤلاء الجهال ذكر الآخرة التي هي الكنز الوحيد الذي يحقّ للانسان أن يطلبه بخدمة ربه • وخان سبل هي نصف الطريق بين حماه وحلب • ومنها الى الشهباء دربان قديم وحديث فالقديمة لايصلح للعجلات ويمرّ على سرمين وقنسرين غربا ••• أما الدرب الحديث فيقطع السهول توأ شرقي سرمين وقنسرين •

فلقينا بعد خان سبل بعض القرى وكان أهلها يذرون الغلات في بيادرهم . فواصلنا السير الى الشيخ أحمد قرية أخرى أقمنا في خانها أربع ساعات ولم نجد فيها مايستحق الذكر.

ـ والآن الشيخ أحمد تابعة لمحافظة حلب تقع على شمال الطريق المتجه الى حلب ـ وذلك بعد أن مررنا على سراقب ثم على زربة . وفي كل هذه الانحاء أخربة قديمة يرتقي بعضها الى عهد الرومان ويرى عليها صلبان وآثار مسيحية . وكان على شمالنا جبل الاربعين ثم جبل ريحا وكان كلاهما قديما حافلا بالسكان . أما عن يميننا فكانت تلوح لنا جبال العيس وفيها على ماقيل لنا نحو ٢٠٠ ضيعة وهي كلها من الاراضي السلطانية . وعندها ستمر السكة الحديدية قريبا ... ـ

★ ★

وفي منتصف هذا القرن وحوالي سنة ١٩٤٧ يزور المحافظة البستاني بعد أن زار ادلب وغيرها من الاماكن كتب يحدثنا عن انطباعاته فقال ـ وهذه تفتناز ، تتشعب منها عدة مجازات الى المزارع البعيدة . وهذه سراقب ... وبعد أن نمر أمام جوبر ومعرة دبسة وهي احدى المعرات او المعارات ، الكثيرة في تلك المنطقة ـ نقطع خان السبل ، وبابيلا فتطل علينا اطلال دانا ، ولاوقت لدينا لزيارتها وتفقدها ... ـ

★ ★

وأخيرا وليس آخرا ..حان وقت رحيلنا من منطقة ادلب الى منطقة مجاورة ، ألا وهي منطقة معرة النعمان التي تدعونا لزيارتها ، فهي لاتقل غنى بأوابدها الحضارية وتاريخها الحافل عن منطقة ادلب . فهيا بنا نلبي دعوتها المضيافة فهي تستحق منا الكثير .

★ ★

الفصل الثاني

منطقة معرة النعمان

تقع منطقة ـ معرة النعمان ـ جنوب المحافظة . اذ تحدها شمالا منطقتا ادلب وريحا ، وشرقا محافظتا حلب وحماه ، وجنوبا ـ غربا محافظة حماه .

وهي تتشكل من النواحي التالية :

١ ـ ناحية قرى مركز معرة النعمان

٢ ـ ناحية خان شيخون

٣ ـ ناحية سنجار

٤ ـ ناحية كفر نبل

تبلغ مساحتها ٢٣٢٠ كم٢ وعدد سكانها ١٤٨٢٣٧ نسمة ولعل الحديث عن هذه المنطقة يطول ونحن في عجالة من أمرنا ، اذ رحالتنا لايطيقون صبرا بالبقاء طويلا في مكان دون آخر ،

★ هذا البحث مهدى الى السيد ـ محمد كامل شحادة ـ ذكرى اهتمامه الزائد بآثار المنطقة ، وجهوده المضنية في حمايتها وصيانتها ، واشرافه الكامل على ترميم وصيانة ـ خان مراد باشا ـ وتحويله الى ـ متحف المعرة ـ . كما منح وسام الاستحقاق السوري من السيد رئيس الجمهورية ـ حافظ الاسد ـ بموجب المرسوم رقم ٨٦ تاريخ ١٠ / ٢ / ١٩٨٥

فكل بقعة في المحافظة يتشوق المرء لرؤيتها وسماع الحديث عنها ٠

ونظرا لغنى كل منطقة بالاحداث والاوابد ، فان الحديث عنها قد يستغرق مجلدات ، ونحن لانقدم تاريخا كاملا لكل منطقة في كتابنا هذا ، بقدر مانقدم اطلالة تاريخية عليها ٠ فلنبدأ بمدينة ــ المعرة ــ٠

سميت ــ معرة ــ بـ ــ معرة النعمان ــ نسبة الى الصحابي الجليل ــ النعمان بن بشير الانصاري الذي كان واليا في حمص ، واجتاز المعرة ، فمات له ولد فيها فدفنه ، وأقام أياما حزينا عليه ، فسميت باسمه ٠ وقيل : انه تدبرها فنسبت اليه ، ولها عدة اسماء أخرى عند المؤرخين والرحالة ك ذات القصور ، وذات القصرين والعواصم ومعرة حمص ومعرة حلب لكنها في أصلها ذات اسم سرياني ــ مَعَرتا ــ وتعني ــ المغارة ــ وهي بلدة قديمة ، سميت في العصر اليوناني والروماني أرّا أو عره Arra ٠ أما في الحروب الصليبية ، أطلق الصليبيون عليها اسم ــ مارّ Marre ٠ هذه هي تفصيلات اسمها موجزة والرحالة في نصوصهم سوف يقدمون المزيد ٠

مما سبق يتبين بانها بلدة قديمة في تاريخها ، فقد قامت على أطلال مدينة ــ آرّا ــ القديمة التي كانت تقع على طريق قنسرين خالقيس ــ أو شالسيس ــ حماه نظرا لموقعها الهام على مفترق الطرق بين المدن الحضارية القديمة بيروا ــ حلب ــ ولاريسا ــ شيزر ــ و أبامي ــ أفاميا ــ وكفيرودبرتا ــ البارا ٠ هذا الموقع الممتاز جعل منها مسرحا لاحداث ومعارك تاريخية فاصلة ليس مجال عرضها الآن ، لكن في قراءتنا نصوص الرحالة نجد مايشفي غليلنا ٠ ومن خلالها نستشف تاريخها ، وهذا ما يهدف اليه هذا الكتاب أعني الرجوع الى المصادر الاولى في البحث ،

والتحقق في روايتها ، والتطابق بين تواتر الاحـداث ، وصدق الوصف أو عدمه ، والغوص في عمق الاحـداث ، في تقاربهـا وتباعدها ، في عنفها وبساطتها ٠

★ ★

أما مدينة ـ معرة ـ فعدد سكانها ٢٥٥٧٩ نسمة وتبعـد عن ادلب ٤٠ كـم وعن حلب ٨٣ كم وعن دمشق ٢٧٢ كم وحمـاه ٦٣ كم وحمص ١١٠ وريحا ٢٦ كم وعن بادية الشام ٨٠ كم واللاذقية ١٤١ كم من أهم آثارها جامعها الكبير والمدرسة الشافعية وقلعتها ، وخان مراد باشا وخان أسعد باشا العـظم ٠ وبعض الاطلال الدارسة بجوارها وسنتحدث عن كل منها في حينه ٠

فتحها المسلمون بقيادة ـ ابي عبيدة بن الجراح ـ سنة ١٧ هـ ٦٣٧ م الذي صالح أهلها على الجزية في رؤوسهم ، والخراج في أرضهم ، على مثل ماصالح به أهل حماه ٠

كانت تابعة لحلب في عهد الخلفاء الراشدين ، ثم تبعت حمص مضافة اليها زمن الخليفة معاوية بن أبي سفيان ، بعد أن تولاها النعمان بن بشير الانصاري ٠ وفي زمن الخليفة هارون الرشيد أضحت من العواصم ٠ تعرضت لحروب طاحنة ، وزلازل مدمرة ، وحرائق كثيرة ٠ كل هذا دمر بعض معالمها ، وهـدم سورها ، وخاصة في زمن الحروب الصليبية ، عندما اجتاحها الصليبيون عام ١٠٩٨ م وقتلوا الآلاف من سكانها ـ حوالي عشرين ألف وفي رواية أخرى مبالغ فيها حوالي مائة ألف ـ ٠ ثم استرجعها زنكي عام ١١٣٧ م ٠ كما احتلها سابقا البيزنطيون عام ٩٦٨ م ٠ أما في عام ٦٥٨ هـ ١٢٦٠ م اجتاحها التتار فخربوا قلعتها ودكوا

أسوارها ، وقتلوا أهلها ، وتتالت غاراتهم عليها ، حتى تحولت الى قرية تحاول استعادة قوتها عبر الزمن ، كما ذكر الرحالة بعدئذ .

ذكرها ياقوت الحموي المتوفى ٦٢٦ هـ ١٢٢٩ م بقوله ـ معرة النعمان : ذُكر اشتقاق المعرة في الذي قبله ، والنعمان هو النعمان بن بشير صحابي ، اجتاز بها فمات له بها ولد فدفنه وأقام عليه فسميت به ، وفي جانب سورها من قبل البلد قبر يوشع بن نون عليه السلام ، في بريّة فيما قيل ، والصحيح أن يوشع بأرض نابلس ، وبالمعرة أيضا قبر عبدالله بن عمار بن ياسر الصحابي ذكر ذلك البلاذري في كتاب فتوح البلدان له ، وهذا في رأي سبب ضعيف لاتسمى بمثله مدينة ، والذي أظنه أنها مسماة بالنعمان وهو الملقب بالساطع بن عدي بن غطفان بن عمر بن بَريح بن خزيمة بن تيم الله وهو تنوخ بن أسد وبرة بن تغلب بن حُلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة :

ـ وهي مدينة كبيرة قديمة مشهورة من أعمال حمص بين حلب وحماه ، ماؤهم من الآبار وعندهم الزيتون الكثير والتين ومنها كان أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المعري القائل :

فيابرقُ ليس الكرخ داري وإنَّما

رماني اليها الدهرُ منذُ ليالي

فهل فيكَ من ماءِ المعرةِ قطرةٌ

تُغيث بها ظمآن ليس بسالِ ؟

ومن المعرّيين أيضا أبو القاسم الحسن بن عبد الله بن محمد عمرو ابن سعيد بن محمد بن داود بن المطهر بن زياد بن ربيعة بن الحارث

بن ربيعة بن أنور بن أرقم بن أسحم بن الساطع وهو النعمان ، وباقي النسب قد تقدم ، التّنوخي المعري الحنفي العاجي ، ولد لثمان وعشرين ليلة خلت من شهر ربيع الاول سنة ٣٤٩ ، وحدّث وروي عنه ، وحج في سنة ٤١٩ على طريق دمشق ، فمات بوادي مرّ لعشرين ليلة خلت من ذي العقدة من السنة ٠ وُحمل الى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ودفن بالبقيع ، وله مصنفات ووصايا واشعار ، فمن شعره قوله :

انعَ الى مَن لم يمُتْ نفسَه
فانه عما قليلٍ يموت
ولاتقل مات فلان ، فما
في سائر العالم مَنْ لايفوت
ألا ترى الاجداث مملوّة
لمّا خلتْ من ساكنيها البيوتْ
فاقنعْ بقوتٍ ، حسبُ من لم يكنْ
مخلداً في هذه الدار قوتْ
ولا يكن نطقك الا بما
يعنيك في الذّكرة أو في السكوتْ

وقال أيضا :

وكلٌ أداويه على حَسب دائه
سوى حاسدي فهي التي لاأنالُها
وكيف يُداوي المرءُ حاسد نعمة
اذا كان لا يُرضيه الا زوالُها ؟

كما ذكرها ـ أبو الفداء ـ المتوفى ٧٣٢ هـ ١٣٣١ م بقوله ـ المعرة : من الاقليم الرابع من أعمال حلب (بينما ذكر ياقوت بانها من أعمال حمص) من اللباب بفتح الميم والعين المهملة ثم راء مهملة مشددة وفي الآخر هاء · قال في اللباب ومعرة النعمان مدينة من الشام · وقال السمعاني في الاصل اعني كتاب الانساب والنسبة الى المعرة معرنمي قال لان ثم معرتين معرة النعمان ومعرة نسرين فالنسبة الى الاولى معرنمي والى الثانية معرنسي · غير أن أكثر أهل العلم لايعرف ذلك · أقول اني رأيت هذا النقل في الانساب ولم أجده في اللباب قال في العزيزي ومعرة النعمان مدينة جليلة عامرة كثيرة الفواكه والثمار والخصب وشرب أهلها من الآبار ـ ·

★ ★

لنتابع الآن جولتنا مع رحالتنا ناصر خسرو الذي زار المعرة بعد سرمين سنة ١٠٤٧ م ٤٣٨ هـ · كتب يصف رحلته ـ وبعد مسيرة ستة فراسخ أخرى بلغنا معرة النعمان وهي مدينة عامرة ولها سور مبني وقد رأيت على بابها عمودا من الحجر عليه كتابة غير عربية فسألت ماهذا ؟ فقيل انه طلسم العقرب ، حتى لايكون في هذه المدينة عقرب ابدا ، ولايأتي اليها ، واذا أحضر من الخارج وأطلق بها فانه يهرب ولا يدخلها · وقد قست هذا العمود فكان ارتفاعه عشر أذرع ورأيت أسواق معرة النعمان وافرة العمران · وقد بني مسجد المدينة على مرتفع وسط المدينة بحيث يصعدون اليه من أي جانب يريدون وذلك على ثلاث عشرة درجة · وزراعة السكان كلها قمح وهو كثير ، وفيها شجر وفير من التين والزيتون والفستق واللوز والعنب · ومياه المدينة من الامطار والآبار وكان بهذه المدينة رجل أعمى اسمه أبو العلاء المعري وهو حاكمها ·

وكان واسع الثراء عنده كثير من العبيد ، وكان أهل البلد كلهم خدم له ، أما هو فقد تزهد فلبس الكليم ، واعتكف في البيت ، وكان قوته نصف منّ من خبز الشعير ، لايأكل غيره . وقد سمعت أن باب سرايه مفتوح دائما وان نوابه وملازميه يدبرون أمر المدينة ولايرجعون اليه الا في الامور الهامة ، وهو لايمنع نعمته أحدا ، يصوم الدهر ، ويقوم الليل ولايشغل نفسه مطلقا بأمر دنيوي . وقد سما المعري في الشعر والادب الى حد أن أفاضل الشام والمغرب والطرق يقرون بأنه لم يكن يدانيه في هذا العصر ولا يكون . وقد وضع كتابا سماه « الفصول والغايات » ذكر به كلمات مرموزة وأمثالا في لفظ فصيح عجيب ، بحيث لايقف الناس الا على قليل منه ، ولايفهمه الا من يقرأه عليه . وقد اتهموه ـ بانك وضعت هذا الكتاب معارضة للقرآن ـ ويجلس حوله دائما ، أكثر من مائتي رجل : يحضرون من الاطراف ، يقرءون عليه الادب والشعر . وسمعت ان له مائة الف بيت شعر . سأله رجل ـ لم تعط الناس ما أفاء الله تبارك وتعالى عليك من وافر النعم ولاتقوت نفسك ؟ـ فأجاب ـ اني لاأملك أكثر مما يقيم أودي ـ وكان هذا الرجل حيا وأنا هناك (1) .

★

يتضح من النص السابق أن ناصر خسرو زار المعرة سنة ٤٣٨ هـ ١٠٤٧ م قبل دخول الصليبيين اليها وقتل سكانها ، وتدمير معالمها وذلك سنة ١٠٩٨ أي قبلهم بنصف قرن ، حيث كانت مدينة عامرة ولها سور مبني . وروايته صحيحة لان أسد الدولة صالح بن مرداس صاحب حلب وزعيم بني كلاب في عام ٤١٨ هـ ١٠٢٧م

---

(1) خسرو ـ ناصر ـ سفرنامة ص ١١ .

كان قدخرج الى المعرة ليخمد حركة عصيان من أهلها سببها فيما نقل ابن العديم والقفطي والذهبي والصفدي ـ ان امرأة دخلت جامع المعرة صارخة ، تستعدي المصلين على صاحب الماخور الذي اراد اغتصابها • فنفر كل من في الجامع ، وهدموا الماخور ونهبوا مافيه • وكان أسد الدولة في نواحي صيدا بلبنان فأسرع الى هناك ـ وكان صاحب الماخور قريبا لوزير صالح ثادرس النصراني فاشتكى له ـ وعسكر بظاهر المعرة ، وشرع في قتالها بالمنجنيق ، واعتقل من أعيانها سبعين رجلا ، اقامة لهيبة السلطان • فلما رأى أهل المعرة ألا قبل لهم بذلك ، سعوا الى ابي العلاء يسألونه الخروج الى أسد الدولة في معسكره بظاهر المعرة ، والشفاعة لهم عنده • ومازالوا به حتى خرج متوكئا على يد قائد له ، وقيل لصالح : ان باب البلدة قد فتح وخرج منها رجل يقاد كأنه أعمى • فقال : هو أبو العلاء ، اوقفوا القتال • وأذن له وأكرمه وعرفه شوقه الى لقائه ، ثم سأله : ألك حاجة ؟ فلما ذكر له انه جاء شفيعا لقومه ، أجاب صالح : قد وهبتها لك ياأبا العلاء ـ يعني المعرة • ثم استنشده فانشد ارتجالا :

تغيبت في منزلي برهـــة
ستير العيوب فقيد الحسد

فلمـا مضى العمـر الا الأقل
وحم لروحي فراق الجسد

بعثت شفيعـاً الى صـالح
وذاك من القـوم رأي فسد

فيسمع مني سجع الحمام
وأسمع منه زئير الاسد

قال صالح : بل نحن الذين تسمع منا سجع الحمام ، وأنت الذي نسمع منه زئير الاسد • ثم أمر بخيامه فوضعت ، ورحل عن المعرة_ وشعره هذا في اللزوميات • ولد أبو العلاء في المعرة سنة ٣٦٣ هـ ٩٧٣ م وتوفي فيها ٤٤٩ هـ ١٠٥٧ م • ونسب اسمه اليها • انشيء حول ضريحه بناء جديد سمي بـ _ المركز الثقافي العربي _ • أهم مؤلفاته _ الفصول والغابات _ و _ اللزوميات _ و _ رسالة الغفران _ والحديث عنه يطول ، ونكتفي بما رواه الرحالة عنه • ولكن لنا بعض الملاحظات على نص _ ناصر خسرو _ بما يلي :

١ _ ذكر أن أبا العلاء كان حاكم المدينة • وهذا يخالف واقع حياته بماعرف عنه من الزهدوسمى نفسه _ رهين المحبسين _ وقد لبث في محبسه تسعا واربعين سنة ، لم يغادره الا مرة واحدة في الحادثة السابقة •

٢ _ ذكر انه _ كان واسع الثراء عنده كثير من العبيد ، وكان أهل البلد كله خدم له • أما هو فقد تزهد ، فلبس الكليم _ وهو لباس من الصوف يرتديه الصوفيون _ واعتكف في البيت وهكذا ••• _

ان الرحالة خسرو يناقض نفسه فكيف يكون واسع الثراء ثم زاهدا صوفيا • وكذلك لديه العبيد وأهل البلد في خدمته ، فهو بما عرف عنه لم يكن يرغب بدخول الناس الى _ محبسه _ لكنه رقّ قلبه لتوسل من وقف بباب داره يضرعون اليه بالدخول ، فصار منزله الذي اراده سجنا له ، دارا للعلم ، يقصدها الطلاب من أقطار المشرق والمغرب ، يقرأون عليه ويتعلمون منه ويأخذون عنه _ بل راسله الامراء والحكام يعرضون عليه المال والنعم

ويرفضها · وقد حاول الحاكم بأمر الله أن يحمله الى القاهرة ، مع من جلب اليها من علماء العصر ، لمابلغه من واسع علمه · وفي خبر نقله السيوطي في ــ بغية الوعاة ــ أن نصر بن صدقة القابس النحوي توجه الى المعرة فلازم أبا العلاء وأخذ عنه ديوان سقط الزند ، وكتب منه نسخة جديدة · فلما عاد الى مصر قدمه الى ــ الحاكم ــ فأعجبه نظمه وقرر أن يستدعيه من المعرة ــ وذكر ابن العديم في الانصاف أن الحاكم أمر وزيره ــ على بن جعفر بن فلاح ــ أن يكتب الى عزيز الدولة أبي شجاع فاتك ، والي حلب وأعمالها ، بحمل هذا العالم الى مصر ليبني بها دار علم يكون متقدما فيها ، على أن يسمح له بخراج معرة النعمان طول حياته · فلما تلقى عزيز الدولة كتاب الوزير نهض من فوره وسار الى معرة النعمان واجتمع بأبي العلاء وقرأ عليه الكتاب ، فاستمهله ريثما أملى الى الوزير الفلاحى رسالة مطولة ــ تجدها في مجموع رسائله ــ يستعفيه بها من كل ماعرض ، وينفي ماشتهر به من علم ، ويعتذر بعجزه وقصوره عن عدم اجابة الطلب ــ وهكذا ··

هذا وقد وصف رحالة آخر هو ــ أبو الفرج محمد بن أحمد ابن الحسن ــ الكاتب الوزير ، في وصف رحلته الى الحج من أذربيجان ، ومروره بالمعرة للقاء أبي العلاء : ــ وله معاش يكفيه ويمونه ، وأولاد أخ يخدمونه ويقرأون بين يديه ويدرسون عليه ويكتبون له ، ووراق برسمه مستأجر ، ثم ينفق على نفسه من دخل معاشه نفقه طفيفة ، وما يفضل عنه يفرقه على اللائذين به وفقراء القاصدين له من الغرباء ــ · ــ أما ايراده فيأتيه من وقف له مقداره بضعة وعشرون دينارا في السنة ، يدفعه نصفه أجرا لخادم ووراق ، ويقيم أوده بالنصف الباقي · فاذا ضاق هذا القدر الضئيل عن الوفاء بضرورات العيش ، تخلى عما يطيق الاستغناء عنه منها ، وأبى أن يلتمس زيادة في رزقه من أي سبيل ــ

ويذكرون ايضا في تاريخه ، أن المستنصر بالله الفاطمي صاحب مصر ـ ٤٢٧ هـ ـ بذل له مابيت المال في معرة النعمان ، فلم يقبل ـ منه شيئا ـ .

أما طعامه فكان البقل ، ولباسه خشن القطن ، وفراشه سجادته : من لباد في الشتاء ، وحصير البردى في الصيف ـ وبقي هكذا نحو نصف قرن .

أما طلسم العقرب الذي رآه على باب المعرة ، مكتوبا فوق عمود من الحجر بأحرف غير عربية فغايته ـ أن لايكون في هذه المدينة عقرب أبدا ، ولا يأتي اليها ، واذا أحضر من الخارج وأطلق بها فانه يهرب ولايدخلها . وقد قست هذا العمود فكان ارتفاعه عشر أذرع ـ اي انه يعادل ستة أمتار ، اذن فان ارتفاع سور المعرة يبلغ حوالي ستة أمتار بل أكثر . وهذا السور كان قد خربه ملك الروم نقفور فوكاس بعد أن عاث في مبانيها وأحرق جامعها سنة ٣٥٧ هـ ٩٦٨ م .

أما حكاية الطلسم هذه فقد كانت منتشرة في بقاع محافظة ادلب ، باتخاذ الوسائل المعينة للقضاء على العقارب وغيرها من الهوام والحشرات .

ففي قرية يحمول (٢) الواقعة في ناحية الجزر ـ لايوجد بأرضها عقرب أصلا .. وحكى جماعة من فلاحيها انهم يخرجون في بعض الاوقات يحتطبون بالجبل الاعلى فيأتون بالحطب الى يحمول فربما تعلق بالحطب من الجبل عقرب فمتى دخل بها أرض القرية ماتت .

---

(٢) يحمول : هي قرية يحمول الحالية سكانها ١٦٥٠ نسمة تابعة لناحية معرة مصرين بـ ٤كم وعن ادلب ١٣ كم . وسبق التعريف بها في الفصل الاول .

ومن العجب انه الى جانب هذه القرية قريتين يقال لاحداهما الكفر (٣) وللاخرى بيت راس وبين جداريهما مقدار سوط فرس وفي كل واحدة منهما من العقارب شيء كثير . ـ بينما ـ ابن الشحنة روى بأن بمعرة النعمان عمود فيه طلسم للبق . ذكر أهل المعرة ان الرجل كان يخرج يده وهو على سور المعرة الى خارج السور فيسقط عليها البق فاذا اعادها زال عنه ـ .

---

(٣) الكفر : قرية تابعة لناحية معرة مصرين وهي ذاتها الآن تدعى كفر يحمول بيت راس : تقع الآن بالقرب من قرية كفر يحمول الحالية عرفها ياقوت الحموي بقوله ـ بيت راس : اسم لقريتين في كل واحدة منهما كروم كثيرة ، ينسب اليها الخمر ، احداهما بالبيت المقدس ، وقيل : بيت راس كورة بالاردن ، والأخرى من نواحي حلب قال حسان بن ثابت :

كأن سبيئـــة مـــن بيـــت رأس
يكـــون مزاَجهـــا عسل وماء (١)

فنشـــربها ، فتتركنـــا ملــوكا
وأسدا ماينهنهـــا اللقـــاء

وقال أبو النواس :

دثارٌ من َغنية أو سليمـــى
أو اللهمـــاء أخت بني الحماس

كأن معاقـــد الاوضاح منهـــا
بجيد أغنّ ، نوّم في كنـــاس (٢)

وتبسِمُ عن أغرّ ، كـأن فيـــه
ُمجاجَ سلافةٍ من بيت رأس

---

(١) السبيئة : الخمر . ماينهنها : مايكفنا

(٢) الاوضاح : حلي من الفضة ، الأغن : الظبي . الكناس : بيت الظبي

ـ وأخبرني رجل من أهلها قال : رأيت أسفل داري عمودا ففتحت موضعه لاستخرجه فانخرق الى مغارة · فانزلت اليها انسانا ظننا مني أنها مطلب ـ أي عله يجد كنزا او شيئا ثمينا ـ فوجدناه مغارة كبيرة ، ولم نجد فيها شيئا · ورأيت في الحائط صورة بقه فمن ذلك اليوم كثر البق في معرة النعمان · وذكر أهل المعرة أن حياتها لاتؤذي اذا لدغت كما يؤذي غيرها · ـ أما كمال الدين ابن العديم فقال : سمعت ابراهيم ابن أبي الفهم رئيس المعـرة يقول ان العمود القائم في مدينة المعرة هو طلسم الحيات وهـذا العمود قائم مستقر على قاعدة بزُبرة حـديد في وسطه يميله الانسان فيميل ، وكذلك تعمل فيه الريح الـقوية ، واذا مال يضع الناس تحته الجوز واللوز فينكسر · ـ

وهكذا نجد الروايات تختلف بـين طلسم للعقارب او البق او الحيات ، وكل هذا يؤكد لنا بأن أهالي المعرة كانوا يفكرون بوسيلة يستخدمونها في القضاء على الحشرات والهوام حتى ولو استخدموا في ذلك الوسائل العلمية أو الحيل والشعوذات · وهذا لم يكن سائدا في المعرة فقط بل وفي شيح الحديد ـ في نواحي انطاكية ـ وسرمين وقرية نحلين في منطقة ريحا ·

كما كان الاهتمام بالطلاسم سائدا قبل ناصر خسرو بمائة عام، ، اذ ذكر ـ المقدسي ـ ٣٣٥ هـ ٣٩٠ هـ في كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم في فصل ـ عجائب الشام ـ بأنه في ـ أبو رياح ـ حمص طلَّسمْ جعل للعقارب ومن أخذ طينا وطبعه عليه نفع من لدغ العقارب باذن الله تعالى ، فالعمل للطبع لاللطين ·ـ

★

كما ذكر مسجد المدينة بانه عـلى مرتفع في وسطهـا · بحيث يصعدون اليه من أي جانب يريدون وذلك على ثلاث عشرة درجة ـ

هذا المسجد الذي ذكره يسمى الآن ـ الجامع الكبير ـ يقع وسط المدينة من الشمال والجنوب ، وفي طرفها من جهة الشرق ، له بابان أحدهما من الجهة الشمالية ، والثاني وهو الباب العظيم من الجهة الغربية ، وينزل اليه من ساحة السوق بعشر درجات ، بينما في زمن رحالتنا ـ ناصر خسرو ـ يصعد اليه بثلاث عشرة درجة ٠ نخلص لدى المقارنة بأن بلدة معرة النعمان ارتفعت عن مستوى الجامع بثلاث وعشرين درجة نتيجة الهدم والحروب المتكررة التي تعاورت عليها ٠ أصل هذا الجامع معبد وثني ثم كنيسة ، أحرقه الامبراطور البيزنطي نقفور فوكاس ـ كما ذكرنا سابقا ـ سنة ٣٥٧ هـ ٩٦٨ م وبعد ذلك أحرقه الصليبيون ثانية سنة ٤٩٢ هـ ١٠٩٨ م بالاضافة الى الزلازل التي تعرضت لها المعرة في أوقات مختلفة ٠

وأخيرا فان رحالتنا ـ ناصر خسرو ـ من خلال رحلاته وكتاباته عنها يعتبر مصدرا هاما للفترة التي عاصرها ، لانه من الرحالة الثقاة الذين يعتمد عليهم لدى تأريخ هذه الفترة ـ القرن الخامس الهجري ـ الحادي عشر الميلادي ـ ٠

كما لم يكن في المعرة زمن مروره سوق واحدة كبقية المدن بل أسواق وافرة العمران ـ مزدهرة وروادها من أبناء المعرة وريفها العامر قبل غزو الصليبيين والمغول لها ، وقتل أبنائها واستنزاف خيراتها ٠

★ ★

ننتقل الى رحالة آخر يدعى ـ ابن جبير ـ الذي زار المنطقة عام ٥٧٩ هـ ١١٨٣ م واصفا بلاد المعرة ـ بأنها سواد كلها : بشجر الزيتون والتين والفستق وأنواع الفواكه ، ويتصل التفاف

بساتينها ، وانتظام قراها مسيرة يومين ، وهي من أخصب بلاد الله وأكثرها ارزاقا · ووراءها جبل ـ لبنان ـ وهو سامي الارتفاع ، ممتد الطول ، يتصل من البحر الى البحر ·

وجبل لبنان المذكور هو حد بين بلاد المسلمين والافرنج لان وراءه انطاكية واللاذقية وسواها من بلادهم · أعادها الله للمسلمين ـ (٤) ·

★

وهكذا استعاد ابناء المعرة مدينتهم بعد أن احتلها الصليبيون عام ١٠٩٨ ، وأعادوا بناءها وزرع بساتينها حتى ان قراها واسعة مسافة يومين ـ كان العرب كذلك يقيسون المسافات بالايام ـ

أما جبل لبنان ، فلم يكن العرب حينذاك يميزون هذا الجبل عن غيره بل كانوا يطلقون على الجبال الممتدة من لبنان الى الشمال حتى تصل بجبال الامانوس ـ اللكام سابقا ـ جبل لبنان ـ الذي كان حدا فاصلا بين أمارة انطاكية الصليبية وبلاد المسلمين · اذن أصبحت ـ بلاد المعرة ـ منطقة تحميها حدود ذات أهمية عسكرية واقتصادية تذود عن بلاد الداخل وتحميها ·

★ ★

الرحالة العربي الهَرَوى المتوفى سنة ٦١١ هـ ١٢١٤م تحدث عن المعرة حديثا مغايرا في فكره واسلوبه عن الآخرين ، اذ بحث في أصل المواقع وسبب تسميتها ، وخاصة تلك المواقع الدينية كالمشاهد والمزارات ـ راجع الفصل الخامس : منطقة حارم في حديثه عن « مشهد روحين » ـ فقدم لنا معلومات قيمة لم يتمكن

---

(٤) ابن جبير : رحلة ابن جبير ص ٢٤٢ ·

غيره التحقق منها ، اذ لم يكن باحثا بسيطا ، بـل تمتع بثقافة تاريخية عميقة حيث كانت المعرة في زمنه من ـ أعمال حماه ـ وقد وصفها قائلا ـ انها كانت تسمى « بذات القصور » قديما ، فنسبت الى النعمان بن بشير من الصحابة رضهم لان ابنه مات بها . قبلي البلد . وفي جانب سورها قبر يوشع بن نون فتى موسى ـ عم ـ والصحيح أن يوشع بأرض نابلس وسيأتي ذكره في رحلة القدس ان شاء الله تع . وبالمعرة قبر محمد بن عبد الله بن عمار ابن ياسر صاحب رسول الله صلعم . اما دير نقيرة من بلد المعرة به قبر عمر بن عبد العزيز رضه وعنده قبر الشيخ أبي زكريا المغربي من كبار الصالحين وقيل قبره بـدير سمعان والمشهور هذا (٥) .

★

من نص الهروى الدقيق عرفنا بأن قبر يوشع بن نون لم يكن في المعرة بل هو مقام وهذا ماذكره بعده كثير من المؤرخين ، مع أن أهالي المعرة لايميزون بين المقام والقبر مما جعلهم بعد مرور الزمن يقولون عن المقام القبر . وفي المعرة مسجد يدعى مسجد يوشع بن نون الذي بناه الملك غازي بن صلاح الدين عام ٦٠٤ هـ ١٢٠٧ م وفيه تابوت خشبي مغطى بقماش أخضر ، ولكنه ليس ليوشع . فقد روى البغدادي يعرف لنا معرة النعمان ـ تنسب الى النعمان بن بشير الصحابي ، في قبليها قبرٌ يقال انه قبر يوشع ابن نون والصحيح انه بنابلس ، بها زيتون وتين وفستق كثير ولها عمل واسع . ـ كما ذكر ابن شداد المتوفى سنة ٦٨٤ هـ ١٢٨٥ م ـوبمعرة النعمان فيما زعموا قبر يوشع بن نون عليه السلام

---

(٥) الهروى : الاشارات الى معرفة الزيارات ص ٧ .

في مشهد هناك جدد عمارته الملك الظاهر غياث الدين غازي ووقف عليه بالمعرة وقفا وهو يزار · ولما خرج الملك المعظم فخر الدين نوران شاه من حبس مصر اشترى له بالمعرة ارضا ووقفها عليه وذلك في سنة ··· « بياض في الاصل » · ــ بينما روى ابن الشحنة ــ المتوفى سنة ٩٨٠ هـ ١٤٨٥م ــ وبلغني من الثقات أن شيخنا شيخ الاسلام سراج الدين البلقيني لما جاء الى حلب صحبة السلطان نزل بالمعرة بهذا المقام فقيل له ان هذا قبر يوشع فأنكر ذلك وبات تلك الليلة فأصبح بكرة النهار وهو يقول : نعم هذا يوشع هذا يوشع ، فكأنه رأى رؤيا دلته على ذلك · واما انا ــ أي ابن الشحنة ــ فقد زرت هذا المقام مرات كثيرة وبت به ليالي عديدة معتقدا بركته · ــ

*

وسوف يذكر ــ اوليا جلبي ــ هذا المسجد لدى مروره بالمعرة سنة ١٦٤٩ بمايلي : ــ وفي أرض المعرة القديمة دفن يوشع بن نون عليه السلام ، عاش مئة وعشرين عاما ، وقد رأيت له قبرين ، الاول في طرابلس الشام ، والثاني في المعرة ، ولعل أحدهما مقام له · ــ

وموقفنا تجاه الروايات ــ وما أكثرها ! ــ تؤكد كلها على أن قبر يوشع بن نون في نابلس في أرض ميراثه · وفي المعرة الآن مسجد يوشع بن نون الذي يقع في جنوبها · وله باب من الغرب ، تعلوه قنطرة ذات مصطبتين جانبيتين ، وفوق المدخل كتابة أشارت الى مصلح المبنى الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين الايوبي ، والى تاريخ البناء عام ٦٠٤هـ ١٢٠٧ م والمتولي عليه ــ مرشد ابن سالم بن المهذب ــ وفي المكان الذي يقال عنه قبر يوشع في الشرق

من المسجد يوجد تابوت خشبي مغطى بقماش أخضر ٠ وهناك كتابه بعد البسملة :

هــذا المقــام بــه النجــاة لزائر

وبجــاهــه الاوزار عنــا ترفــع

من أمــه نال المنــى في العــلا

وغــدا ينادي يوشع يايــوشع

نخلص القول بأنه مقام وليس ضريحا له ٠

★

أما دير نقيره والذي يسمى الآن ـ دير شرقي ـ احدى ضواحي المعره ، من الجنــوب الشرقي بـ ٧ كم عن المعرة وبـ ٥٢ كم عن ادلب ، هي بالذات التي دفن فيها الخليفة ـ عمر بن عبد العزيز ـ ضمن بناء جميل خاص به منذ العهد الايوبي ، والى جانبه قبه رشيقة نصف كروية على قاعدة مربعة ، كانت مقرا للشيخ ابي زكريا يحيى المغربي مجاورا له ٠

★

قد يتساءل القارىء كيف ذلك وعمر عاش في دمشق ؟ ! ألم يكن له مكان هناك ؟ ! خاصة اننا سمعنا انه يوجد ـ دير سمعان ـ بنواحي دمشق ؟ ! لاشك أن عمر دفن في أرض المعرة وهذه هي أقوال معظم المؤرخين الثقاة حول هذا الموضوع ، ولنتأكد من صحة رواية ـ الهروى ـ رغم أننا لانشك في روايته ـ ونؤكد للقارىء العزيز بأن دير سمعان نفسه دير نقيره او دير شرقي كما تبين من أقوال المؤرخين في ذلك ٠

أقدم نص ذكره قول المسعودي المتوفى ٣٤٥ هـ ٩٥٦ م أنه توفى بدير سمعان من أعمال حمص مما يلي قنسرين ، مسموما من قبل أهله سنة ١٠١ هـ وله تسع وثلاثون سنة ـ وهذا لاشك فيه لان المعرة ، كانت تابعة وقتئذ لحمص وعبارته ـ التي تجاور قنسرين ـ هي منطقة المعرة والتي تجاورها ٠ أما ـ البكرى ـ المتوفى ٤٨٧ هـ ١٠٩٤ يذكر بأن عمر توفى في خناصرة ودفن في دير سمعان من أرض المعرة ـ اما ـ اليعقوبي ـ يذكر بأن عمر غادر دمشق الى حمص وعندما مرض اراد الذهاب الى دير سمعان حيث كانت له أرض ورثها من أمه ٠ اما المؤرخ ـ ابن واصل ـ المتوفى ٦٩٧ هـ ١٢٩٨ م ذكر بأن قبر عمر في قرية اسمها دير النقيرة ويقول ان صلاح الدين الذي مر بها في عام ٥٨٤ هـ ١١٨٨ م وزار الشيخ المتصوف أبو زكريا المغربي كما زار قبر عمر بن عبد العزيز بطريقه من حلب الى معرة النعمان ثم الى حماه ٠

ويروي ـ ابن الوردي ـ نقلا عن ابن واصل ان دير سمعان هو المكان المعروف بدير النقيره ، وأضاف انه زار القبر عدة مرات بعد ان جمع معلومات من سكان المعرة وانه رأى على القبر كتابة تختصر حياة الخليفة الاموي وتشيد بصفاته ٠ ـ

وبعد ـ الهروى ـ المتوفى عام ٦١١ هـ يقول ـ ابن شداد ـ المتوفى عام ٦٨٤ هـ ١٢٨٥ م نقلا عن ابن العديم المتوفى عام ٦٦٠ هـ ١٢٦٢ م ان قبر عمر بن عبد العزيز موجود في دير سمعان وهي قرية قريبة من المعرة ، وتعرف ايضا بدير النقيرة ، وبقرب الخليفة قبر الشيخ ـ أبو زكريا يحيى بن منصور ٠ ـ

أما ياقوت الحموي المتوفى ٦٢٢ هـ ١٢٢٩ م فقد ذكر ان دير النقيرة على مرتفع قرب المعرة وهو المكان الذي يقال ان فيه قبر

عمر بن عبد العزيز ثم يقول ان القبر بالحقيقة في دير سمعان في منطقة دمشق • وكذلك قبر الشيخ أبو زكريا المغربي • وفي مكان آخر يقول أن قبر عمر بن عبد العزيز في دير مران على مرتفع قرب المعرة والواقع ان ياقوت رغم منهجيته العلمية في البحث والتقصي فقد وقع بالخطأ كما يقع كل باحث ـ في تحديد بعض المواقع تحديدا صحيحا ومنها تحديد موقع قبر عمر • وهذا مادفع ـ البغدادي المتوفى عام ٧٣٩ هـ ١٣٣٨ م • أي بعد ياقوت بقرن للاضطلاع بعبء جديد ، واعادة صياغة كتابه معجم البلدان ، وابعاد ماهو خطأ عنه ، واختصار الزيادات التي فيه مما ليس له علاقة بموضوع البحث •

ماذا قال البغدادي ؟ ! في تعريفه لدير سمعان ـ : يقال بكسر العين وفتحها ، وهو دير بنواحي دمشق ، في موضع نزه ، وبساتين محدقة به وقصور • قال وفيه قبر عمر بن عبد العزيز ، وضرب بعد ذلك ولم يبق له أثر • قلت' ـ أي البغدادي ـ ان المشهور أن عمر ابن عبد العزيز مات بنواحي حلب ، وانه كان نازلا بناحية منها ، وانه مات بنواحي المعرة ، وبقرب معرة النعمان قبر معروف أنه قبر عمر بن عبد العزيز ، في قرية تعرف بالنقيرة ، وأن موضعه كان ديرا فخرب ، وسألت بعض أهل المعرة عنه ، فقالوا الدير الذي فيه قبر عمر بن عبد العزيز يعرف بدير النقيرة • ودير سمعان ديرا آخر قريب منا • ولعل الدير الذي بالنقيرة قد كان يسمى دير سمعان ـ وسمعان ـ هو شمعون الصّفا • فلعله بنى هذا الدير على اسمه ايضا فسمي به • وله عدة ديرة ، وكان الدير الذي ذكره المعري هو الذي بقرب انطاكية • قال المؤلف : وهو قريب من نصف دار الخلافة ببغداد ، ويضاف به المجتازون ، ودخله كثير ،حتى قيل انه كان في كل سنة اربعمائة دينار ،ومنه يصعد

الى جبل اللكام ـ جبل الامانوس الآن ـ وديرا آخر بنواحي حلب بين جبل بني عليم ـ جبل الزاوية الآن ـ والجبل الاعلى · قال فيه شعراء :

قد غيَّبوا في ضريح الترب منفردا

بدير سمعان َقسطاسَ الموازين

وقال كثير :

سقى ربنا من دير سمعان حضرة

بها عمر الخيرات رهنا دفينها

ودخله جرير في يوم عيد فرأى النساء والصبيان يقبلون الصُلُب ويسجدون لها فقال :

رأيت بدير سمعان صليبا

تقبِّله' الشوادن' والظباء

هذه رواية البغدادي عن دير سمعان وتحققه منه · أما قوله عن دير 'مرّان أنه بالقرب من دمشق على تل مشرف على مزارع الزعفران ودير مرّان أيضا على الجبل المشرف على كفر طاب قرب المعرة ، به قبر عمر بن عبد العزيز مشهور يزاربه · ـ أما تعريفه عن النّقيرة فقال بأنها قرية من قرى المعرة ، قتل بها عمر بن عبد العزيز ـ وفي تعريفه دير النقيرة قال ـ في جبل قرب المعرة · قال قيل ان به قبر عمر بن عبد العزيز والصحيح أن قبره في دير سمعان كما ذكرنا ·· ـ

أما مؤرخو عصر المماليك فيعتبرون قبر عمر قرب المعرة · فالقلقشندي المتوفى ٨٢١ هـ يقول في دير سمعان · وخليل



ضريح الخليفة عمر بن عبد العزيز والى جواره الشيخ أبوزكريا
يحيى بن منصور في دير شرقي قرب المعرة

الظاهري في دير مرّان • أما ابن بطوطة فيقول على فرسخ من المعرة وهذا صحيح لان الفرسخ يعادل ٨كم ودير شرقي كما ذكرنا تبعدعن المعرة٧كم ذكرغرس الدينخليل بن شاهين الظاهري فيكتابه زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ـ وأما مدينة المعرة كان اسمها ذات القصور • وهي الآن لطيفة ولها معاملة وقرى عديدة وهي من معاملة حماة • وبها قبر محمد بن عبد الله الصحابي • وبدير مران قبر عمر بن عبد العزيز الاموي رضي الله عنه •• ـ

أما أبو الفداء المتوفى عام ٧٣٢ هـ ١٣٣٢ م ذكر في تاريخه أنه توفي بدير سمعان ودفن به • قال القاضي جمال الدين بن واصل ، والظاهر عندي ان دير سمعان هو المعروف الآن بدير النقيرة من عمل معرة النعمان ، وان قبره هذا هو المشهور •• ـ

أما ـ العمري ـ المولود بدمشق والمتوفى عام ١٣٨٤ ذكر في كتابه مسالك الابصار ـ دير سمعان : قال الخالدي وهو بنواحي دمشق ، بالقرب من الغوطة على قطعة من الجبل يطل عليها •• وعنده دفن عمر بن عبد العزيز ، بظاهره • قلت وهذا غلط من الخالدي • وهكذا ذكره أبو الفرج وغلط أيضا • فان هذا الدير في قرية تعرف بالبقرة ـ النقيرة وخطأ من الناسخ ـ من قبلى معرة النعمان • وبه قبر عمر بن عبد العزيز ، مشهور لاينكر • وليس يسمع بدمشق لهذا الدير نابسة ، ولايعرف لمكانه في غوطته خضراء ولايابسة •• ـ

وأما ـ ابن الشحنة ـ المتوفى عام ٨٩٠ هـ ١٤٨٥ م كتب يقول ـ وبدير سمعان من قرى معرة النعمان ويعرف أيضا بدير النقيرة لان الى جانبه قرية تسمى النقيرة على وزن كبيرة قبر عمر بن عبد العزيز في حاير صبغين والى خلف ظهره قبر الشيخ أبي زكريا

يحيى بن منصور ، وكان أحد أولياء الله تعالى ، وله كرامات وكان مقيما بالمسجد الذي بهذه القرية يعبد الله تعالى حتى أدركه الاجل ، فدفن في الحاير ـ ٠ ـ قلت « أي ابن الشحنة » وقد زرته قاصدا فانه حور عن الطريق وفيه يقول الشريف الرضي من أبيات :

دير سمعان لاعدتك العــــوادي

خير ميت من آل مــروان َميـّتـُك

ـ والزبيدي المتوفى ١٧٩٠ ـ في تاج العروس ذكر بان ـ دير سمعان بها دفن عمر بن عبد العزيز وكان ابتداء مرضه بخناصرة وهي مجهولة الآن لايعرف لها أثر ٠ ودير سمعان بانطاكية ودير سمعان بالمعرة يقال فيه قبر عمر بن عبد العزيز أما المؤرخون المعاصرون كالغزي ذكر استنادا الى الروايات السابقة بأن عمر دفن في دير سمعان لانه تدبر خناصرة وتوفى ١٠١ هـ في دير سمعان ودفن به ٠

أما خناصرة فتعرف الآن ـ بخناصر ـ واسمها الـقديم ـ آنا سارته ـ وبعد الفتح الاسلامي عرفت بخناصرة الأحص ٠

كانت تابعة لمنطقة معرة النعمان في مطلع هذا القرن ٠ أما الآن فهي تابعة لمحافظة حلب ، منطقة جبل سمعان ناحية السفيرة ٠ تبعد عن مركز الجبل ٧٥ كم وعن السفيرة ٥٠ كم وعن دمشق ٤٢٥ كم ٠

نزلها عمر بن عبد العزيز والوليد بن عبدالملك ٠ من آثارهـا الباقية سورها وأبنيتها من الحجر الاسود ٠ وفي خناصرة يقول عدي بن الرقاع العاملي وقد نزل بها الوليد بن عبد الملك ووفد عليه :

واذا الربيـع تتـابعت أنـواؤه

فسقي خناصرة الأحص وزادهـا

نزل الوليد بها فكـان لاهلهـا

غيثا أغاث انيسهـا وبلادهـا

وقد ذكرالجغرافي ابواسحق ابراهيم بن محمدالفارس الاصطخري المعروف بالكرخي والمتوفى ٩٥٧ م ـ عاش في القـرن الرابع الهجري ـ في كتابه ـ مسالك الممالك ـ ٠ ـ ومعرة النعمان مدينة هي وما حولها من القرى اعذاء ليس بجميع نواحيها ماء جار ولا عين ، وكذلك أكثر مابجميع جند قنسرين اعذاء من السماء ٠ وخناصرة حص على شفير البريةكان يسكنه عمر بن عبد العزيز ـ وقـد عرف البغدادي سابقـا خناصرة بأنهـا بليدة من أعمال حلب تحاذي قنسرين نحو البادية ٠

وذكر ايضا حسين بن محمد بن الحسن الديار بكري في كتابه ـ تاريخ الخميس ـ وتوفي أمير المؤمنين الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز سنة احدى ومائة بدير سمعان من أعمال حمص ، وقال الذهبي من أعمال قنسرين وقبره يزار ٠٠ ـ

أما رواية عمر بن عبد العزيز في هذه المنطقة جدير بنا ذكرها ، لحل هذا الاشكال في تحديد موقع قبره ، والذي نؤكد أنه دفن في دير شرقي الآن على غير ماذكر ـ حبيب الزيات ـ في بحثـه عن ـ اديرة دمشق وضواحيها ـ ان قبر عمر كان قرب دمشق في مكان يدعى دير سمعان ٠

رُوي أن صاحب الدير دخل على عمر في مرضه الذي مات فيـه بفاكهة اهداه ، فاعطاه ثمنها ٠ فابى الديراني أخذهافلم يزل

به عمر حتى قبض ثمنها وقال : ياأمير المؤمنين انما هي من ثمر شجرنا فقال عمر ـ رحمه الله ـ وان كان من ثمر شجركم ! ثم قال له عمر ياديراني بلغني · ان هذا الموضع ملككم فقال : نعم فقال اني احب أن تبيعني منه موضع قبر مدة سنة ـ وفي رواية أخرى ياصاحب دير سمعان اني ميت من مرضي هذا فحزن وبكى ـ فاذا حال الحول فانتفع به · فبكى الديراني وحزن وباعه موضع قبر بأربعين درهما ، فدفن به · ثم ان المسلمين اشتروا جميع الدير وأبقوه مدفنا لعمر ـ ر ـ وقال فيه بعض الشعراء يرثيه كالشريف الرضي :

دير سمعان لاعدتك العوادي
خير ميت من آل مروان ميتك
يا ابن عبد العزيز لو بكت العين
فتى من أمية لبكيتك
انت طهرتنا من السب والشتم فلو
أمكن الجزاء جزيتك
ولعمري لقد زكوت وقد طبت
وان لم يطب ولم يزل بيتك



اما الوزير الفقيه البكري الاندلسي المتوفى سنة ٤٨٧ هـ ذكر ـ دير سمعان بنواحي دمشق وهناك قبر عمر بن عبد العزيز ـ وردنا عليه انه من الاندلس بينما جميع الجغرافيين والمؤرخين من الشرق ذكروا بأن دير سمعان قرب المعرة وكذلك وقع في خطأ

أخر ، اذ كيف يكون دير سمعان قريبا من بلاد الروم ، وفي ذات الوقت قرب دمشق ، ولعل الامر التبس عليه ٠ لنتابع روايته ثانية ـ وكان عمر اشترى ، موضع قبر من دير سمعان ، وكان مرض هناك ، حدثني اسحق بن بيان الانماطي قال أخبرنا أبو منصور الرمادي ، قال حدثنا عبد الله بن صالح قال حدثنا بن وهب قال : حدثني أبو عبد الله الصدفي : أن معاوية بن الريان حدثهم : أن الشماس صاحب دير سمعان دخل على عمر في مرضه بفاكهة يستلطفه بها ، فقبلها منه ، وأمر له بدراهم ، فأبى أن يقبلها ، فما زال به حتى أخذها ، وقال ياأمير المؤمنين ، انما هي من ثمر شجرنا ٠ قال عمر : وان كان ٠ ثم قال له عمر اني من مرضي هذا ميت ، فحزن الشماس وبكى ٠ قال : فبعني موضع قبر من أرضك ففعل ٠

وقال الزبير : كان معاوية وجه يزيد ابنه لغزو الروم ، فأقام يزيد بدير سمعان ، ووجه الجيوش ؟ وتلك غزوة الطّوانة ، فأصابهم الوباء فقال يزيد بن معاوية :

أهـون عليّ بمـا لاقت جموعُهم
يـوم الطوانـة من حمى ومن موم
اذا تكأت على الانمـاط مرتفعـا
بدير سمعـان عندي أم كلثـوم

قال فبلغ شعره معاوية فكتب اليه :

« أقسم بالله لتلحَقنّ بهم ٠٠٠ حتى يصبك ماأصابهم فالحقه بهم» اما ـ الحميري ـ الاندلسي والمتوفى عام ٨٤٥ هـ ـ وفي رواية أخرى ٩٠٠ هـ ـ فقد وقع في ذات الالتباس الذي وقع فيه البكري

الاندلسي • ولعل بعدهم عن المكان أوقعهم في ذات الاشكال ، بالاضافة الى وجود عدة أديرة باسم سمعان كالدير الموجود أيضا قرب انطاكية • ومما ذكره ان دير سمعان بنواحي دمشق ، حواليه قصور ومنتزهات وبساتين لبني أمية ، وهنالك قبر عمر بن عبد العزيز ـ ر ـ توفي سنة احدى ومائة ، وكان قد انتقل اليه واشترى موضع قبره من سمعان صاحب الدير بثلاثة دنانير وقيل بدينارين • وقال رجل يرثيه :

قد غيبوا في ضريح الترب وانصرفوا

بدير سمعان قسطاس الموازين

أقول لما أتاني ذكر' مهلكه

لايبعدنّ قوام العقل والدين

هذا ماحدثنا به ـ الحميري ـ الاندلسي في تعريفه بدير سمعان ، كما ذكر غزوة الطوانة وتلكؤ يزيد في حرب الروم • لكنه في حديثه عن معرة النعمان قال ـ معرة النعمان : بالشام مدينة قديمة فيها خراب ، بينها وبين حلب خمسة أيام ، وهي مدينة كبيرة كثيرة المباني والاسواق ، ولا في شيء من نواحيها ماء جار ولاعين ، والغالب على أرضها الرمل ، وشرب أهلها من ماء السماء ، وهي كثيرة الزيتون والكروم والتين والفستق والجوز وغير ذلك ، وأهلها تنوخ ولها سبعة أبواب : باب حلب ، باب الكبير ، باب شيث باب الجنان ، باب حمص ، باب كذا • وعلى ميل منها دير سمعان ، وفيه قبر عمر بن عبد العزيز ـ ر ـ ويذكر ان قبر شيث بن آدم عليهما السلام عند الباب المنسوب اليه منها ، وداخل المعرة قبر يوشع بن نون ، وله يوم حفل في كل عام يقصد اليه من الاقطار • ومنها أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي المعري

اللغوي الشاعر البليغ الفصيح ، كانت تشد اليه الرحال وتضرب له أكباد الابل من الآفاق ، وزعموا انه ينتحل مذهب البراهمة والله أعلم . والناس يقابلون بينه وبين ابن سيدة ويقولون : أعميان إمامان حافظان أحدهما بالمشرق والآخر في المغرب ويخوضون في ذلك . والذي ذكر البلاذري انها تنسب الى النعمان ابن بشير الانصاري .

وبلاد المعرة ـ نلاحظ هنا ينقل عن ابن جبير ـ سواد كلها بشجر الزيتون والتين والفستق وأنواع الفواكه ، ويتصل التفاف بساتينها وانتظام قراها مسيرة يومين ، وهي أخصب بلاد الله وأكثرها ارزاقا ، ووراءها جبل لبنان . ـ

ومقارنة بسيطة بين النصين ـ للحميري ـ يجد القارىء ذلك التباين في تعريفه موقع دير سمعان وقبر عمر بن عبد العزيز ، وان كان النص الثاني أوضح من الاول وأكثر واقعية ودلالة .

أما اليعقوبي المتوفى عام ٨٩٧ هـ ـ بعد الحميري ـ ذكر في تاريخه بعضا من حكاية عمر في دير سمعان فقال ـ وارتحل الى 'خناصِرة ، فنزلها وهي بر ّية من أطراف جند قنسرين ، وكره أن ينزل في أهل بيته التي بنوها بمال الله وفىء المسلمين ، ثم كلّم في ذلك ، وقيل له : ان في نزولك البرية إضرارا بالمسلمين ، فخرج الى دمشق ثم ارتحل الى حلب ثم الى حمص راجعا يريد أن ينزلها ، فلما صار الى اوائل حمص اعتل ّ ، فمال الى موضع يعرف بدير سمعان ، فنزله ، ويقال : بل ارتحل اليه قاصدا يريد نزوله بسبب قطعة أرض كان قد ورثها عن أمه فيه ، فلما صار الى دير سمعان أتاه الخبر وهكذا .. ـ وبقية الحديث لاتهمنا بقدر مايهمنا تردده الى أرض دير سمعان للسبب المذكور أعلاه .. ـ أطلنا الحديث

وغايتنا توضيح الاشكال في موقع قبر عمر بن عبد العزيز وحكاية دفنه . وقد وقع بعض المؤرخين والمحققين في هذا الخطأ كمحقق كتاب - در الحبب في تاريخ حلب - اذ ذكر في الجزء الاول صفحة ١٧٢ في الحاشية رقم ٩ في تعليقه على كتابة المؤلف ابن الحنبلي - وكان مقام أنس وبه خطيب دير سمعان من عمل المعرة - يعرف موقع دير سمعان بما يلي - ودير سمعان يعرف بدير النقير في جبل سمعان شمال المعرة ، وهو في الاصل منسكة أقيمت على عمود تنسك فيها سمعان العمودي الاكبر المعروف بالحلبي حوالي ٣٨٩ - ٤٥٩ م - وبعد موته أقيم حول العمود كنيسة ملوكية تعتبر آية في الفن المسيحي في سورية - .. في هذه الحاشية وقع المحقق بـ

أ - رواية المؤلف صحيحة ، فدير سمعان من عمل المعرة ، بينما المحقق لم يميز بأنه يوجد أكثر من دير في المنطقة يسمى بدير سمعان .

ب - ذكر المحقق دير سمعان يعرف بدير النقير في جبل سمعان شمال المعرة . وهذا خطأ ولبس ، فدير النقير لايقع في جبل سمعان وشماليها ، بل في الجنوب الشرقي منها كما ذكرنا سابقا .

وروايته عن سمعان العمودي وهكذا .. فهي صحيحة عن دير سمعان الواقع شمالي المعرة والمسمى الآن جبل سمعان - سابقا جبل ليلون كما سماه العرب وجبل الشيخ بركات - وفيه قلعة جبل سمعان ودير سمعان وباسمه سميت منطقة جبل سمعان التابعة لمحافظة حلب .

وشرحه الاخير عن دير سمعان الواقع في جبل سمعان هو ليس دير النقير اذ لم يعرف بهذا الاسم ، بل عرف به دير سمعان الواقع شرقي المعرة والذي فيه قبر عمر الخليفة المعروف ·

وأخيرا نخلص في حديثنا الى مايلي :

١ ـ بعض المواقع في المحافظة لها أكثر من اسم خاص ينسب اما الى الواقع الجغرافي أو الطبوغرافي او لشخص أو حادثة وقعت وجماعة استوطنت ـ راجع تفصيل ذلك بالشواهد كتابنا « دليل بلدان وقرى محافظة ادلب » ـ

٢ ـ دير النقيرة معروف باليونانية باسم ـ نيكرتاي ـ واصله من السريانية ـ نقيرتا ـ ويؤيد ذلك كثرة هذه الاسماء في الوثائق القديمة ، وكثرة القرى والاماكن في سوريا والمعروفة بـ ـ النقيرة ـ وتعني بالسريانية المسكن او المدفن او أي عمل آخر كبير منقور في الصخر ·

٣ ـ في هذا المكان بنى دير لسمعان من قبل رجل اسمه ـ آغابتيوس ـ وهذا أصل الاتصال بين اسمي النقيرة ودير سمعان ·

٤ ـ ان الخرائط القديمة تذكر مكانا اسمه ـ قيراطة ـ وقربه مرتفع يسمى ـ تل عمران ـ ولكن السكان يعرفونه كما تبين لنا باسم تل مران ، ومن قمته نشاهد بلدة خان شيخون ، ولذلك فانه يمكن القول ان هذا التل هو تل مران ، او دير سمعان المذكورين في كتابات مؤرخي العصر الايوبي ، وكما ذكر الباحثان ـ جانين ودومينيك سورديل ـ ·

٥ ـ مما تقدم من شواهد وأقوال نؤكد بأن قبر الخليفة عمر في دير شرقي قرب المعرة ، وله ثلاثة اسماء حسب تقادم الزمن من دير نقيرة الى دير سمعان ثم دير شرقي الآن ٠

هذا وقد زار الضريح أحمد وصفي زكريا عام ١٣٥٠ هـ وكتب عنه يقول ـ فوجدته تعلوه قبة مكشوفة الجوانب ، ولم أجد فيه كتابة تؤيد اسم صاحب الضريح ـ راجع ماذكرناه من رواية ابن الوردي وقراءته الكتابة ـ ان كان عمر بن عبد العزيز حقا أم غيره ٠ والضريح مهمل غير معتنى بـه ، أحاطت به الاشواك والاعشاب واعترى الوهن أحجاره ، شأن جـل أضرحة اسلافنا وعظماءنا الذين شادوا هذا المجد التليد فبخسناهم حقهم ٠٠٠ ـ والآن هل يفكر احدنا بزيا رةضريح هذا الخليفة بعد أن رممته مؤخرا المديرية العامة للآثار ، بعد اتمامها الاعمال التالية : فك الجدار الشمالي لصحن المبنى واعادة بنائه ، وتقوية السقوف ـ تبليط الارضية بحجر أصفر قديم ـ اعادة بناء القسم الخارجي مع تسقيفه ـ انهاء ترميم الضريح (٦) ٠

---

(٦) ونحن في نهاية وضع هذا الكتاب وقع بين أيدينا الاعداد التالية من مجلة ـ نهج الاسلام ـ الصادرة في دمشق ـ العددان ١٦ و ١٧ الصادر في حزيران وتموز ١٩٨٤ والعدد ١٩ كانون الثاني ١٩٨٥ حيث نشر حوار ساخن حول موقع قبر الخليفة عمر ٠ مما دفعنا الى عرض وجهة نظرنا بالشواهد التي سبق عرضها في هذا الكتاب ومما أضفناه في نهاية البحث مايلي : بعد تقديم بحثنا للقارىء نحب التنويه بما يلي :

أولا : لايوجد الآن دير يسمى ـ دير سمعان ـ مابين حمص والمعرة غير واحد وهو المسمى الآن ـ دير شرقي ـ ٠

ثانيا : من يراجع معظم الكتب التاريخية والتي لم نتعرض اليها في البحث ـ وما أكثرها ـ يجد ذكر قبر الخليفة عمر في دير سمعان قرب المعرة ـ كتاريخ خليفة بن خياط وتعليق الدكتور سهيل زكار ـ ٠

ثالثا : بحث هذا الموضوع ايضا الاستاذ ـ سليم الجندي ـ عضو المجمع العلمي العربي بدمشق في كتابه ـ تاريخ معرة النعمان ـ الجزء الثاني ص ١٣٩ ٠ ولنوفي حقه في جهد البحث ، نقتطف منه مايلي ـ وقال الذهبي وفيها « سنة ١٠١ هـ » في رجب توفي عمر بن عبد العزيز بدير سمعان من أرض المعرة ٠ ولعل أقرب الاقوال الى الصواب ان قبر عمر بن عبد العزيز في دير سمعان المسمى بالدير الشرقي وقد سألت صديقا من علماء السريان عما يعلمه من دير سمعان ودير النقيرة ؟ فأرسل الى كتابا أول جاء فيه : اننا وجدنا اسم دير النقيرة في كتاب سرياني مخطوط محفوظ في خزانة المتحف البريطاني بلندن رقم A D ١٤٦٢٩ على مايأتي : أنا القسيس سرجيس ورئيس دير النقيرة الكائن في كورة أفامية ، وقعت هذه الرسالة راضيا بكل ماذكر أعلاه ، وذلك في ٢٩ ايلول ٨٨٦ يونانية ٥٨٥ م وأرسل كتابا ثانيا جاء فيه : انه وجد في تاريخهم السرياني ماهو أصرح وأفصح في موطن وفاة الخليفة عمر بن عبد العزيز وهو :

في سنة ١٠٣١ يونانية الموافقة لسنة ٧٢٠ ميلادية مات عمر في بلد ـ أي كورة ـ أفاميا في دير ايقرونتا : النقيرة ، وملك بعده يزيد بن عاتكة بن عبدالملك اربع سنوات ٠ ومأخذه من تاريخ سرياني مختصر من ٣٠٨ يونانية الى ٨١٩ م ألفه راهب من دير قرتمين في طور عبدين ونشر في باريس سنة ١٩٣٠ م ـ أ٠ هـ

رابعا : وهناك موقع يدعى ـ دير غربي ـ أيضا يبعد عن المعرة ٧ كم الى الغرب بقليل من دير شرقي ٠ وكذلك الى الغرب من دير غربي تل مرتفع جدا على قمته أطلال مباني هي بقايا ـ دير مران ـ تشاهد منه قرية كفر طاب القديمة ٠ ولعل هذه المواقع المتقاربة والتي تحمل اسم ـ دير أدت بالمؤرخين الى هذا الالتباس ، حيث توفي عمر في أحدهم ودفن في الآخر ٠

وفي كل الاحوال لاينفي كل هذا قولنا أن قبر عمر واقع قرب المعرة ٠٠ بل يؤكده ٠ وأخيرا ٠٠ بامكاننا القول ان دير سمعان هو دير نقيرة ٠ والمسمى الآن دير شرقي وفيه قبر عمر بن عبد العزيز ٠



والآن لنزور المعرة مع رحالتنا العربي ـ ابن بطوطة ـ حيث قدم من حماه الى محافظة ادلب عام ٧٢٥ هـ ١٣٢٥ م ـ ثم سافرت الى مدينة المعرة التي ينسب اليها الشاعر أبو العلاء المعري وكثير سواه من الشعراء ٠ قال ابن جزى : وانما سميت بمعرة النعمان لان النعمان بن بشير الانصاري ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، توفي له ولد ايام امارته على حمص ، فدفنه بالمعرة ، فعرفت به وكانت قبل ذلك تسمى ـ ذات القصور ـ وقيل ان النعمان جبل إمطل عليها سميت به ٠

والمعرة مدينة كبيرة ، حسنة ، أكثر شجرها التين والفستق ، ومنها يحمل الى مصر والشام ، وبخارجها على فرسخ منها قبر أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ، ولا زاوية عليه ، ولاخديم له • وسبب ذلك أنه وقع في بلاد صنف من الرافضة أرجاس يبغضون العشرة من الصحابة رضي الله عنهم ولعن مبغضهم ، ويبغضون كل من اسمه عمر ، وخصوصا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لما كان من فعله في تعظيم علي رضي الله عنه (٧) ــ •



لاتعليق لنا على نص ــ ابن بطوطة ــ عن المعرة سوى أننا لم نتحقق بعد ان كان ــ النعمان ــ اسم جبل مطل على المعرة أم لا ! لكننا نؤكد أنها نسبت الى النعمان بن بشير الانصاري لتوليه اياها ، وليس الى اسم جبل بقربها ، فلم يذكر هذا الجبل غير ابن بطوطة ، ولن نرجح رواية واحدة لرحالة عابر على غيرها من الروايات العديدة ، بل لايطل عليها جبل من غربها ، اذ يوجد جبل صغير يقال له : جبل عطّال ويتصل به من ناحية الشمال جبل يدعى المقاطع • كما سبق كذلك شرحنا قوله عن موقع قبر عمر بن عبد العزيز • كما نجد اراضي المعرة أصبحت عامرة بشجر التين والفستق فاستعادت حيوتها بعد الحروب الصليبية ، لتصبح مدينة كبيرة ، حسنة ، ولتصدر التين والفستق الى الاسواق الاخرى كمصر والشام •



---

(٧) ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ص ٦٧ •

أما الرحالة الدمشقي شمس الدين المعروف بشيخ الربوة والمتوفى عام ٧٢٧ هـ ١٣٢٦ م والذي عاصر ابن بطوطة فيقول معددا الممالك والتي منها ـ المملكة الحلبية ـ ومن جندها ـ أي جند حلب ـ معرة النعمان وتعرف بذات القصرين ولها عمل من أحسن الاعمال وهو شعراء ـ أي كثيرة الشجر ـ ممدودة وغالب شجرها التين والفستق واللوز والمشمش والزيتون والرمان والتفاح وكثير من الفواكه وسائرها يشرب من ماء السماء لايعتنى في فلاحه بأكثر من الحرث تحته (٨) .

وروى شيخ الربوة عن أهل المعرة انهم يسافرون في عيد الفصح الى حماه فقال ـ وعيد الفصح وهو الكبير . ويقولون ان المسيح قام فيه بعد الموت والصلب بثلاثة أيام ، وخلّص آدم من الجحيم ، وأقام في الارض أربعين يوما آخرها يوم الخميس ، ثم صعد الى السماء . وفي هذا العيد ُتبطل أهل حماه مدة ستة أيام أولها يوم الخميس الكبير ، وهو خميس العهد ، وآخرها يوم الثلاثاء ثالث الفصح . وتنتقش فيه النساء ، وُتلبس فيه الكساوى الفاخرة ، وُيصبّغون فيه البيض ، ويعملون الاقراص والكعك ، المسلمون أكثر من النصارى . ويرد الى حماة أهل سائر البلاد المجاورة لها مثل حمص وشيزر وسلميّة وكفر طاب ـ سوف نتحدث عنها ـ وأبو قبيس ومصياف والمعرة وتيزين والباب والفوعة وحلب .

ويطلعون جميعا الى العاصي . ويضرب لهم أهل حماه على شطوطه خياما ، ويركبون في المراكب بالمغاني ، ويرقصون ؛ في المراكب النساء ، والرجال على الشطوط ، حتى تتهتك الخلائق . ويمضي لهم ستة أيام لايرى في الوجود مثلها ـ ولم أر هذا في مدينة غيرها . ـ

---

(٨) شيخ الربوة : نخبة الدهر ص ٢٠٥ .

أليس وصف ـ شيخ الربوة ـ لمشاركة المسلمين النصارى في عيد الفصح ، مشابها لوقتنا الحاضر ، ولو بأقل مماقاله ، ولدى المسلمين بادلب ، حيث تذهب النساء صباح عيد الفصح غربي ادلب زرافات ووحدانا ومعهن الطعام ـ خاصةالبيض الملون وأدوات تسليتهن البسيطة ، وهن مرتديات أجمل مالديهن من ثياب !! لعله تقليد قديم جديد !!

★ ★

ـ كانت المعرة ـ محطة رئيسية للرحالة الاجانب ، فيما اذا غادروا حلب الى دمشق او غادروا حماه الى حلب . وأقدم نص وقع بين أيدينا للرحالة الهولندي ليونهارت راوولف اذ زار المنطقة عام ١٥٧٣ م قادما من حماه فقال ـ استأنفنا مسيرتنا بين الجبال ، وشاهدنا عن بعد مدينة صغيرة تقع فوق التلال والى الاعلى منهـا قلعة حصينة قيل ان الفرنسيين هم الذين شادوها قبلا ، ولما كانت تعيش فيها الارواح الشريرة والهوام ، فقدتركت متهدمة وغير مأهولة .

تركنا هذه القلعة على يسارنا وانتقلنا الى حقل قمح جيد الزرع وفيما بعد شاهدنا عن يسارنا مدينة سرمين (٩) .



هذه المدينة الصغيرة والتي شاهدها تقع فوق التلال هي ـ معرة النعمان ـ وقلعتها الحصينة الواقعة في الشمال الغربي من المدينة فوق قاعدة كلسية ، يحيط بها وادي الهرماس ، بناها الملك الايوبي

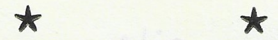
---

(٩) راوولف : نفس المصدر ص ٥٠ .

المظفر صاحب حماه سنة ٦٣١هـ ١٢٣٣م ، لكن الحلبيين حاصروها سنة ٦٣٥ هـ١٢٣٧ م بعد وفاة الملك الكامل صاحب دمشق ، وكان مقدمهم المعظم توران شاه بن صلاح الدين ، ثم أخذوها ، وخربت المعرة بسببها وملكوها ايضا ٠

وبعدئذ حين غزا التتار المعرة اكملوا تخريبها سنة ٦٥٨ هـ١٢٦٠م يحيط بها خندق عرضه ١٣ مترا وعمقه الحالي ٧ أمتار وكان باطنه مفروشا بالبلاط تبلغ مساحته ٢٥٠٠ م٢ ٠ ولها عشرة أبراج مربعة ٠

ولكن الذي يثيرالتساؤل الآن قوله ــ قلعة حصينة قيل ان الفرنسيين هم الذين شادوها قبلا ــ ونعلم ان هذا الرحالة الهولندي لايتمتع بثقافة جيدة كالـرحالة الفرنسيين والانكليز لذا لانؤيـد قوله ــ القلعة بناها الفرنسيون ــ بل بناها خلال خمس سنوات الملك المظفر محمود بن المنصور صاحب حماه ٠ ووجدها غير مأهولة تعيش فيها الطيور والهوام ٠ بينما الآن يسكن فيها بعض الناس فمتى يحين وقت العناية بها وترميمها ٠ أمر ندع للاجيال القادمة الاهتمام به ٠ فهي رمز لحضارتنا ، وبيان مشرق عن مدنيتنا ، وحصن دفاعي عن كرامتنا ٠



وتطل سنة ١٠٣٩ هـ ١٦٢٩ م تاريخ تأليف كتاب رحلة الشتاء والصيف لمحمد بن عبد الله الحسيني الموسوي الشهير بـ ــ كبريت ــ كتب يصف المعرة بعد مغادرته سراقب وخان مرعي ــ ثم أتينا على المعرة ، وهي بلدة كثيرة التين والزيتون ، واليها ينسب أبو العلاء أحمد بن سليمان المعري ، صاحب التصانيف المشهورة ، والتآليف المذكورة، يقال انه كان ينتحل مذهب البراهمة ، ولايرى

اتلاف الحيوان ، ولد سنة ست وثلاثين وثلاثمائة ، بمعرة النعمان وجدّر في السنة الثالثة فعمي ، قرأ الضغون ، ونظم وله احدى عشرة سنة ، وكان في غاية الذكاء ، وأعجوبة في الحفظ ، عاش ستا وثمانين سنة وأنشد على قبره ست وثمانون مرثية ، من أجلّها مرثية الشريف الرضي التي منها :

ان كنت لم ترق الدماء زهادة

فلقد أرقت اليوم من جفني دما

والناس يفاضلون بينه وبين ابن سيده ، ويقولون : أعميان امامان حافظان أحدهما بالمشرق والآخر بالمغرب · وله ديوان سماه سقط الزند ، شرحه كثير من العلماء ، منهم صدر الافاضل ، وله من نظم لزوم ما لايلزم خمسة أجزاء ، وله شعر ُنسب به الى الالحاد ، وقيل : موضوع عليه منه ، والله الهادي :

عقول تستخف بها السطور

ولايدري الفتى لمن الثبور

كتاب محمد وكتاب موسى

وانجيل ابن مريم والزبور

ويمكن ان يكون المراد ، الذين يتبعون ماتشابه منه ، كما أخذ على أبي طالب المكي حيث قال : ليس على المخلوق أضر من الخالق ، من لم يفهم المراد ، فان الله تعالى هو النافع الضار ، والاحتمالات كثيرة ، والصحيح أن المراد لايدفع الايراد ، وعليه جاء ـ من فسَّر القرآن الكريم برأيه فقد كفر ـ ومنه :



ضريح الشاعر أبي العلاء المعري ـ ٣٦٣ ـ ٤٤٩ هـ في معرة النعمان
المركز الثقافي حاليا

راح من راح والثريا الثريا

والسِماك السِماك والنسر نسر (١٠)

ونجوم السماء تعجب منا

كيف تبقى من بعدنا وتمرّ

وهذا ماتراه ليس نصا في عدم فناء النجوم ، بل تأخرها عنا ، ولا خلاف فيه ، غير أن النفوس لاتختار التقدم عليها الا في الفناء ، ولاتحب تأخيرها الا في البقاء ، وقيل انه تاب في آخر عمره ، وحسن اعتقاده ، كما قيل في الزمخشري ؛ ونسب اليه القرطبي هذه الابيات في ـ تذكرته ـ :

يامن يرى مد البعوض جناحها

في ظلمة الليل البهيم الأليلَ

ويرى عروق نياطها في نحرها

والمخّ في تلك العظام النحّل

اغفر لعبد تاب من فرطاته

ماكان منه في الزمان الاول (١١)

وحكى المقريزي في ـ تذكرته ـ أنها للزمخشري ، ولما دفن وجد مكتوب على قبره :

---

(١٠) الثريا : مجموعة من النجوم المتلألئة المتقاربة كالعنقود يميز صحيح البصر فيها ستة نجوم او سبعة · وبالنظارات ستة وثلاثين وبالمراصد الكبيرة نحو ستة آلاف ، وبالتصوير الفلكي مالايعد · اما السماك فمن نجوم السماء العديدة اللمعان ، ومن النجوم المشهورة المتألقة : النسر الواقع ، وزميله النسر الطائر ·

(١١) البهيم : الاسود الذي لاضوء فيه · والأليل : الطويل الشديد السواد · والنياط التعليق ـ ناط ينوط نوطأ ونياطا ـ والنوط : الشيء المعلق وجمعه أنواط ونياط · والنحل : النحيلة اي الرقيقه الهزيلة ·

قد كان صاحب هـذا القبر جوهرة
لطيفـة صانهـا الباري من النطف
عزّت فلم تعرف الايام قيمتهـا
فردّها غيرة منه الى الصـدف

وأمر أن يكتب على قبره :

هذا ماجناه أبي علـيّْ .. يَ وماجنيتُ على أحـد

ومن كلامه :

أبا العــلاء بن سليمـانا
عمـاك قـد أولاك احسانا
لو عاينت عيناك هـذا الورى
لـم يلـقَ انسانـك انسانا

ولـه :

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهـة
وحق لسكان البسيطة أن يبكـوا
تحطمنـا الايام حتى كأننـا
زجـاج ولـكن لايعـاد لنا سبك
من كان يطلب من أيامه عجبـا
فلي ثمانون عاما لاأرى عجبـا
الناس كالناس والايام واحـدة
والدهر كالدهر والدنيا لمن غلبـا

ومن نصائحه :

اذا بلغ الوليـــد لديك عشـرا
فلايدخل على الحـرم الوليـــد
فان خالفتني ونبـذت نصحـي
فأنت وان افـدت غنى بليـد (١٢)

★

لاتعليق لنا على نص كبريت غير قوله عن ابي العلاء انه كان ينتحل مذهب البراهمة ، ولايرى اتلاف الحيوان . ومذهب البراهمة سائد في الهند ، نسبة الى أحد أفراد أعلى طبقة في الهند . مهمته فهم الكهنوت وشرحه وخدمته . والبراهمة أسمى الطوائف عند الهندوس . ومن كتبهم القديمة ـ الفيدا ـ و ـ البرهمانا ـ و ـ البجفاد جيتا ـ وهي شروح دينية وآلهتهم كثيرة ، وهي تقدس الحيوانات وخاصة البقر . وفي بعض الاماكن الهنديـة تقدس الافاعي . قارن الرحالة ـ كبريت ـ بين مذهب البراهمة وسلوك المعري ، فألصق به تهمة انتحال مذهب جديد . بينما المعري دافع عن موقفه هذا بقوله ـ ومما حثني على ترك أكل الحيوان ، ان الذي في السنة نيف وعشرون دينارا ، فاذا أخذ خادمي بعض مايحب بقي لي مالا يعجب فاقتصرت على فول وبلسن ، وما لايعذب على الالسن .. ولست اريـد في رزقي زيادة ، ولا لسقمي عيادة ، والسلام ـ وذلك جوابا على المجادلة مع داعي الدعاة . وكتب اليه ثانية داعي الدعاة مبطلا حجته ـ وقد كاتبت مولاي تاج الامراء ـ يعني ثمال بن صالح ـ ان يتقدم بازالة العلة فيما هو بلغه مثله من ألذ الطعام ، ومراعاته به على الادرار والدوام ليكشف عنه غاشية هذه الضرورة ، ويجري في أمر معيشته على أحسن مايكون من الصورة .. ـ وردّ أبو العلاء :

---

(١٢) كبريت : رحلة الشتاء والصيف ص ٢٠٣ ـ ٢٠٥ .

ـ ٠٠ وأما ماذكره من المكاتبة في توسيع الرزق على ٠٠ فالعبد الضعيف العاجز ماله رغبة في التوسع ومعاودة الاطعمة ، وتركها صار له عادة وطبعا ، وانه ماأكل شيئا من حيوان خمسا وأربعين سنة ٠

والشيخ لايترك عاداته ٠٠٠ حتى يوارى في ثرى رمسه

كما ذكر كبريت بانه ولد سنة ٣٣٦ هـ والعكس هو الصحيح اذ ولد سنة ٣٦٣ هـ ، وفعلا عاش ستا وثمانين سنة ، ليخلد لنا ذكرى أعظم شاعر ، وأكبر شخصية في محافظة ادلب ٠

★ ★

في عام ١٦٤٥ م جاء مورونه Morone الايطالي الى المعرة قادما من خان شيخون فكتب يقول ـ في اليـوم الثامن ـ من دمشق ـ وصلنا الى المعرة حيث يوجد فندقان الواحد قديم وقسم منه غير مستخدم لانه مدمر ، والثاني جديد ، سقفه مغطى بالرصاص ٠ أخبرني شخص أصله من المعرة ويقطن في حلب ، بانه يوجد تحت بيوت أقربائه سرداب وجدوا فيه آنية فخارية (١٣) ٠



من قول مورونه نخلص الى مايلي :

١ ـ الفندق كلمة افرنجية يقصد بهـا الغربيون الخان في العهد العثماني ـ راجع الفصل الاخير ـ

---

(13) MORONE : Ibid : P - 396 - 97

٢ ـ الخان الاول هو ـ الخان العتيق ـ فهو أقدم عهدا من الخانين الموجودين الآن · ولدى مروره وجد قسما منه غير مستخدم لبدء انهياره وقد دثر هذا الخان وجعل مكانه بستانا في اوائل هذا القرن · بناه صارم الدين أزبك المنصوري الحموي المتوفى عام ٧٣٧ هـ ١٣٣٦ م · وكان يقع في الجهـة الشرقية الجنوبية من الثكنة على بعد ١٥٠ م تقريبا ·

٣ ـ والخان الجديد المغطى سقفه بالرصاص ، يقصد به خان مراد جلبي ، الذي يسميه الناس خان التكية وسوف نعود اليه بعد قليل في رحلة كرين ·

٤ ـ وجود ـ آنية فخارية في سرداب تحت المنازل يشير بلاشك الى أن المعرة القديمة ـ هي تحت الحالية · وهو أمـر شائع في معظم المدن الاثرية القديمة كما في سرمين وكفر طاب والفوعة وسرمدا وخان شيخون ومسطومة ، وغيرهم كثير لامجال لحصرهم الآن ·

★ ★

وفي عام ١٠٥٩ هـ ١٦٤٩ م زار السائح التركي أوليا جلبي المعرة فلنقرأ ماذا كتب عنها ـ المعرة قاعدة لواء يرأسه باشا ، ويتبع ايالة حلب ، وهذا اللواء منح بطريقة الأربه لق ـ أي عينا ونقدا ـ الى الدفتردار ابراهيم باشا ، أخي أحمد باشا الهزار بارة ـ أي صاحب الالف قطعة ـ ، وذلك حين كان ذا ثلاثة أطواغ ·

وكان يُحصل للدفتردار المذكور منه أربعون ألف قرش ، ومقدار الخاص العائد لباشا هذا اللواء ـ ٢٣٠٠٠٠ ـ أقجة ـ عملـة متداولة ـ وفيه سبع زعامات ، وسبع وثمانون تيمارا ـ وهو

محصل الاعشار من الارضين ـ ، ورئيس جند ، وأمير لواء ، ورئيس مئة ٠ ويبلغ عدد جنده مع ما يجتمع من الجيجيه وجند الباشا نحو ـ ١٥٦٠ ـ ، وقضاؤه شريف يبلغ مرتبة ثلاثمائة أقجة ، ويحصل لقاضيه ستة أكياس ، وفيه شيخ اسلام ، ونقيب أشراف ، وكان أهله فقراء ، ولذلك لم يكن عندهم حكام زائدون ٠ وقلعة المعرة خراب ، والبلدة في مكان محجر ، وفيها ٨٠٠ دار مشيدة بالحجر جميلة ومختصرة ، الجملة ، وفيها ستة وعشرون معبدا ذا محراب ٠ وماؤها نبع يكون في شهر تموز باردا كالثلج ، وهذا الماء هو أحد المياه ذات الرائحة ، وقد اشتهر بذلك في كل مكان ٠٠٠ ـ

ـ ثم سرد حكاية أبي العلاء المعري لما كان ببغداد ، وأتوه بماء المعرة والتذ به ، وقال سبحان الله لابد أن يكون هذا ماء المعرة ، أو أتى به الى هنا ، لذلك اشتهر بين أهل البلاد العربية مثل : سبحان الله هذا ماء المعرة ، فأين هواؤها ٠ وفي الحق أن ماء المعرة وحلب وهواؤها لانظير لهما في الاقاليم السبعة ، وفي المعرة خان وحمام ، وأربعون الى خمسين دكانا ، وفيها انتشرت كروم التوت والزيتون ، وفي أرض المعرة القديمة دفن يوشع بن نون عليه السلام ،عاش مائة وعشرين عاما ، وقد رأيت له قبرين الاول في طرابلس الشام ، والثاني في المعرة ، ولعل أحدهما مقام له ٠ وفي المعرة مقام ومزار حضرة أبي العلاء (١٤) ٠

★

(١٤) الجندي ـ سليم : تاريخ معرة النعمان ج ١ ص ١٠٢ ٠ ولقد حصلنا على نص هذا الرحالة باللغة العثمانية ولمواقع اخرى ، وسنقدمه في الجزء الثاني ٠

نستنتج من نص اوليا جلبي أمورا هامة وهي :

١ ـ التقسيمات الادارية في ايالة حلب ـ أو ولاية حلب ـ :

كانت الدولة العثمانية تقسم المناطق التابعة لها الى ايالات · وفي اوائل القرن السابع عشر ـ زمن مرور أوليا جلبي كانت تؤلف ١٤ ايالة · وايالة حلب تنقسم الى ٧ ألوية وتضم ١٠٤ مقاطعات من درجة زعامت ، ٧٩٩ مقاطعة من درجة تيمار · والعساكر المفروضة على أصحاب المقاطعات ٢٥٠٠ ·

مجموع حاصل المقاطعات ١٢٠ ر ٧١٣ ر ٧ أقجه · وكان لواء حلب سنجق الباشا خاصة ٧٢٢ ر ٨١٧ والخيالة المفروضة عليه ١٦٣ ولواء معره خاص الـ ـ مير لواء ـ ٠٠٠ ر ٢٣٠ الخيالة المفروضة عليه ٤٦ · وعدد الزعامت والتيمار في لواء المعرة ـ ٦ ـ زعامت و٧٦ تيمارا ·

أما الدفتردار سنشير اليها في بحث رحلة ـ كرين ـ والتيمار والزعامت سنعود اليهما في الفصل الاخير ـ فصل الفصول ـ بالاضافة الى منصب ـ شيخ الاسلام ـ و ـ نقيب الاشراف ـ ·

كما ذكر جلبي بأن فيها ـ ٨٠٠ دارا مشيدة بالحجر جميلة ومختصرة في الجملة ·· اذن فان عدد سكانها كان يبلغ حينذاك حوالي ستة آلاف نسمة · كما ذكر بأن ماءها نبع بارد كالثلج في شهر تموز · وهذا صحيح لان الرحالة الانكليزي ـ كرين ـ الذي زار المعرة سنة ١٧٢٥ ذكر بأن ـ حمام الخان ـ والذي يسمى ـ حمام التكية ـ الذي تصله المياه

بقناة تمتد أيضا الى الجامع الكبير ـ وهذه القناة لابد أن تكون مياهها من نبع مجاور للخان والجامع · وحديثه عن قبر يوشع ابن نون ذكرناه في حينه فيما سبق في رحلة ـ الهروى ـ ·

★ ★

في عام ١٧٢٥ مر الرحالة الانكليزي كرين Green بالمعرة قادما من سراقب مارا بخان مرعي ـ خان السبل ـ ليقدم لنا عرضا شاملا لواقع المعرة العمراني وخاصة خان المعرة · كتب عنها يقول :

ـ معرة أو معرة النعمان التي هي في العربية ـ مرض النعام ـ كانت احدى المدن القوية ذات الاهمية ، كما يظهر في نقوش أثرية عديدة ، ذكرها كتاب الحرب المقدسة مرارا ـ يقصد الحروب الصليبية ـ اذ أخذوها من المحمديين ـ يقصد من المسلمين ـ بقيادة بيموند وريموند الكونت سان جيل ـ يسميه العرب صنجيل ـ · في عام ١٠٩٧ م جردوها من المعدات ومن كل شيء ، لكنها استعادت ازدهارها بعد فترة طويلة · في الوقت الحاضر فقدت كل عظمتها السابقة لتبقى قرية جيدة فقط ، حيث لاشيء يشاهد في كل ناحية سوى مخازن وآثار دارسة · ولعل أفضل بناء من بين جميع الابنية ـ الخان ـ الذي أسسه ـ مراد ـ أو كما نكتبه مشوها ـ أموراث شِلبي ـ · كان دفتردارا ، أو خازن حلب ـ أمين الخزينة ـ وفيما بعد في دمشق ·

هذا الخان واسع وقوي ومبني بحجر كبير بما فيه الكفاية ، وليس له شبيه بقاعته الرصاصية أو نوعا مختلفا عن خان ـ لندن ـ كصرح مربع الشكل ، مغلق وذو باحة فسيحة · يحتوي الجزء العلوي من البناء على غرف ظريفة مخصصة لخدمة كبار التجار

وموظفي القافلة · وتحته ـ أي تحت الجزء العلوي من البناء ـ يوجد رواق له أرضيات ترتفع بمقدار قدمين أو ثلاثة أقدام من الارض ، وهنا ينزل عامة المسافرين ·

في وسط الباحة مسجد صغير ، وكالعادة نطلق عليه جامع ، القبة مغطاة بالرصاص ، تماما كما في سطح الخان · فيه بركة ماء ظريفة وبئر عميق استخدم قبل جلب الماء ·

يستقبل الخان ثمانمائة مقيم من المسافرين مع خيولهم براحة وخدمة جيدة ·

هذا النوع من النزل التي وهبها مؤسسوها ـ أي جعلوها وقفا ـ يجد المسافر فيها الخبز والطعام الشرقي ولحم الضان مجانا · ويضاف الى الخان حمام ، وشارع فيه مقهى وخمسة أو ستة مخازن ـ حوانيت ـ في الجانبين ·

في النهاية الاخيرة للشارع يوجد قناة لجر المياه والتي تنقل الماء الى الحمام ، هذه القناة تمتد الى الجامع الكبير الذي يبعد حوالي ربع ميل ، فيه ست قبب ، وهيئة اسطحته خشنة رثة · وفي نهايته يوجد منارة جميلة أو برج لدعوة الناس الى الصلاة · وهذا كل مايمكن أن يقدم صورة جيدة عن المعرة ، والباقي في البلدة بسيط وفقير جدا · وعلى كل حال فانها مكان اقامة ـ سنجق بك ـ تحت ولاية باشا حلب (١٥) ـ ·



(15) GREEN : Ibid P, 24

في هذا النص الذي اقتطفناه من رحلة كرين عن معرة تبين لنا :

أولا ـ للمعرة اسما آخر هو ـ مرض النعام ـ كما كان يطلق عليها الاهالي حين زيارته ، وهو اسم نسمعه أول مرة ، ولعل سكانها حينذاك ظنوا اسم بلدهم 'نسب الى وجود مرض شاع فيها اسموه ـ مرض النعام ـ كما كان في حلب ، اذ عرف سكانها بأصحاب ـ حبة حلب ـ !!

ثانيا ـ ذكر أن الصليبيين فتحوا المعرة سنة ١٠٩٧ م والصحيح سنة ١٠٩٨ م ٤٩٢ هـ بعد فتحهم انطاكية وذلك بقيادة الكونت ريموند ٠

ثالثا ـ ذكر خان مراد جلبي له طابق علوي يحتوي على غرف ظريفة ومخصصة لخدمة التجار الكبار وموظفي القوافل بينما خان مراد جلبي يتشكل الآن من طابق واحد ، ولعل الطابق العلوي أزيل فيما بعد ٠ وأما خان أسعد باشا العظم فمؤلف من طابقين ٠ ولتوضيح نصه أكثر ، لابد لنا من الحديث عن الخانين والمواقع الاخرى التي ذكر وجودها في المعرة ٠

١ ـ خان مراد باشا : شيده مراد باشا جلبي سنة ٩٧١ هـ ١٥٦٣ م وهو حامي دفاتر الديوان السلطاني ـ الدفتردار ـ كوقف لابناء السبيل ودوابهم ، يقيمون فيه بدون أجر ، كما ذكرت ذلك كتابة منقوشة فوق مدخل الخان ٠ وكانت له أوقاف كثيرة تغطي نفقاته ٠ مساحة الخان سبعة دونمات ـ كما أفادنا السيد ـ كامل شحادة ـ رئيس دائرة آثار المعرة والمشرف على ترميم الخان بحيث أصبح ـ كما شاهدته ـ يضاهي خانات الدول الاخرى ـ تشغل مساحته هذه خانا كبيرا وتكية وجامعا وحماما وفرنا ومستودعا للغلال ، ومدارا للماء يغذي كامل المجموعة ومن

ثم سوقا تجارية في الجانب الغربي . وهذا الخان محكم البناء ومتقن الصنع للغاية ، يحسبه الرائي من حجر واحدة كبيرة الحجم كلسية ، وكأن بانيه قد فرغ منه لتوه ، وقوام البناء أربعة أجنحة معقودة السقف ذات مصاطب ومصطليات على المحيط ، تعلوها الابراج الرشيقة بقناطرها وأقواسها المدببة ، فيبلغ عرض الجناح بذلك ١٥م ، وتتوسط الاجنحة أربع غرف متقابلة . وان الجمال يبرز في قنطرة المدخل والباب الحديدي وكتابة مافوق المدخل وهي تحدد البناء بسطرين نصهما :

١ ــ قد بني هذه الواحة لوجه الله تعالى ، حامي دفاتر الديوان السلطانية مراد جلبي .

٢ ــ فغني منع فقيرا ودوابه شتى فعليه لعنة الله والناس بطرق شتى سنة ٩٧٤ هـ .

وفي الباحة الفسيحة ، مسجد برواق أمامي تعلوه قبة توضعت على زوايا ركنية حجرية متقنة الصنع ، وبظاهره بناء تكية كبيرة من الشمال ، ذات رواق داخلي تعلوه قبة مستطيلة تستند على ثمانية أقواس ومن تحتها فسقية ماء جميلة .

وثمة في الجناح الغربي معبر يؤدي الى الحمام بأقسامها الثلاثة ، براني ووسطاني وجوّاني ، وجميعها من الحجر الكلسي المتقن بزخارفه ونقوشه البديعة ، تعلوها القباب بأنواعها ،وقبة البراني مماثلة لقبة المسجد وبظاهر الحمام من الشمال ينتظم فرن ومستودع غلال ومدار ماء على دابة يغذي المجموعة كما أسلفنا ، ويتقدم الحمام من الجنوب سوق تجارية مسقوفة ذات صفين من المخازن في كل منهما ستة مخازن .

ولاهمية هذه الآبدة بكاملها ، فقد سارعت المديرية العامة للآثار والمتاحف الى استصدار مرسوم برقم ١٤٤ وتاريخ ١٩٨٣/٢/٨ بتحويلها الى متحف محلي للمدينة ، يضم آثار المنطقة وأمائر تقاليدها وعاداتها · ونضيف ان واجهة الخان الخارجية طولها ٦٥ مترا يتوسطها مدخل كبير مايزال محتفظا ببنائه الاصلي ، وتعلوه قنطرة ، وفي وسط الخان ساحة كبيرة مستطيلة أبعادها ٣٠ر٥١ م × ٤٠ر٤٢ م ·

٢ ـ خان أسعد باشا العظم : يقع في الجهة الجنوبية من الخان السابق تتوسطهما ساحة ذات حديقة بناه أسعد باشا العظم سنة ١١٦٦ هـ ١٧٥٣ م حينما كان واليا على دمشق · هو مشابه للخان السابق وان كان أقله رونقا · طول واجهته ٦٥ مترا ، على جانبيه مصطبتان ، وذو مدخل جميل تعلوه قنطرة كبيرة · له طابق ثان ، مخصص للمسافرين المميزين ـ كالتجار والضباط ـ · مربع الشكل وله ساحة مرصوفة ببلاط حجري يتوسطها مصلى صيفي ، ويحيط بها أربعة أروقة يقوم كل منها على عشر قناطر · ويلي الاروقة صف من الغرف ·

٣ ـ المنارة : وصفها بقوله ـ منارة جميلة أو برج لتدعو الناس الى الصلاة ـ يقصد بها منارة الجامع الكبير ، لانها أجمل أثر عمراني في المعرة ، ليس لها شبيه في البلاد الاخرى الا منارة الجامع الكبير في حلب · مؤلفة من ستة أبراج ، بالاضافة الى برج سقفها العلوي ، وهي متساوية في الطول والعرض ·

وفي كل برج اربع نوافذ من جهاته الاربع ، متساوية في الشكل والحجم · وفي الوسط غرفة صغيرة كانت توضع فيها المصابيح التي توقد في شهر رمضان ·

يحتوي أحد أبراجها على بلاطات ، وفي احداهـا في الوسط رمز الصليب ضمن دائرة كما هو شائع في كثير من أوابد المنطقة ٠

هناك كتابة تشير الى تاريخ بنائها عام ٥٧٥ هـ ١١٧٩ م على يد قاهر بن علي بن قانت ، بالاضافة الى كتابتين اثنتين تشيران الى الترميم الذي جرى للمئذنة بعام ٩٠٩ هـ ١٥٠٣ م ٠

★

اما قوله ـ مكان اقامة سنجق بك التابع لولاية باشا حلب ـ فقد كانت التقسيمات الادارية في العهد العثماني في سورية كما يلي :

١ ـ ولاية حلب ٠

٢ ـ ولاية دمشق ٠

٣ ـ ولاية طرابلس الشام ٠

وكانوا يدعون كما قال الرحالة Volney فولني الباشوية Pachalik المنطقة التي يعينون عليها حاكما برتبة باشا وفي اللغة العربية ـ وال ـ وهو الحاكم الاعلى في الولاية ٠ وفي أوائل القرن السابع عشر إيالة ، يليه المتصرف ثم القائم مقام فالمدير والولاية تقسم اداريا الى سناجق اي أن المعرة زمن مرور كرين كانت بمرتبة سنجق ٠ والتي تعادل محافظة في عهدنا ٠ اما الدفتردار وهو اللقب الذي أطلق على مؤسس خان التكية ـ مراد باشا جلبي ـ يقابل في عصرنا مأمور المالية ٠ اذ كانت كل ولاية لها مشرف لتسيير أمورها المالية ، وبعدئذ أطلق لقب دفتردار على وزير المالية المركزي بالقسطنطينية ٠

أما منصب دفتردار الشام فكان اسم دائرته ـ دفتر دارية الشام ـ وهي دائرة الشؤون المالية في ولاية الشام . والدفتردارية بعامة : تعتبر احدى الادارات الاساسية في الدولة الى جانب الديوان . وكانت تدعى أحيانا باسم ـ الخزينة ـ و ـ الخزينة العامرة ـ [١٦]

★ ★

وتمضي سنين قلائل ليطل علينا رحالة انكليزي آخر يدعى بوكوك Pocock عام ١٧٣٨ م وليقدم لنا ـ ولاول مرة ـ بعضا من تاريخ المعرة قبل الاسلام فلنتابع حديثه عنها ، حيث كان قادما من حماه : ـ ان معرة ـ بلاشك هي آرّا Arra الواقعة على مسافة ثلاثين ميلا في طريق السفر من ابيفانيا Epiphania ومن الممكن أن تكون كذلك مذكورة في ميرونياس البطليمي Maronias of Ptolemy وان يكون سكان هذا المكان من Maratocupreni الذين ذكرهم اميانوس ماركيلينوس Amonianus Marcellinus كما ذكر أن مدينتهم دمرها فالنس Valens وكما أوقع التخريب في جميع أنحاء القطر .

ومع ذلك فانه يقال عن هذا المكان انه يقع بـ ٣٩ ميل عن ـ ابيفانيا ـ رغم ذلك لم أتقيد بأكثر من ٢٤ ميل ، لان أحمال القافلة بأثقالها قطعتها خلال يوم واحد شاهدت طيلة هذا الطريق من ـ رستون Restoun عددا كبيرا من الصهاريج ـ الآبار ـ المحفورة في الصخر على جانبي الطريق ، لتحتفظ بمياه الامطار ، ومن حوالي أكثريتهم ، تجد بعض الخرائب القليلة ، والتي لاحظت الكثير منها ، خمنت ولابد

---

(١٦) انظر المجتمع الاسلامي والغرب لبدوين ج ١ ص ١٧٧ وجزء ٥ وكذلك بلاد الشام ومصر للدكتور عبد الكريم رافق ص ٦٨ .

بأنها كانت بعض القرى القديمة · أما ـ معرة ـ فبلدة صغيرة وبسيطة جدا ، وفي طرفها الخارجي ، خان جميل ، لكن لاشيء جدير بالذكر باستثناء برج مربع جميل ، احجاره منقوشة ومبني في أحد جوامعهم ·

وخربة صغيرة لكنيسة قديمة جدا ، والتي بدت بأنها تنتمي الى بناء متمازج بها في وقت متأخر جدا ·

ومن الممكن ان تكون كذلك ديرا قديما ، او زاوية محمدية · ان معرة تحت سلطة ـ آغا ـ مستقل · ولما كان على الفرنجة دفع رسوم باهظة ، فان رجال الآغا قدموا ليطالبونني بالدفع ، لكني أخبرتهم في حوزتي رسالة للآغا ، وينبغي علي الذهاب لتسليمها اليه ، فلما تيقنت بأنها لن تجد قبولا لديهم ، وسيسرون بأخذ بعض المال ، لتلكئهم باستلام رسالتي ، تيقنت بأنهم سيمزقونها ، حينئذ أرغمت على دفع كل ماطلبوه مني (١٧) ·

★

من نص بوكوك هذا عرفنا بعضا من تاريخ معرة ، قبل الاسلام · أما بلدة ـ ابيفانيا ـ فهي حماه الحالية ، اذ ازدهرت في عهد السلوقيين وأطلقوا عليها هذا الاسم · وهذه عادة اتبعها اليونانيون في كثير من مدن القطر وبلاد الشام · ومثالنا على ذلك :

تدمر = بلمير حلب = بيروا منبج = هيربوليس الرها = ادسا
الرصافة = سرجيوبولس الرقة = قلينيقوس ولانطيوفوليس
بيروت = دربي بعلبك = هليوبوليس جبيل = بيبيلوس
رأس العين = ثاودوسيوبوليس ميافرقين = مرتيروبوليس

---

(17) POCOCK : Ibid : P - 145

وهكذا غيروا الكثير من أسماء البلدان لكن ماان زال حكمهم حتى عادت أسماء البلدان الى أصالتها المحلية ·

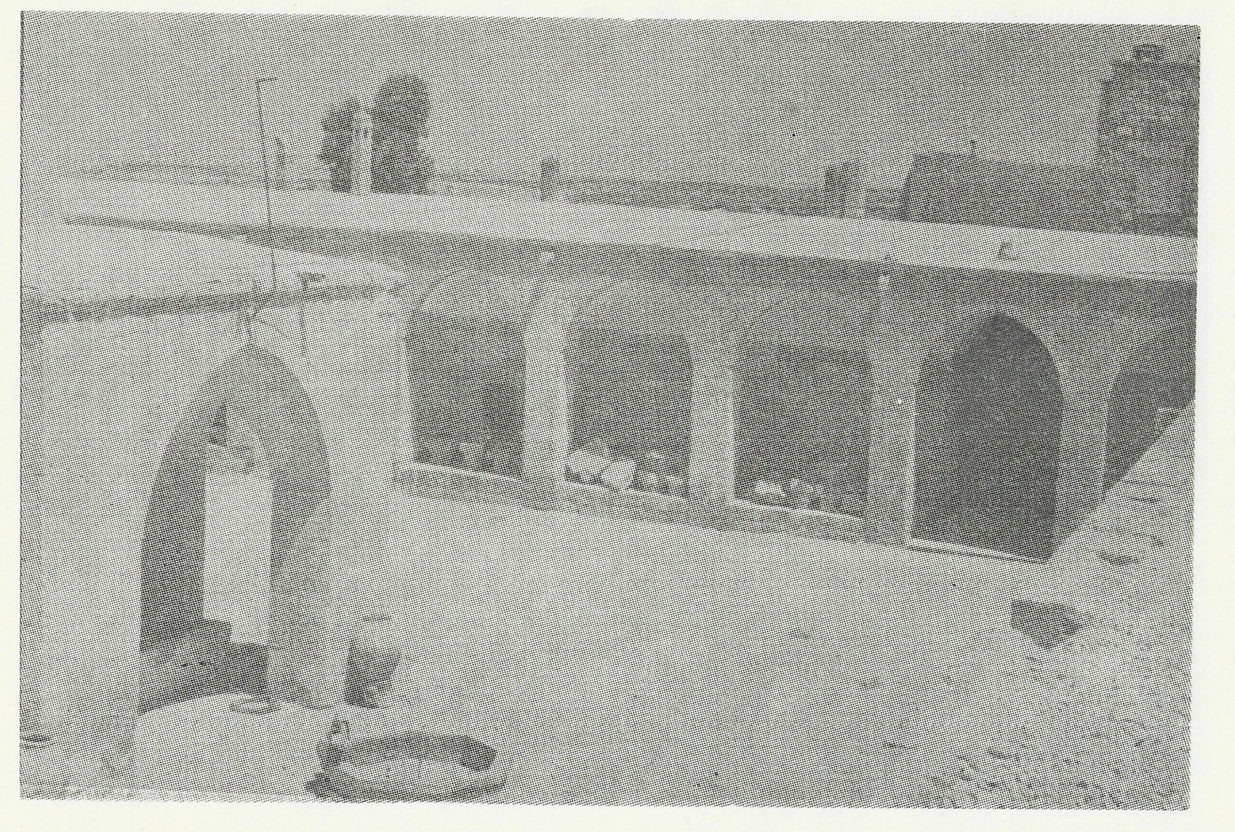
اما ذكره ـ ميرونياس البطليمي ـ فهو اسم كتاب جغرافية لبطليموس ، وهو مؤلف مشهور عند القدماء ، واصل المؤلف من مصر كما ذكر بأن أصل أهل ـ معرة ـ من سكان ـ ماراتوكبريني ـ واليهم ينسب اسمها ـ مارا ـ وعبر الزمن تحول اسمها الى آرا أوعارا · ونحن نؤيد هذا وان كان اسم ـ معارة ـ شائع في المنطقة ، ولايخفي فان في لغات القدماء لاتمييز بين كثير من الحروف وعبر الزمن تغيب بعض أحرف لتحل محلها أحرف أخرى ·

أما ـ اميانوس ماركيلينوس ـ فهو مؤرخ سوري معروف بكتابة التاريخي Res Gesta اي ـ الاعمال ـ ولد في مدينة انطاكية في القرن الرابع الميلادي ـ ٣٣٠ ـ ٤٠٠ م ـ ألف التاريخ الروماني في اللغة اللاتينية ، مغطيا الاحداث الواقعة مابين سنتي ٣٥٣ ـ ٣٧٨ م · عرف بأمانته في تسجيل الاحداث التاريخية ، اذ كان شاهد عيان للكثير منها · ومن أقواله ـ ان المؤرخ الذي يطمس الوقائع عن قصد ليس أقل مغالطة من الذي يختلق مالم يكن ـ حاول الاهتداء الى تفسير منطقي للتاريخ كما أشار بوكوك استنادا للمؤرخ الانطاكي ـ اميانوس ـ الى أن ـ معرة ـ تعرضت لغزو ـ فالنس ـ Valens فدمرها كما أوقع التخريب في غيرها من مدن القطر · وفالنس هذا امبراطور روماني اعتنق الاريوسية · امضى بضع سنوات في انطاكية · حكم بين ٣٦٤ ـ ٣٧٨ · وهكذا وجدنا هذه البلدة بموقعها الهام على مفترق الطرق ، وعمرانها المستمر ، محط أمل كل فاتح بغزوها وسلب خيراتها ·



خان مراد باشا في معرة النعمان

ـ المدخل ـ ٩٧٤ هـ متحف المعرة حاليا



خان مراد باشا في المعرة ـــ الباحة والاروقة والمسجد

ومع ذلك ، فانها استعادت اهميتها ، وكانت مزدهرة في أوائل الفتح الاسلامي .

اما ـ رستون ـ فهي بلدة الرستن ـ الحالية الواقعة على الطريق الرئيسي مابين حمص وحماه . مركز قضاء ـ الرستن ـ في محافظة حمص وهي ـ أريتوزا ـ القديمة . كما حكمها أمراء من العرب قبل الفتح الروماني . وفي القرن الاول الهجري أصبحت قاعدة أمراء العرب .

وفي حديثه عن ـ الخان ـ الذي أعجب به فانه كان يقع خارج البلدة معنى هذا أن البلدة كانت ممتدة في الجهة الغربية الشمالية من الخان ثم امتدت الى الجهات الاخرى والبرج الذي ذكره فهو مئذنة جامع الكبير التي ذكرناها سابقا .

والجديد الذي يقدمه لنا تلك ـ الخربة ـ التي يرجح بأنها أوابد كنيسة قديمة أو دير يعود للقول قد تكون ـ زاوية محمدية أي اسلامية كعادة الاوربيين في اطلاق صفة المحمديين على المسلمين . ولكننا نخالفه الرأي بأن تكون آبدة حديثة ، فلا يعقل أن يتركها أهلها خربة هكذا دون ترميم ان لم تكن موغلة في القدم ، خاصة ان كانت زاوية اسلامية ، وفي العهد التركي الذي تبنى الزوايا والتكايا كثيرا من اهتمامه ، فكيف يدع هذه دون اهتمام لذا نرجح بأنها آبدة لكنيسة قديمة أودير .

وذكر كذلك ـ معرة تحت سلطة آغا مستقل ـ يشير بذلك الى حاكم المعرة الذي يطلق عليه لقب آغا . كانت البلدة تابعة لولاية الشام في زمن السلطنة المملوكية هذه الولاية التي امتدت من معرة النعمان حتى العريش . ـ ولكن ثورة الغزالي جعلت العثمانيين يعيدون النظر في حدود هذه الولايات بشكل لايتمكن معه الثائرون من

استغلال اتساعها وضخامة مواردها المالية ، فاقتصرت ولاية الشام بعد ذلك ، على المنطقة الممتدة بين دمشق والعريش وقسمت بدورها الى صناجق ،٠٠ وقسمت ولاية حلب الى الصناجق التالية : حلب مركز الولاية ، أضنة ، كلس ، بيره جك ، بالس ، منبج ، معرة النعمان ، وتركمان حلب ، واعزاز ٠ ــ هذا وقد شرحنا معنى ــ آغا ــ في الفصل الثالث ــ منطقة ريحا ــ فليراجع في حينه ٠

★ ★

وفي عام ١٨٠٥ مر الرحالة ستيزن Steezen بالمنطقة قادما من منطقة ريحا فكتب يحدثنا قائلا ــ ٠٠٠ في حوالي الرابعة ٠٠ أصبح الطقس أبرد مما كان عليه في الظهيرة حينذاك وصل الينا اثنين مسلحين من معرة Maàrra والتي تبعد عنها حوالي نصف ساعة ٠ طلبا من رئيس القافلة ــ كراجية ــ وكذلك طلبا منا بعض الهدايا والنقود ولكنني اعطيتهم قرشين ٠

فالمعرة هي أول مكان باشوية من دمشق الاحد ١٣ نيسان : كان مساء البارحة جميلا جدا ، اذ بـدا القمر بدرا والنجوم ساطعة ، مما دفعنا للبقاء ساعات طويلة سهارى ٠ وبعد منتصف الليل ، سقطت الامطار الغزيرة وبللت نصف الفراش ٠ كان بردا قارسا ٠ استيقظنا الساعة الخامسة صباحا ٠ وصلنا الى منطقة حقـول صخرية صحراوية ٠ شاهدنا كثيرا من الاحجار الكلسية المرصوفة فوق بعضها الآخر ، وأصبح الطريق أضيق مما كان عليه وأصعب وأخطر ٠ ووصلنا بعد ذلك الى بعض الحقول الصغيرة المكتظة بأشجار الزيتون ٠ وفي الساعة السادسة والنصف وصلنا الى قلعة النعمان ٠ وجدنا جدرانها مخربة ومهدمة ، ويقطن فيها بعض العائلات الفقيرة جدا وصاروا يطلبون منا بعض الفرنكـات ٠

وبقرب القلعة تماما كانت بلدة معرت النعمان هكذا كتبها بالعربية Maàrrat el Nömân ، يحيط بها سور قديم لازال بابه مغلقا. عدد سكانها ١٥٠٠ نسمة وتقع على مرتفع بسيط كالحصن . شوارعها غير منتظمة وغير مبلطة ـ مرصوفة ـ وفيها بعض المساجد ولكن واحد منهم له مئذنة ولما أردت زيارته منعني رئيس القافلة من دخوله . لم أشاهد رجال الشرطة الذين تكلم الناس عنهم كثيرا ، اعتقد بأن هذا الكلام لم يكن سوى قول من رئيس القافلة ، كي يهاب الناس السلطة ولايسرقون بعضم الآخر .

يزرع الناس في المعرة التنباك في حقول صغيرة قرب القلعة . أما الماء فلم اشاهده سوى في برك صغيرة خارج هذا المكان . وفي الطريق شاهدنا بعض التلال الاصطناعية الصغيرة في جانب بعضها الآخر ، وعدا عن ذلك فقد كانت فسيحة ، ولكن الطريق سيء جدا وغير مرصوف اطلاقا (١٨) .



لم يصب الرحالة بالرأي بأن المعرة هي أول مكان باشوية من دمشق بل هي تابعة لباشوية حلب ـ ولاية حلب ـ . كما سمى القلعة باسم ـ النعمان ـ ظنا منه بأن بانيها يدعى النعمان وقد سبق وأوضحنا ذلك في بحث سابق . كما ذكر وجود سور المعرة الى اوائل القرن التاسع عشر بالاضافة الى وجود باب مغلق صباحا حيث كان يفتح في وقت معين .



في عام ١٢٣٢ هـ ١٨١٦ م مر الشيخ اسماعيل الكيالي بالمعرة قادما من خان شيخون فكتب مرافقه محمد الكيالي قائلا ـ الى ان

---

(18) STEEZEN : Ibid : P - 8

وصلنا مدينة المعرة من غير ماشين ولامعرة ، فخرج لملتقانا نخبة السادات الاكابر ابن العم الاكرم الشيخ عبدالقادر وكذا من هو بالكمالات معروف ابن العم المحترم الشيخ عبد الرؤوف · فنزلنا في مكان ابن العم وزال عنهم الهم والغم · وقد سبق منا في الخطرة الاولى لزيارة حماه بقصد على الشان أقمنا ستة أيام في بلدة معرة النعمان · وقد من الله علينا بزيارة السادات أهل المحيا الذين هم في قبورهم أحيا ، وهم في مدفنين في ساحة واسعة فقرأنا لهم الفاتحة والتمسنا من أنوارهم الساطعة وعن يمين الداخل الى تلك الساحة حوش صغير سماوي ، وفيه حدث لم يدانيه قبر ولاله مساوي فعلى ماشتهر عند أهل تلك البلدة من الخاص والعام ، انه حدث سيدنا شيث عليه الصلاة والسلام ، فدخلنا بسكينة ووقار ، ووقفنا بذلة وانكسار ، وشاهدنا تلك الانوار الطافحة ، ثم قرأنا لحضرته الشريفة الفاتحة · ثم خرجنا من مقام هذا الطود الراسي وشربنا من الماء الفرات المنسوب للآسي ، وكذا في تلك الخطرة ذهبنا لزيارة وسيع الرحاب واحضرة احد الانبياء والرسل الكرام سيدنا يوشع عليه الصلاة والسلام ، ومرقده الشريف في مسجد لطيف وهو على حده في مقصورة منفردة ، فدخلنا تلك البقعة المنورة ، وتملينا بمشاهدة أنوار حضرته المطهرة ، ووقفنا بالذلة والخضوع والحضور مع الخشوع ، وقرأنا الفاتحة الى ذلك الجناب ، وتوسلنا به في نيل المرام الى رب الارباب ، ثم خرجنا خارج البلدة لزيارة رأس الزهاد العارفين وخاص خواص السادة العباد التابعين ، من حباه شعارى وسنني سيدنا ـ اويس القرني ـ فدخلنا المقام السني المفرد ، والتمسنا من حضرته المدد ، وقرأنا ماتيسر من القرآن مستشفعين به في الموت على الايمان · ثم خرجنا من مقامه ، واعطينا ماقسمه المولى لخدامه · فمررنا في الطريق على مدفن من رقاعك الامام الجليل ، والفاضل النبيل ، ـ أبي العلا ـ فقرأنا له الفاتحة

ودعونا الله تعالى بالدعوات الصالحة ، وذهبنا لزيارة ذي الامناع والاعطا الولي الشهير عند أهل البلدة بالشيخ ـ عطا ـ ، ولعله الصحابي الكبير ذو النور الوضاح سيدنا ومولانا ـ عطاء ابن رباح ـ ثم ذهبنا للجامع الكبير ذي الرحبة الواسعة والحرم الباهي النفير · فشاهدنا منارته محكمة البنيان ، عالية الاركان ، تفوق في الزخارف والصناعة الهندسية ، منارة حلب المحمية · ورأينا فيه بركة ماء من بئر معين ممدودة ، وكذا فيه بئر من جمع ماء المطر شهير بالصفاء والبرودة · وقد ذهبنا للزاوية الكيالية لزيارة جدثي صاحبي الانوار المضيئة ، احدهما الشيخ الجليل صاحب السر الظاهر ابن العم الشيخ اسماعيل والد الشيخ عبدالقادر ، والثاني هو أخو حضرة الاستاذ والسيد السند الملاذ نخبة الاولياء الامجاد المنوح بالاسعاد والامداد ، درة صدفة الافراد السيد الشيخ احمد بن حضرة السيد الشيخ عبد الجواد · فدخلنا في معية الاستاذ لمدفنهما ، وقرأنا لهما الفاتحة الشريفة ، راغبين في بركاتهما المنيفة ، وفي تلك الخطرة المذكورة دعانا لضيافته ذو المآثر المشهورة أمير الامراء سليل الوزراء مسلم ذلك الآن السيد ـ حسين بك عظم زادة ـ جليل الشأن وكذا حميد الاخلاق والاوصاف بطال أفندي النقيب على الاشراف ، وكذا اسد البحرين وليث الوغى ابن آغت كفرومة باش آغا ، وكذا الصديق المحب ذو اللطف والايناس مصطفى آغا التركماني أخو عباس · واما في هذه الخطرة الثانية ، لكثرة الملاقين ، وحصول المشقة والكلفة للداعين رددنا دعوات متعددة · ولم نمكث في المعرة الا ليلة واحدة · · · ـ

★

في النص السابق ذكر كاتب الرحلة الشيخ محمد الكيالي بعضا من شخصيات البلدة وخاصة أقرباؤه ذوي المكانة الرفيعة والسمعة

الحسنة كالشيخ اسماعيل دفين الزاوية الكيالية ـ وهو غير الذي استقبلهم ـ · هاجر الى المعرة عام ١١٣٠ هـ ودفن فيها وكذلك الشيخ أحمد الكيالي بن عبد الجواد دفين الزاوية أيضا وهو أخ الشيخ اسماعيل صاحب الرحلة · وأما الشيخ عبدالقادر الذي استقبلهم فوالده الشيخ اسماعيل دفين الزاوية المذكورة · يطلق على الزاوية المذكورة ـ زاوية بني الكيال ـ كانت تقع جنوبي البلدة بنيت عام ١١٦٢ هـ كما هو مكتوب على عتبة بابها لكن البناء في الواقع انتهى عام ١١٥٧ هـ · واما قبر يوشع بن نون فقد تحدثنا عنه لدى زيارة الهروى للمعرة · واما ـ أوَيس القرني ـ الذي ذكره بأنه مقام فهذا صحيح ، لان أويسا قتل في صفين مع علي بن أبي طالب والآن يقع بالقرب منه مسجد يدعى مسجد اويس القرني أو السلطان ويس كما ذكر أيضا ـ نبي الله شيث ـ قبره في المعرة لكنه ليس قبرا بل هو مقام ·

★ ★

وفي أواخر القرن التاسع عشر زار المعرة الاب لويس شيخو في عام ١٨٩٥ قائلا ـ ليس بعد خان شيخون بلد يستحق الذكر سوى المعرة ، وهي معرة النعمان نسبة الى نعمان بن بشير من ذوي الصحابة وتمييزا لها عن معرة أخرى أصغر منها بجوارها اسمها ـ معرة الحرمل ـ وكان وصولنا الىالمعرة عند غروب الشمس بعد أن اجتزنا في بساتينها التي تكتنفها · وهذه البساتين هي اليوم قليلة الاتساع · وكانت في سالف الزمان تمتد بضعة أميال · والمعرة بلدة قديمة سبقت عهد الاسلام وان لم يعرف من أمرها الا النزر القليل ، ومما يدل على قدمها القبور العادية التي وجدت حديثا في ريفها والآثار الطامسة التي تعاين في جهاتها والنقود الرومانية التي اكتشفت في ردومها ومنها مايرتقي الى القرن

الثالث للمسيح . وقد رأينا في بعض أحيائها أبوابا من الحجر الاسود الصلد نقشت على وجهها نقوش نصرانية قديمة بينها رموز الى السيد المسيح كالحرفين اليونانيين O & A او اشارة الى اسمه الكريم بالحرفين X P او الما بسر قربانه الاقدس كصورة الخبز وهذه الابواب كما يظهر من القرن السادس للمسيح . وكان في المعرة أساقفة .

وقد أضحت هذه المدينة بعد الفتح الاسلامي عامرة ، اشتهر فيها قوم من كبار الرجال في مقدمتهم أبو العلاء المعري الشاعر المتفنن الطائر السمعة الذي برأنا ساحته في احدى مقالات المشرق ــ ٤ : ١٠٦٨ ــ من وصمة الكفر الشنعاء . وقبر هذا العلامة الخطير محفوف بالكرامة . رأيناه في احدى زوايا البلدة وعلى ضريحه كتابة قديمة بالكوفي . وبقرب رمسه مدفون بعض من تلامذته . وفي غرفة أخرى مجاورة لقبرهما قبر الشيخ محمد الغباري .

وقد خرج من المعرة فضلا عن هؤلاء أدباء كثيرون منهم الشاعر أبو الفتح ابن ابي حصينة المعري الذي اشتهر بخدمة بني مرداس أصحاب حلب ومدح كبيرهم نصر بن مرداس . ومنهم القاضي أبو القاسم حسن التنوخي المعري المتوفى سنة ٤١٩ هجرية ١٠٢٨ م وله مصنفات ووصايا وأشعار . ومما يستحسن قوله :

انـع الى من لم يمت نفســـــه

فانـــــه عما قليل يمـــوت

ولا تقـــل فات فـــلان فمـــا

في ســائر العـــالم من لايفـــوت

ألا ترى الاحــداث مملــوءة

لماخـلت من ساكنيهـا البيـوت

فاقنــع بقوت حسب من لم يكـن

مخلدا في هـذه الـدار قـوت

والمعرة اليوم قائمقامية تابعة لولاية حلب ، وأهلها نحو ٥٠٠٠ نفس وكان نزولنا في الخان الذي شيده مراد المعروف بالحلبي منذ نيف وثلاثمائة سنة ، وبازائه خان آخر من بناء سنان باشا . وللمعرة قلعة خربة . وفي ظاهرها على بعد فرسخ منها قبر عمر بن عبد العزيز . أما جامع المعرة فيه قسم قديم صبر على صروف الزمن من ذلك منارته الحسنة الهندسة التي قيل لنا انها من بناء عمر ابن الخطاب ولعل القائل اراد عمر بن عبد العزيز السابق الذكر . والقسم الآخر كان سقط بسبب الزلزال فجدد بناءه أبو الفداء صاحب حماه والكاتب الشهير . وممن لقيناهم من رجال الفضل في المعرة جناب مفتيها سعدي أفندي الذي حظينا بزيارته فاحتفى بنا واكرم مثوانا . وذكر لنا أيضا بالخير الشيخ محمد رمضان الذي خلف أباه بالتدريس والعلوم العربية .

وعلى مقربة من المعرة في غربها وشمالها قرى شهيرة بآثارهـا النصرانية كالبارا وسرجلّه والحس ودانا فيها مدافن وبقايا أديرة وكنائس وحمامات ومحابس منقورة بالصخر ، عليهـا الكتابات اليونانية والرموز الدينية . وقيل لنا أن في سرجلّة وجدت فسيفساء ذات نقوش بديعة تمثل حيوانات ونباتات وأصناما الا أن جهل البعض أدى الى اتلافهـا (١٩) .

---

(١٩) شيخو : نفس المصدر ص ٩٢٠ ـ ٩٢١

ليس بامكاننا التعليق كثيرا على ملاحظات الاب لويس شيخو فهو أشهر من علم ، ومن الثقاة في البحث العلمي الموثق ولكنه وقع في خطأ باني خان المعرة الثاني ، اذ ذكر انه من بناء سنان باشا وهذا بناه اسعد باشا العظم كما ذكرنا سابقا . وكذلك أخذه بأقوال الناس في تحديد زمن بناء منارة جامع المعرة الى عهد عمر ابن الخطاب او عمر بن عبد العزيز ، وهذا لايصح كما ذكرنا آنفا . وكثيرا ماينسب الناس أي جامع أو مسجد يسمى - العمري - الى زمن عمر بن الخطاب ، مما يوقعهم بخطأ تاريخي كبير . اذ لم يأخذ بالاسلام جميع أبناء المنطقة بسرعة كما يتصور لاول وهلة ، وكذلك عبارة - العمري - هي أبعد من أن تنسب الى عهد عمر بن الخطاب او عمر آخر فهي تعني غير ذلك بتة . ولكن جامع المعرة يعود الى عهد عمر - ر - ومايجاور المعرة في غربها وشمالها من خرب وأوابد أثرية ، فأمر يستغرق مجلدات وليس مجال عرضها الآن ، لكننا سنذكر البارا وغيرها في الفصل الثالث - منطقة ريحا .

اما معرة الحرمل فهي قرية - معرتحرمة - الحالية او معرة حرمه الواقعة جنوب غرب معرة النعمان بـ ٢٣ كم وادلب ٧٢ كم وهي تابعة لناحية كفرنبل عنها ١٠ كم سكانها ٣٨١٠ نسمة . ومازال كبار السن يلفظونها باللام معرة الحرمل . وما ذكره عن أبي الفداء فغير صحيح أيضا فالحجر الاثري الدليل القاطع عن تاريخ أية آبدة من الاوابد .

★ ★

في عام ١٣٢٨ هـ ١٩١٠ م مر بالمعرة الامير محمد علي باشا قادما من حماه فقال - فمررنا ببلدة تعرف بمعرة نعمان نسبة فيما يقال الى النعمان بن بشير . وهي من القرى التي اشتهرت بالحروب

الصليبية · ويوجد فيها خربة مهدمة يقال انها كانت قلعة نعمان وسألت أصحابنا عن عدد سكانها الآن فقالوا انهم يبلغون سبعة آلاف نفس وشاهدنا حول القرية مروجا وأحراشا واسعة يقال ان أكثر غرسها من شجر التين والفستق ـ [20] ·

★

هذا النص القصير تفسره لنا النصوص السابقة ، غير أن قوله عن القلعة انها ـ قلعة نعمان ـ بعيد عن الحقيقة والواقع التاريخي · ونعتقد أننا قدمنا مافيه الكفاية عن القلعة وغيرها من أوابد المعـرة ·

★ ★

وفي أواخر النصف الاول من القرن العشرين زار ـ البستاني ـ بلدة المعرة ، وهو عهد قريب منا ، ولكنه أصبح غريبا عنا بعض الشيء ، حيث التطور العمراني السريع والتغيرات المفاجئة في المعرة ، توضح لنا ذلك اذا قرأنا نصه كتب يقول ـ وبعد أن نمر أمام جوبر ومعرة دبسه ـ وهي أحـدى ـ المعـارات الكثيرة في تلك المنطقة ـ نقطع خان السبيل ، وبابيلا فتطل علينا أطلال دانا ، ولاوقت لدينا لزيارتها وتفقدها ·

فنستعيض عنها بزيارة معرة النعمان على نحو التسعين كيلو مترا من الشهباء ، منعطفين اليها عن الطريق الى اليمين · وهي قديمة الموقع · قامت مقام مدينة عريقة كان اسمها أرّا أو عرّا · أما اسمها الحاضر فآرامي الاصل بمعنى المغارة ، واما نسبتها فلعلها

---

(٢٠) نفس المصدر ص ١٤٤ ·

الى النعمان بن بشير الصحابي ، واليها على عهد معاوية . وقد عرفت في زمن الصليبيين باسم مار" ، دخلوها في ٢١ كانون الاول ١٠٩٨ ، واقاموا فيها نحو أربعين سنة حتى استرجعها زنكي سنة ١١٣٧ ، وغدت متعلقة اداريا بمملكة حماه على عهد الايوبيين والمماليك . ومن أشهر آثارها مئذنة الجامع الكبير الراقية الى آخر القرن الثاني عشر ، وقبر أبي العلاء المعري في بنائه الحديث .

أوَليس غريبا ان نجمع بين الصلاة وقبر الزنديق ؟

لقد جمعت بينهما الآثار ، كما جمع المعري نفسه ، في شخصيته الغنية الغريبة ، بين مظاهر التقوى ، ومباطن الكفر حتى ليحار الناقد في الحكم عليه ، مرجئا الامر فيه الى الحق ، سبحانه ، وهو يرى مالا يرى البشر في بصرهم الكليل .

على انهم حكموا بالزندقة على الشيخ الاعمى . وتناقلوا الحكم حتى اليوم . وهذا أحد شيوخ المعرة من المعاصرين ، وقد سأله احد المستشرقين ، من زوار المعرة في سنة اليوبيل الالفي ، عن قبر أبي العلاء ، فاستدعى أحد صبيان الازقة وقال بازدراء : — دل هالخنزير عا قبر الزنديق ! — وأزور سائرا في طريقه .

لعل هناك منافسة أو غيرة ، أو — كما نقول اليوم — عداوة كار تذر قرونها من خلال الف سنة .

وما القول في حكم ياقوت ، ياقوت الرومي ، ينسب المعري الى الحمرنة ، في رده على نقد الاعمى للشريعة القاضية بقطع يمين السارق اذا ما اختلس ربع دينار ، وبفديتها بخمسمائة دينار في حال قطعهـا :

يدٌ بخمس مئين مسجد فديت
ما بالها قطعت في ربع دينار
تناقض مالنا الا السكوت له
وان نعوذ بمولانا من النار

فيقول ياقوت كأن المعري حمار لايفهم حكمة الشريعة ·

ولعل هذا من باب مداعبة الجيران ، وياقوت حموي الاقامة ، كما لا يخفى ·

بيد أن المجال واسع لتكفير المعري ، وتبديعه ، وزندقته ، سعته لتبرئته وتبريره والاشادة بتقواه ، وعلى كل ذلك في شعره الشواهد الكثيرة · بل ان فيه شواهد يستند اليها خيال نقاد العصر ، في تأييد جميع آرائهم ونظرياتهم الحديثة من مظاهر التفلسف في الخلق والانسان ، والنظر في نواميس المجتمع حتى مبادىء المساواة والاشتراكية ، بل حتى أبجدية العميان النافرة · ولقد كان عجبا حقا أن ينتبه السامع لكل ما القي من خطب وقصائد ، طول اسبوع المعري ، في دمشق وحلب واللاذقية والمعرة ، فيعود بصور متعددة حتى التناقض لذاك الشيخ المسكين ، ويشهد نموذجا من عملية تقسيم الاموات على مذاهب الاحياء واحزابهم ونزعاتهم ·

★

ونصل الى بناية الضريح · واذا أعمال الترميم قائمة ، فالحجارة مبعثرة في المدخل ، والوحول متراكمة اثر المطرة الاخيرة · على أننا نستسهل المصاعب في سبيل زيارة الشيخ ، فتفتح لنا الابواب · واذا بنا نقف واجمين حول القبر ، متمثلين شخصية من يعلوه هذا الحجر الحقير ، مستعيدين خاصة آراءه الراعبة في الموت ومصير الاجساد :

فليت شعري هل هو مستريح في تلك ـ الضجعة ـ بعد طول ـ السهاد ـ وقد ـ أصبح في لحده ، على وحدته ، لايحتاج الى شيء في الدنيا ـ ؟

وماذا صار برفاته ؟ وقد طالما نصح الفخورين بالتواضع ، منذرا اياهم بتحول رفاتهم الى آنية الفخار :

فلايمسِ فخارا من الفخر عائد
الى عنصر الفخار للنفع يضرب
لعل اناء منه يصنع مرة
فيأكل فيه من يشاء ويشرب
ويحمل من أرض لارض ، ومادرى
فواها له ، بعد البلى ، يتغرب !

أوَ لايزال المعري باقيا تحت هذا الحجر ؟ أم تراه نقل خزفا من أرض لارض فاخذ يتغرب بعد البلى ، وهو الذي كان يقاسي الامرين اذا ما اضطر الى الانتقال من بلدته ؟؟

فاذا كان باقيا ، فلنتيمم بترابه ، لعل فضل الاتقياء فينا ـ يوافيه باغراضه ـ :

وان جعلت بحكم الله في خزف
يقضي الطهور ، فاني شاكر راضي

ويلفت نظرنا مرأى البنائين القائمين بالترميم ، فلا نتمالك استعادة قوله :

لعل مفاصل البنـــاء تضحى

طـــلاء للسقيفـة والجـدار

وتتكدس هذه الاعتبارات المحزنة ، علـى تلبـد السماء ، واقتراب الغسق ، في دكنة القبر ، حتى ليدفع احدنا الآخر هامسا :

خفف الوطء ما أظن أديم الارض الا من هذه الاجساد !

هذه الاجساد تكون اديم الارض اما الارواح فأين هي ؟

أما الجسوم فللتراب مآلهـــا

وعييتُ بالارواح أنى تســلك

وهل للمعري ان يخرج من العي – بالاستناد الى – عقله – ؟ ذلك العقل الابتدائي الذي لانراه يختلف عن الادراك المشترك بين الناس ، في فرض مقاييسه الماديـة البسيطة ، ومنطقه الساذج الآخذ بالحس والتحقق العاديين في الحياة الجارية ، ذلك العقل الحسي او بادئ الرأي الذي جعله ديكارت مشاعا بين الناس ، ذلك العقل الذي طالما اشاد المعري بذكره ، إشادة العقلانيين في ما بعد ، مغرورا بمقدرته الشاملة على القياس والاستنباط والحكم في كل شيء ، حتى يصبح من آلـم ضحاياه ، واحقهـا بالشفقة والترحم !!!

هذا العقل الحسي ، هذا المقياس البسيط ، هو الذي تسلح به أبو العلاء ، فاقبل على الكون باجمعه يقيس كل شيء ويجادل في كل شيء ، اقبال الطفل الذكي الواعي يجرب آلة غريبة اكتشف سرها لوحده ، فخال العالم في غفلة عن أعاجيبها . فلا عجب ان يثير كثيرا من الغبار ، وان يحدث ضجة لاتزال اصداؤها تتردد حتى

اليوم في ميادين الاعتراضات السطحية والاحتجاجات العامية ٠ واي فرق بين هذا الشاعر العقلاني والرجل العامي لايفهم أحكام ما يفوق ــ عقله ــ من الشؤون فيزري بها ، سوى تلك اللذعة التهكمية ، وذلك التساؤل المغري بالتشكيك واللاادرية ؟ أو لم يقلد شيخ المعرة في ــ عقله ــ كثير من الشعراء ، عارضين لاستفهامات عديدة في مجالي الكون ، متصورين أنهم يدركون قمة التفكير الفلسفي اذا ما أجابوا عن ذلك بتعبير واحد : ــ لست أدري ! ــ ٠

وتتكاثف دكنة المساء ، واربداد الضباب المتداني من الارض فنندفع الى استعادة بعض المبادىء الواضحة نستنير بها في غموض تفكير الاعمى ٠ ولا نخاله ميز ، في صلاح مقياسه العقلي ، بين نظم العالم المتدرجة من الطبيعي المادي الى الانساني الفكري ، الى الالهي فائق الطبيعة ٠ فكان لابد من فساد النتيجة اذ فسدت المقاييس ، وكان لابد من ان ينفي وجود الملائكة والجن كما ينفي وجود فلان من الناس في بيته مثلا ، والدليل المشترك بين النفيين هو كونه لايحس بهما :

قد عشت عمرا طويـــلا ماعلمت به

حســا يحس لجـــني ولا مــلك

أخذ ابو العلاء بهذا المقياس في اختباره المادي ٠ فصح مقياسا للاحكام ، وأمكنه ان ينفي وجود فلان في بيته لأنه لايحس به ٠ فخال المقال صحيحا كذلك في الشؤون الفائقة للمادة ، وفاته ان لكل مقيس مقياسا خاصا ، وان لكل نظام في العالم محكا من نوعه ٠ ومن من المفكرين لايميز بين هذين العالمين المفترقين ، فينتقل من الواحد الى الآخر بالمقياس نفسه ؟ الا اذا شاء ان

يتظرف او يتماجن فعل أبي نواس ، ولانراه بعيدا عن أبي العلاء في استخدامه هذا القياس الساذج :

ماجاءنا أحـــد يخبــر انــــه

في جنـــة مـــذ مـــات او في نـــار !

هذا العقل يحار لدى مصير الارواح لانه لم يشهد في حسه المادي قيامة الموتى ،

فلم ير بطن الارض يلقي لظهرها

رجالا كما يلقي الى بطنهـــا الظهر

بل يكاد ينفي ادراكها كما نفى ادراك الاله :

اما الاله فاني لست مدركه ...

وهو على حق واخلاص في قوله ، فانه لن يدرك الاله عن هذا الطريق ...

على ان الطبيعة الانسانية ، طبيعة ابي العلاء التامة ، بجسدها وعقلها وروحها ، كثيرا ماكانت تثور على هذه النتائج ـ العقلانية ـ الفاسدة ، فيسكن صاحبها الى الايمان :

اثبت لي خالقـــا حكيمـــا

ولست من معشر النفـــــــاة

انفـــرد الله بسلطــــانــه

فمـــا لـــه في كـــل حـــال كفـــاه

ما خفيت قـــدرتـــه عنكـــم

وهل لهـــا عن ذي رشـــاد خفـــاه

ويغدو موقنا بصحة البعث والنشور :

وقـــدرة الله حــق ليس يعجزهــا
حشر لجسـم ولابعث لامـــوات

ويتأمل مصيره الخاص فيطمئن :

اذا ماأعظمـــي كانت هبـــاء
فان الله لا يعييـــــه جمعـــي

بل يناضل عن هذا الايمان بالبعث ، ويراهن عليه ، قبل الغزالي بنصف قرن ، وقبل بسكال بستة قرون :

زعم المنجـم والطبيب كـلاهمــا
ان لامعـادً ٠ فقلت ذاك اليكمــا !
ان صح قولكمــا ، فلست بخاسر ،
او صح قولي ، فالخسار عليكمــا ٠

★

واذا ببعض الاوانس يمللن الوقوف حول القبر ، في ذاك الجو الضاغط ، فيتفرقن في حنايا ردهة الكتب ، يقرأن بعض العناوين وكأنهن يدللن على ابي العلاء بأنهن على رغم نصائحه المشفقة ، قد خرجن ــ من البيوت ــ وتجاوزن ــ الغزل والنسج والردن ــ الى ــ الكتابة والقراءة ــ واخـذن العـلم عـلى غير ــ العجائز المهتمات والشيوخ والعميان ــ حتـى أصبحن ــ يقومن السطور باليراع المقلمات ــ ٠ فكيف لنا به يتشوف من خلال الحجر الى هذا النشء الطافر نحو الحياة المثلى يعمل فيها الجنسان متساندين

متعاونين • ولعل الاعمى المتشائم ، عدو المرأة وكاره النسل ، والخصم اللدود لتعليم النساء ، لا يعدم آنسة من هؤلاء المثقفات تقوم ، في صحة عقلها وعمق قلبها ، فتشمله بدراسة عاطفة ، تبرر شروده ، وتسبغ عليه من حنوها ، كما انه لم يعدم من أتقياء المؤمنين من شملوه ببركتهم فالفوا الدروس في ـ تبرئة ابي العلاء من وصمة الكفر الشنعاء • ـ

ونودع الشيخ ، حارس القبر ، على أمل أن ينتهي ترميم الضريح على اسلوب لائق بمفكر المعرة ، وعلى أمل ان تجمع المكتبة العلائية كل ما كتب أبو العلاء وكتب عنه في مختلف اللغات ، فتغدو مثابة للمتأدبين ، ويستعيد الشيخ ، بعد الف سنة ، مجلسه بين الطلبة العديدين يمرنهم ، ان صوابا وان خطأ ، على حرّ هذه الاداة العجيبة التي تجعل من الكائن البشري انسانا سائرا في طريق الكمال ، الا وهي العقل •

وفي نهاية رحلته في المحافظة لاحظ كثرة أسماء القرى الغريبة بنظره فيقوم بتحليل أصلها فيقول ـ وتتوالى القرى على هذا الشكل وكلها غريبة الاسماء فيها من التركية والكردية وفيها من الآرامية ، من تفتاناز ، الى المعارة بالعين ـ وهي والمعرة من أصل واحد ، معناه المغارة ، ولاغين في الآرامية كما لايخفى ، والمعرات في سورية كثيرات شمالا وجنوبا من معرة النعمان الى معرة القلمون ـ الى كفر حلبو ، وهي آرامية كذلك الى أورم الصغرى فاورم الكبرى • وأخيرا بنيامين على أبواب حلب قرب خان العسل القائمة بقبابها الطينية حول ينبوع لاتزال على مقربة منه أطلال خان قديم (٢١) •



---

(٢١) البستاني : نفس المصدر ص ١٣٥ ـ ١٤٣

ليس لنا أي تعليق على آراء الرحالة ـ البستاني ـ سوى قوله عن أسماء القرى فيها من التركية والكردية ، اذ لايوجد في محافظة ادلب قرى ذات اسم كردي • وحتى القرى التركية لايوجد سوى قريتين أو ثلاث ، وجل أسماء قرى المحافظة حافظت على أصالة اسمها المحلي • أما تغيير اسم بعض القرى مؤخرا دون دراسة علمية مسبقة فهو طمس لمعالم حضارتنا وتاريخنا ، فكل اسم نعتقده غريبا له معنى جميل ورمز أصيل ، يعبر عن عمق تفكير أجدادنا وبعد نظرهم في اختيار الاسماء • وقد أوضحنا ذلك في كتابنا دليل بلدان وقرى محافظة ادلب ـ •

★ ★

وأخيرا حان وقت رحلينا من ـ معرة النعمان ـ فقد طالت زيارتنا لها ، وهي تستحق أكثر من ذلك ! •

★ ★ ★

نحط رحالنا الآن في آخر محطة في محافظتنا في خان شيخون مركز ناحية ـ خان شيخون ـ والتي تقع الى الجنوب من المعرة بـ ٢٥ كم وبـ ٦٨ كم عن ادلب وعن حماه ٣٨ كم وحمص ٨٥ كم ودمشق ٢٤٧ كم وحلب ١٠٨ كم يبلغ عدد سكانها ١٥١٤٧ نسمة •

هي في جرف تل هام وكبير يسمى ـ بتل خان شيخون ـ نقبت فيه البعثة الفرنسية برئاسة الكونت ـ موسنيل دوبويسون ـ سنة ١٩٣٠ م فوجدت فيه أطلال مدن تحت الانقاض • في سطح الارض بقايا بلدة تعود للالف الثانية قبل الميلاد ، وللاسفل منها وفي أرض اصطناعية لتدعيم أثريات المدينة المنسوبة لزمن تحتمس الثالث والعائدة للقرن الخامس عشر قبل الميلاد • وفي خلال الحفر عثر على قوس ونبل قديمة وآثار مبان مصرية •

وفي أعماق الكل خرائب اربع مدن من العصر الحديدي ـ القرن العاشر ـ العاشر قبل عصرنا ـ ·

واما التل فيتراوح قطر قاعدته من ٢٠٠ متر الى ٢٥٠ متر وارتفاعه ٢٥ متر ·

وهي مدينة ذات أهمية لموقعها الجغرافي كصلة وصل بين شالسيس وأبامي وابيفانيا · وظلت مزدهرة حتى العصر اليوناني ، بدا سكانها بالنزوح الى المدن المجاورة كارجه وعاس وترعى واورع ·

اما الخان فكان يقع الى الجنوب من القرية ـ قبل التوسع العمراني الحالي ـ والذي يعود للقرن الرابع عشر الميلادي ، وينسب الى السلاطين المماليك ، حيث ازدهرت فيها الحياة ثانية كمحطة للمسافرين من الرحالة والحجيج ·

فيها تكية وحمام أثريان · وعرفت خان شيخون في القرن التاسع عشر باسرة ـ الصيادي ـ التي نبع منها الشاعر الصوفي والسياسي الفذ ـ أبو الهدى الصيادي ـ والذي وصل الى سدة الحكم في استنبول كصدر أعظم رئيس وزراء الدولة العثمانية حينذاك كما عرفت كقرية كبيرة بقبابها المخروطية · وهكذا فكما ذكرنا استعادت حيويتها ، وبدأ الناس يفدون اليها بعد أن بني خان في عهد المماليك في أواخر القرن الرابع عشر ، مما دفع الرحالة الى الوقوف عندها · فالرحالة ـ كبريت ـ زارها عام ١٠٣٩ هـ ١٦٢٩ م بعد مغادرته المعرة فقال ـ ثم انا قوّضنا خيام المقيل، وأخذنا في الرحيل ، فأتينا على خان الشيخون وهو في واد مُخْضَلّ وحوله ضيعتان بعيدتان منه (٢٢) ·

---

(٢٢) كبريت : نفس المصدر ٢٠٥



بلدة خان شيخون عام ١٩٣٤

الصورة مهداة من السيد عبد الكريم مخزوم رئيس مجلس البلدة

ولعله يقصد بهما كفر طاب وأفاميا ·

★ ★

اما الرحالة مورونة Morone مر بها قادما من دمشق ومتوجها الى حلب سنة ١٦٤٥ فكتب يصفها بقوله ــ وجدنا فيها فندقا ، وفي مدخل الفندق بني برج مراقبة ضد الغزاة · وعلى الطريق ــ بين خان شيخون ومعرة النعمان ــ في قمة جبل شاهدنا خربة واسعة (٢٣) ·

★

قصد الرحالة بكلمة فندق والتي هي بالاصل كلمة ايطالية ــ خان وجدنا بان خان شيخون كانت مركز مراقبة حدود فبني بــرج مراقبة لمنع الغزاة ، وهم اولئك الاعراب الذين كانوا يغزون القوافل ويسلبون بضائعها ·

أما الخربة الواسعة التي شاهدها فهي بالضبط خربة المشيرفة تجاور مرحطاط من الشمال بقمة مرتفع صخري وهــي واسعة الانتشار ، غنية بالمعالم الاثرية · وتشرف على مناطق بعيدة من حولها ، وكان الى جانبها من الجنوب مسافة ٥٠٠ م دير عظيم بقمة تل مرتفع وكبير ، تنسب الى القرية الحديثة المقامة للشرق منه وهي ــ دير الغربي ــ ضاحية المعرة من الجنوب على مسافة ٦ كم

★ ★

في عام ١٦٦٠ م زار تيفينو Thevenot خان شيخون فأخبرنا ان الخان يقع وسط مناطق زراعية واسعة · كما ذكر انه كان في

---

(23) MORONE Ibid P 396

الخان خمسون جنديا من المشاة وعشرة فرسان ، لتوفير الحماية اللازمة للخان والمناطق المجاورة له من خطر الغارات البدوية (٢٤)

★ ★

وفي عام ١٧٢٥ م زارها الرحالة كرين Green فكتب يقول ـ الى الوراء قليلا من كفر طاب وصلنا الى شيخون خان ـ التي هي ـ خان الشيخ ـ تقع وحدة في حقل فسيح . انه خان جميل الى حد ما ، وأمامه برج للحماية ، والذي يتصرف بأموره ـ آغا ـ تابع في سلطته لـ ـ الباشا ـ الحاكم في حلب ... ـ

نستدل من نص كرين بأن الحاكم الاداري لها يسمى ـ آغا ـ يتبع اداريا لباشوية حلب اي ولاية حلب ، ولم تعد تابعة لحماه . واستقلاليتها هذه عائدة لدورها الهام ، كمنطقة حماية وحراسة لحدود الولاية في الجنوب الغربي .



وفي عام ١٧٣٨ م مر منها الرحالة بوكوك Pocock قادما من حماه فكتب يقول : البلدة تتوارى بعيدا مع مسير القافلة . وفي الثالث والعشرين انطلقنا بعد منتصف الليل قليلا . قبل سفرنا مسافة أبعد ، كان كل ماشاهدناه فجأة حوالي خمسين حصانا عربيا يتوجهون نحونا ، وحالا أعد كل منا سلاحه في حالة استعداد ، تشوق رجالنا لرؤية أقدام الرجال تصعد الاحجار بسرعة شديدة كي يرمونهم بقذائفهم التي كانت دائما معلقة بأكتافهم ، والذين

---

(24) THEVENOT : Into the Levant Book 1 , Part 11 . P - 30

كانوا حاذقين جدا بتنظيمهم ، لعلهم بدوا بعض العربان ، الذين كانوا لصوصا ، ولكنهم الآن خاضعين للسلطة ، بعد استقرارهم كأناس شرفاء ·

سافرنا حوالي أربعة فراسخ من حماه عبرنا بجانب قرية خربة تدعى Ktabai واخرى تدعى Afriminerra حوالي هذا المكان شاهدت خربة كأنها كنيسة · وبعد ميلين الى اليسار Tisin وبعد أكثر من فرسخ في الشمال تقع Trimieris وتحت هـذه الاماكن ومن حولها تجد عددا كبيرا من الآبار · وخلال مسافة بسيطة الى الغرب شاهدنا ظهر تلال منخفضة والتي تبدأ باتجاه بحيرة العاصي · وصلنـا شيخون Shehoun الواقعة على بعد حوالي ثماني ساعات عن حماه ·

هذا المكان ، والاقليم الذي يجاوره تحت سلطة ـ آغا ـ مستقل كان بالامكان ان يكون Cappareas of the Itinerary ولانه كان خط سير الرحالة ومجال مرورهم الرئيسي ليكونوا تحت مراقبته · وفي الرابع والعشرين تقدمنا في رحلتنا ، عابرين بين هضاب منخفضة ، وفي ساعة أتينا الى Eisel Cabad والتي هي مكان خرب مع صهاريج ·

ولما كنت في منتصف الطريق بين خان شيخون ومعرة ، أخبرت من قبل شخص من آسيا الصغرى ـ أي تركي ـ والذي كان في القافلة ، بأنه يوجد على بعد حوالي فرسخ ونصف الى الشرق ـ مسلة ـ وبعض المدافن ، وخرائب أخرى ، والتي شاهدها عندما سافر سابقا من ذاك الطريق · تابعنا مسيرتنا ووصلنا الى ـ معرة ـ [٢٥]

★

---

(25) POCOCK : Ibid P 145

نخلص من نص بوكوك أنهم أمضوا ليلتهم في خان شيخون بعد قدومهم من حماه ، متجهين غرب ـ شمال وبذلك نتمكن من معرفة طريق سير القوافل سابقا · كما ذكر بان خمسين فارسا لاحقوهم فاستعد للعراك معهم ظنا منه أنهم لصوص ، ولكنه تأكد أنهم مراقبي اللصوص وهذا يتطابق مع قول الرحالة السابق تيفينو بأنه كان في برج الخان خمسون جنديا من المشاة وعشرة فرسان · ولايهمنا العدد فقط ، بقدر مايهمنا بان المراقبة وأهمية هذا البرج ظلت مستمرة منذ حوالي عام ١٦٤٥ ـ تاريخ بنائه تقريبا ـ ولغاية قدوم بوكوك ١٧٣٨ م

وهذا البرج كان يقع أمام خان القوافل من جهة المدخل ، لكن معالمه دثرت ولم يبق منه سوى أقوال الرحالة ·

★

وتوجهنا كذلك برسالة الى السيد ـ كامل شحادة ـ المساعد الفني ورئيس دائرة آثار المعرة بالسؤال عن واقع هذه المواقع المتقدمة الذكر في نص بوكوك فاجابنا مشكورا بما يلي ـ :

١ ـ ان الخربة المشار اليها بعد الفراسخ الاربعة من حماه هي ضمن أراضي قرية قمحانة حيث تحوي أكبر كنيسة كانت فيها الارض مرصوفة بالفسيفساء وقد نقلت الى دمشق من قبل المديرية العامة للآثار خوفا عليها من السرقة ، وبعد ترميمها نقلت الى متحف أفاميا الى جانب لوحات الفسيفساء الاخرى ·

٢ ـ أما القرية الاخرى فهي طيبة الامام ويقتصر فقط على كلمة الطيبة الآن ·

٣ ـ القرية المسماة ـ تيزين ـ فهي للغرب من حماه بطريق مصياف على مسافة من حماه بـ ٦ كم ٠ وأنه قد أوهم به بالاسماء ، فبعد أن وصل الى الطيبة وهي تبعد للشمال من حماه بمسافة ١٥ كم ، عاد فسمى تيزين التي غربي حماه ؟ ٠ وبالنسبة لذكر الآبار أو الصهاريج ، فانها تكثر في جميع القرى بين حماه ، لقلة الينابيع فيها ٠

٤ ـ التلال التي ظهرت عليه في الطريق من بعد الطيبة للشمال فهي تل بزلم وتل مصين وتل مورك والشيخ على أيضا فيها او تل لطمين وتل فاس اللذين يشرفان على سهول تتصل ببحيرة العاصي حيث تقترب من تل كفرنبوذا وتل هواش وغيرهما ٠

٥ ـ أما Eisel Cabad فهو يقصد بهما خربة عاس او بعاث البقعان او بعاث المشمش ، وهي للشمال من خان شيخون بنحو ساعة تقريبا سيرا على الاقدام منها وتنطبق عليها الاوصاف وليس في الطريق سواها ٠

٦ ـ وأما مكان المسلة المشار اليها للشرق من الطريق بمقدار فرسخ ونصف فانها ليست بمسلة وانما بمثابة برج لبناء دير أثري كبير يقع على قمة تل يعرف بـ ـ تل العين ـ بهضبة المشيرفة الخربة ، او للغرب بالضبط من قرية دير الغربي على مسافة ٢ كم ولاتزال الانقاض لهذا البناء قائمة ، وقد أتيت على تفصيل ذلك في بحث التلال الاثرية المسجلة في محافظة ادلب الذي هو قيد الطبع من قبل المديرية العامة للآثار والمتاحف ٠ ـ أ٠ هـ ٠

★ ★

أما الرحالة الفرنسي الشهير Volney في عام ۱۷۸۳ م زار المنطقة فكتب الكثير عن الواقع السياسي والاداري والاجتماعي في كتابه وسنعرض اليها تفصيلا في الفصل الاخير من كتابنا ـ فصل الفصول ـ ونقتصر في فصلنا هذا حديثه عن خان شيخون كتب يقول ـ وعلى طول طريق حلب ـ حماه تجد خرائب قرى قديمة ، وآبار سائبة ، وقلاع وحتى خرائب معابد ۰ كما لاحظت تلالا صغيرة دائرة الشكل ، وهذه التلال من عمل البشر ، نعرف ذلك من خلال ـ تل خان شيخون ـ وهو شاهد ناطق للجهود العظيمة التي كانوا يبذلونها في اقامة مثل هذه التلال ۰ هذا التل بقياس ألف وأربعمائة قدم دائريا ومائة قدم ارتفاعا ۰

وتقريبا تجد على جميع هذه التلال أنقاض قلاع وأطلال هياكل كانت قلاعا وأماكن للعبادة حسب العادة عند الاقدمين اذ كانوا يؤثرون القيام بفرائض العبادة في الاماكن العالية ۰

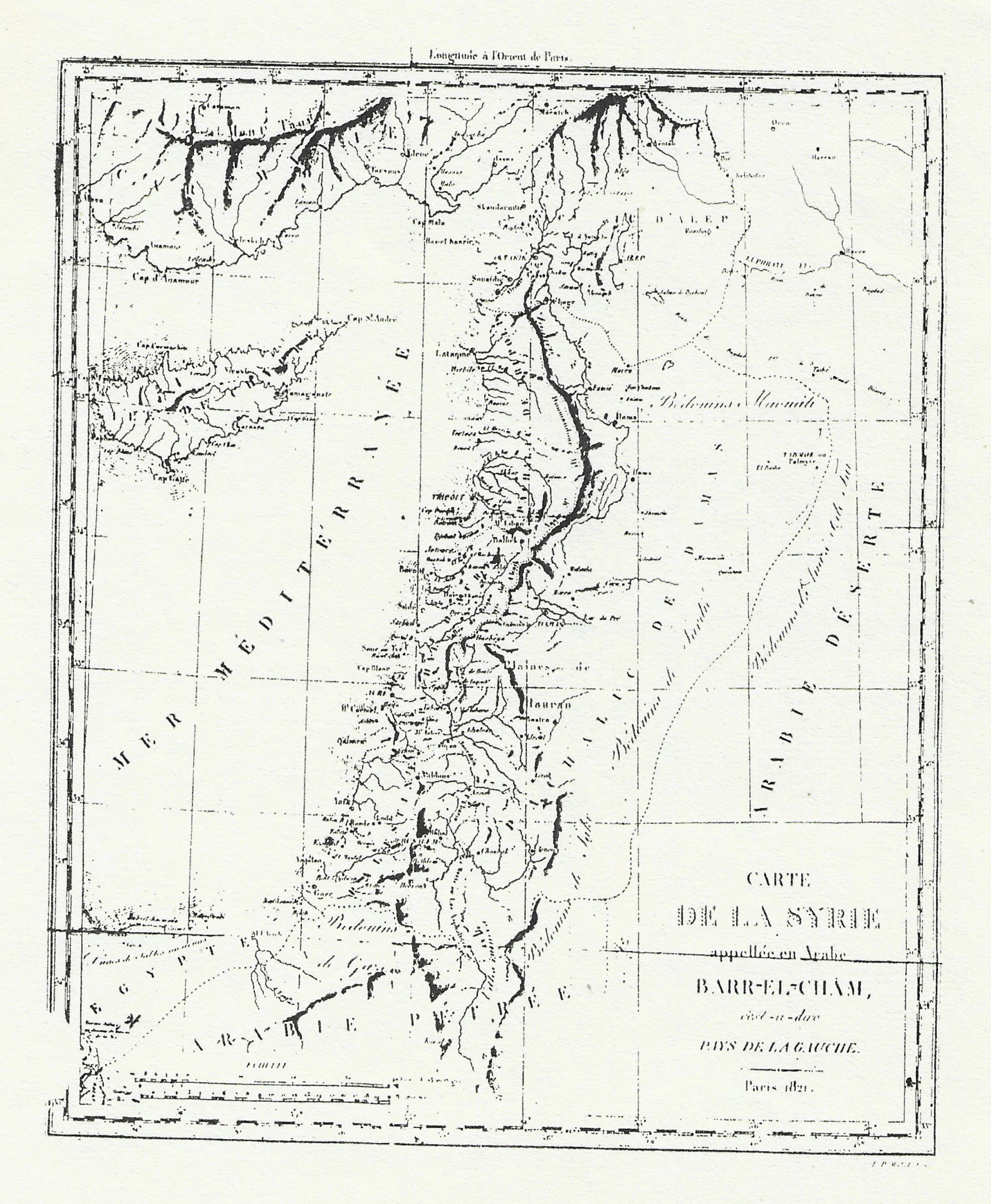
أما الآن فسكان هذه المناطق يرون هذه الاعمال ـ أماكن العبادة ـ كأنها لغير المؤمنين ـ يقصد فولني بذلك الاوابد الوثنية ـ واليوم لاتشاهد في هذه الاماكن سوى أراض بائرة مهملة بدون زراعة بالرغم من خصب تربتها ونوعيتها الجيدة ، وما يزرعوه في بعضها كالحبوب والقطن والسمسم ينجح معهم نجاحا تاما ـ (٢٦) ۰

★

لاتعليق لنا على نص فولني الا ان نوضح مايقصده بالتلال وعبادات السكان القدامى ۰ اذ من المتعارف عليه أن الاقدمين كانوا يتخذون

---

(26) VOLNEY : Ibid P 288



الخريطة التي وردت في كتاب الرحالة الفرنسي فولني وقد أشارت الى : سرمين ـ معره ـ سراقب ـ خان شيخون ـ شغر (جسر شغر) سلقين .

أماكن عبادتهم في الاماكن العالية ، اعتقادا منهم أنهم في عبادتهم أقرب مكانا للاله وأبعد سموا عن الارض التي دنسها البشر بخطاياهم وخاصة في عبادات بلاد النهرين ـ في العراق ـ ٠

لاحظ البحاثة الاثريون ـ بأن سكان كل مدينة قديمة يخصصون أعلى مكان مرتفع فيها لبناء معبدهم الهام حتى لو اضطرهم الامر لايجاد مرتفع اصطناعي يشيدون عليه المعبد ويطلقون عليه غالبا اسم ـ زكورة ـ وهو صرح شامخ عال ، في أعلاه يشيد المعبد ، ويرمزون ببنائهم العالي هذا الى الصلة بين الارض والسماء ، ـ وعرف عنهم أنهم كانوا يبنون أكبر بناء للمدينة على مرتفع وكثيرا ما يكون معبدا وقصرا في آن واحد ، وفي بعض الاحيان يبنى حوله سور ضخم يمنع الغريب من اجتيازه ، فتشرف هذه الابنية وتسيطر من هذا العلو على المدينة وكانت مركز السلطة العليا ، كهنوتية أو ملكية ، وقلعة المدينة الحصينة ، وكثيرا ما كانت تؤخذ المدينة ، أما قلعتها فتبقى محاصرة ولا تستسلم ٠ فاذا تم غزو المدينة كان أول عمل الفاتحين تدمير كل مايذكر سيطرة أعدائهم اذ كانوا يخرجون من المعبد تماثيل الآلهة باحترام ثم يدمرونه ـ ٠ ـ ولكي يستميلوا الآلهة المحليين كانوا يبنون معبدا آخر على أنقاض الاول ، ويضعون فيه التماثيل التي كانت قد أخرجت من المعبد المتهدم ويضيفون أحيانا آلهتهم اليها ٠ واذا كان قصرا يفعلون به كما كانوا يفعلون بالمعبد فيدمرونه ويبسطون الارض فوقه ويبنون بناءهم على انقاض الاول ، واذا حدث ان غزيت المدينة مرتين أو ثلاث أو أكثر كان التل يرتفع دائما بعملية التخريب والبناء ٠

وبما ان أكثر هذه البنايات كانت مصنوعة من الآجر المطبوخ على الشمس كانت تهدم مرارا وترمم ٠٠٠ ـ

ومما سبق .. نعلم .. وكما ذكرنا في مطلع اطلالتنا عـلى خان شيخون وتلها الكبير أنه تل اصطناعي ، فيه آثار حضارات سادت ثم بادت . فهل يسعى أهل خان شيخون للاقتداء بأجدادهم وبناء حضارة جديدة .

★ ★

وفي عام ١٨٠٥ مر بخان شيخون الرحالة ستيزن Steezen ــ ١٤ نيسان استيقظنا في الساعة السابعة والثلث بعد أن أمضينا ليلة ممطرة بغزارة مع برد ورعد . كل مايحيط بنا على شكل تلال بسيطة وفي الساعة السابعـة والنصف وصلنـا الى قرية خـان شيخون Chân Shechun ، جلسنا نشرب قهوة مرة جـدا . المطـر شديد والطريق صعب لوجود الوحل الكثير فيه . وبعد نصف ساعة تابعنا سيرنا . وفي الساعة العاشرة الا ثلث ، جلسنا عـلى قمة هضبة صغيرة اصطناعية . وشاهدنا ماحولنا من الحقول ، كنا مبللين بالمطر والطريق كذلك عسيرة جدا (٢٧) .

★ ★

وفي عام ١٨١٦ م مر منها كذلك الشيخ اسماعيل الكيالي من حماه فكتب مرافقه الشيخ محمد الكيالي واصفا حسن استقباله فيهـا ــ الى أن وصلنا الى خان شيخون وقبل ان نصل الى الخان ظهر لنا سنا مقام صاحب البرهـان حضرة الشيخ أحمد القطب الشهير بالصياد ، فعزمنا على الوصول اليه ، فلم يمكن مخافة الطريق من القطاع والقصاد ، وهو على تل مرتفع ونوره ساطع متشعشع فقرأنا ونحن على ظهور الخيل ماتيسر من القرآن ، وأهدينا ثوابه لصاحب

---

(27) STEEZEN : Ibid P 9

ذلك المقام المملوء بالبرهان وتوسلنا به الى المريد الفعال ان يكفينا شر الاشرار في جميع الشئون والاحوال ، وقدكنا في زيارة حماه الاولى خطرنا الخان المذكور وبتنا فيه ليلة عند سليمان بك عظم زاده ــ المشهور ، فتلقانا بصدره الرحيب في ذلك الآن ، واخذ بزمام دابة الاستاذ يقودها على يده الى أن ادخله للخان ، فرفعنا مكانا عليا واهدى للاستاذ مهرا نجديا ، وزرنا في ذلك المرور الولي الكبير السيد الشيخ يوسف الكيالي ابا شيبة النور • وفي الخطرة الثانية لم يتأتى معنا النزول ، لما فيه من المخاوف بغارات الخيول ، ولقد حل بأهله الضعف والوهن ، ونزل بهم الخوف وقلة الامن ، فخيولهم سارحة ، ونزلنا للراحة والفطور على بئر ماء في فناه • ثم ركبنا في ذلك الاوان ونحن في غاية الخوف من العربان • لكن لله الحمد ببركة حضرة الاستاذ المأنوس ، لم نشاهد في جميع الطريق مايزعج النفوس ... ــ

★ ★

وفي عام ١٨٤٠ زارها الرحالة الاميركي طومسون وقدر عدد سكانها من الفين الى ثلاثة آلاف نسمة •

★ ★

وفي عام ١٨٩٥ أطل الاب لويس شيخو على خان شيخون قادما من حماه ومتجها الى حلب فكتب يقول ــ وفي ظهر النهار بلغنا خان شيخون بعد خمس ساعات لخروجنا من حماه • وخان شيخون هذه بلدة كبيرة ليس فيها غير المسلمين وهي في بطحاء متسعة يعلوها تل كبير على مثال قلعة حماه او قلعة حمص • وكنا رأيناها قبل عشر سنين وقد تضاعف اليوم عدد سكانها فيبلغون ثمانية آلاف نسمة وقيل لنا ان رديفها ثلثمائة نفس وهي آخر قرى ولاية الشام • أما شيخون الذي نُسبت اليه القرية فهو أمير عمَّر هناك خانا ترى حتى الآن آثاره (٢٨) •

---

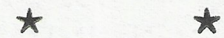
(٢٨) شيخو : نفس المصدر ص ٩١٩

نستدل من نصه بان البلـدة اصبحت تابعة لولاية الشام ـ أى دمشق ـ ولم تعد تابعة لولاية حلب ، كما كانت سابقا وكما ذكر كرين في القرن الثامن عشر · وهذا ماعرف عن العثمانيين ، انهم كثيرا ماكانوا يبدلون ويغيرون من الولاة والقضاة والحكام في كل بلدة وفي كل عام ، ويستصدرون المراسيم السلطانية في تبعية هذه القرية او البلدة لناحية دون أخرى ، بدون اعتبار للواقع العمراني والزراعي ، أو لطلبات السكان الا في الحالات القليلة منهـا ·

أما من ناحية اسمها فأقدم اسم عرف هو أشخاني Aschanie فلما بنى الخان في القرن الرابع عشر الميلادي نسب اليها فسميت خان الشيخ كما ذكر كرين عندما مر بها عام ١٧٢٥ فقال « وصلنا الى شيخون ـ خان والتي هي خان الشيخ ـ « يقصد بذلك اسمها السابق خان الشيخ » ومع الزمن تحولت الى خان شيخون · وكذلك يوجد في القاهرة زاوية باسم ـ خان شيخون ـ كما ذكرت المصادر التي تؤرخ للمماليك في مصر ·

وقد ذكرت وثيقة عثمانية تعود الى عام ١١٧٦ هـ ١٧٦٢ م بلدة خان شيخون بـ ـ خان الشيخ ـ وهذا يتطابق مع كلام الرحالـة الانكليزي كرين ـ ·

نخلص الى القول : بأن بلدة ـ خان شيخون ـ لم تنسب الى الذي عمر الخان ، بل خانه نسب اليها ، وليس كما ذكر الاب شيخو ·



وفي حوالي منتصف القرن العشرين مر بها ـ البستاني ـ فكتب يقول ـ وتسيل الاباطح بعنق السيارة ، بل تجري سراعا لايكاد يستوقف العين فيها الا أعمدة التلغراف تنشب متوالية في تموجات

الخطوط الآتية في مهب رياح المساء . ولا ما يذكر من القرى سوى خان شيخون على نحو خمسة وعشرين كيلو مترا . وهو موقع ـ القناق ـ الاول من المعرة نحو الجنوب ، او منزل القوافل بعد مسيرة يوم واحد . كان يدعى في القديم ـ اشخاني ـ ولايزال فيه الى اليوم خان جميل الهندسة يرقى الى القرن الرابع عشر أي الى عهد المماليك . أما بيوت القرية فعلى نحو ماشهدناه سابقا من قباب الطين ، الا ان شمس الاصيل تسبغ عليها أشعة نحيلة فتذهبها وتوليها روعة لم نرها في قباب خان العسل وسائر القرى الجبلية . وخان شيخون محطة زراعية ووسط لتربية المواشي والدواجن حتى الاوز ، يبلغ عدد سكانها نحو الثلاثة آلاف . ولايستوقفنا الخان ننزل فيه هذا المساء ، ونحن على موعد أبعد ، اذا صحت عزيمة السيارة فنمر أمامه مستعيدين أحكام السفر في العصور القديمة . وبعد دورات من الطريق قليلة ، نستأنف الاباطح الفسيحة الخالية من المعالم (٢٩) .

★

وأخيرا ـ فالخان ـ كان ينزل فيه المسافرون الى وقت متأخر في النصف الاول من هذا القرن ، كما لاحظنا في نص البستاني ...

والآن حان وقت توديعنا بلدة ـ خان شيخون ـ ، على ان نعود اليها مرة أخرى . ولنتجول الآن في أطراف البلدة ، ولنقرأ بعضا من تاريخ بلدة كانت تعتبر من المدن العظمى في المحافظة .

★ ★

---

(٢٩) البستاني : نفس المصدر ص ١٤٧

لنرحل الآن الى ـ كفر طاب ـ هذه البلدة العظيمة التي لها وقع خاص في نفسي ، ذكرتها معظم الكتب التاريخية ، كبلدة عامرة ذات أهمية سياسية واقتصادية وفكرية ، ولتكون شاهدا على ان محافظة ادلب غنية بمدنها العظيمة ، فخورة بسكانها النجباء ٠

تقع الى الشمال الغربي من خان شيخون باربعة كيلومترات ٠ واداريا تعتبر الآن مزرعة تابعة لناحية خان شيخون مباشرة وتسمى الآن كفر طاب عدد سكانها ٢٨ نسمة ٠ تحتل مكان البلدة القديمة ـ كفر طاب ـ التي ذكرتها معظم الكتب المؤرخة للحروب الصليبية ذكرها ياقوت الحموي بقوله : ـ كفر طاب ـ بطاء مهملة ، وبعد الالف ياء موحدة : بلدة بين المعرة ومدينة حلب في برية معطشة ليس لهم شربٌ الا مايجمعونه من مياه الامطار في الصهاريج وبلغني أنهم حفروا نحو ثلاثمئة ذراع فلم ينبط لهم ماء ، وفيها يقول أبو عبدالله محمد بن سنان الحفاجي :

بالله ياحادي المطايا

بين حناكَ وأرْضايا

عرّج على أرض كفرطاب

وحيّها أحسنَ التحايا

وأهد لها الماء فهي ممن

تفرح بالماء في الهدايا

وقال عبد الرحمن بن محسن بن عبد الباقي بن أبي حصن المعري :

أقسمت بالربّ والبيت الحرام ومَن

أهلّ معتمرا من حوله وسعى

إنّ الأولى بنواحي الغوطتين ، وإنْ

شِط المزار بهم يوما وان َشسعا

أشهى الى ناظري من كلّ مانظرت

عيني وفي مسمعي من كل ماسمعا

ولا كفر طاب عندي بالحمى عوضا

نعم سقى الله سكان الحمى ورعى

وينسب الى كفرطاب جماعة من أهل العلم منهم : أحمد بن علي ابن الحسن بن أبي الفضل أبو نصر الكفر طابي المعري ، روى عن ابي بكر عبد الله بن محمد الجاني وعبد الوهاب الكلابي ، روى عنه علي بن طاهر النحوي ونجاء العطار وعبد المنعم بن علي ابن أحمد الوراق وأبو القاسم المسيَّب ، وكانت وفاته سنة ٤٥١ في جمادى الآخرة ٠ أ ٠ هـ ٠ وبذات التعريف عرفها ـ البغدادي ـ بعد ياقوت ٠ والعامة يلفظونها سابقا ـ كفر طوب ـ وفي زمن عظمة ـ أفاميا ـ كانت كفر طاب تابعة لها ومن أعمالها وفي العصور الوسطى ، كانت بلدة كبرى ذات أهمية للمسلمين والنصارى على السواء ، وهي بلدة لم يستوف حقها من البحث لدى المؤرخين ، رغم أهميتها الحضارية بين أفاميا وحماه وسهل الغاب ٠ وآثار الطريق غربيها تشير الى أهميتها كممر عبور نحو أفاميا ٠ ومن فوق رابية كانت هذه البلدة الكبيرة قد أقيمت الانشاءات العسكرية فيها ، كمكان تحصن فيها الصليبيون ثم المسلمون كأنها ـ قلعة ـ يلجأ كل من يريد التغلب والسيادة على هذه المنطقة الهامة ٠ وفيها عرف الاسقف توما الماروني نحو ١٠٨٩ م الذي اشتهر بمؤلفيه ـ المقولات ـ و ـ المقالات العشر ـ وقصته طويلة لامجال لذكرها الآن ٠

كما عرّفها أيضا أبو الفداء المتوفى ٧٣٢ هـ فقال كفرطاب من الاقليم الرابع ومن جند حمص .

ضبط الاسم بفتح الكاف والفاء وسكون الراء المهملة وفتح الطاء المهملة ثم ألف وباء موحدة . وهي بلدة صغيرة كالقرية ، قليلة الماء يعمل فيها القدور والخزف ، وتجلب الى غيرها وهي قاعدة ذات ولاية ولها عمل . وهي على الطريق بين المعرة وشيزر اثنا عشر ميلا وكذلك بينها وبين المعرة ... ـ

عرفها الجغرافيون العرب حسب موقعها الاداري . اذ ذكر المقدسي المتوفى ٣٩٠ هـ ٩٩٩ م بأن كفر طاب كانت تابعة لحمص في زمنه لان ـ حمص اسم القصبة ومن مدنها الخُناصرة وكفر طاب واللاذقية ـ أي أنها اداريا تعادل لاذقية .

ونتيجة الحروب التي تعاورتها ، والزلازل التي وقعت فيها كالزلزال الذي وقع سنة ١١٥٧ فدمر معظم معالمها وهجرة الموارنة منها الى لبنان .. كل هذا أدى الى اهمال ذكرها من بلدة كبيرة وولاية تتبعها قرى عديدة وأعظم قرية في منطقة المعرة الى قرية صغيرة ثم الى مزرعة يعيش فيها ٢٨ نسمة يشربون من الماء المتجمع في بئر .

وقد ذكر الحميري الاندلسي المتوفى سنة ٩٠٠ هـ وفي رواية أخرى ٨٤٥ عن كفر طاب ـ حماه بينها وبين كفر طاب أربعون ميلا ومن حمص الى حماه مثلها . أما كفرطاب بالشام ايضا سميت بذلك لان حواليها أرضا كريمة وثمارا كثيرة من زيتون ورمان وكروم وأشجار ، كذا ذكر ، وهو مخالف لما تقدم من أنها منسوبة الى رجل . وهي أرض صحيحة الهواء ، ليس لها ماء الا من الامطار ، ومن سكنها لايكاد يمرض ، ومن قلة مائها يباع فيها

الماء ثلاث مرات ، لان أصحاب الحمامات يبتاعونه من السقائين ، ويجمعون فضلات مايخرج منه من الحمامات في صهاريج فيشتريه منهم الدباغون ، ثم يجمع الدباغون فضلاته فيبيعونه من الذين يصنعون اللبن للبنيان ــ وفي العهد العثماني كانت مركز قضاء في النصف الاول من القرن الحادي عشر الهجري . ولو شئنا عرض تاريخها لاستغرق ذلك صفحات طوال ونحن في عجالة مع رحالتنا، ونأمل مستقبلا انجاز بحث متكامل عنها وموسع يبرز اصالة هذه المدينة ودورها المميز وقبل مرافقة الرحالة نروي هذه الاسطورة عن مؤرخينا ــ وبكفر طاب في قرية يقال لها شحشبو قبر الاسكندر قيل انه مات بها ونزع مافي جوفه ودفن وُصبّر جسده وحمل الى أمه وقد ذكر بعض أرباب التواريخ انه مات بحمص ولا يستبعد ذلك فان كفر طاب من أعمال فاميه ــ وقال الشيخ على بن ابي بكر الهروى : شحشبو قرية من أعمال فاميه بها قبر الاسكندر وقيل انه مات ببابل .. ــ

★

فلنرافق الآن رحالتنا ونسمع منهم المزيد عن ــ كفر طاب ــ ... شيخ الربوة الدمشقي المتوفى سنة ٧٢٧ هـ في حديثه عن المملكة الحلبية ذكر كفر طاب من جند حلب ، كما أن معرة النعمان من جندها . ولم يذكرها الا بالاسم في شكله ــ بفتح الكاف والفاء وتسكين الراء حيث ذكرها بانها من جند حلب كما ذكر أنهم يشاركون نصارى حماه في عيد الفصح ، حيث يسافر كثير من أهاليها الى حماه ومن الرحالة الاجانب الذين ذكروها الانكليزي كرين . الذي زار المنطقة عام ١٧٢٥ م قادما من المعرة فقال ــ وفي اليوم الثالث وصلنا في ثلاث ساعات الى حرتا Herta خان دارس صغير،

ولعله ليس بأفضل من القرية التي كانت ذات أهمية كبرى في العصور السالفة ، خصوصا في زمن الحروب الصليبية او المقدسة ، والتي ذكرها الكتاب باستمرار كمدينة حديثة حصينة وجميلة ، وذات أهمية لامور أخرى ، تحت اسم كفردا Capherda تقع في الطريق ، الذي استخدمه عموما الجيش المسيحي من انطاكية الى طرابلس احتلوها في بداية غزوهم لكن الاتراك استردوها ثانية سنة ١١١٥ م ٠ وحوالي تسعة أميال من هذه القرية ، باتجاه الغرب او جنوب ــ غرب تقع أفاميا (٣٠) ٠

★

اذن فان الصليبيين أطلقوا على كفر طاب كفردا بعد أن وقعت بأيديهم ولم يتمكن من استردادها الا الاتراك ، ويقصد بهم الاتراك السلاجقة ، لكنه وقع في خطأ تحديد تاريخ استردادها ، فالملك آق سنقر البرسقي نجح في انقاذ حلب سنة ٥١٨ هـ وتركها لولده ــ مسعود ــ وفي العام التالي ٥١٩ هـ ١١٢٥م أخذ كفرطاب من الفرنج واتجه الى عزاز شمالي حلب فهزم هناك ٠

أما عن موقع حرتا الحالي فهي قرية مرحطاط او قرية مرحطاط الآن على كتف الطريق العامة من الشرق بعد مسافة ١٠ كم عن المعرة حيث أن في القرية نبع ماء قوي لم يتوفر غيره بعد المعرة الى كفرطاب خط مستقيم هو مسار القوافل من قبل مسافة أربع ساعات ٠ ولا تزال معالم المدينة الاثرية والتاريخية منتشرة على مساحات واسعة من الارض غير أنها تدخل ضمن حدود بلدة خان

---

(30) GREEN : Ibid P 26

شيخون ، وتقع بالضبط للشمال الغربي منها على مسافة ٤ كم وأخيرا وقبل وداعنا ـ كفر طاب ـ لنقرأ المعري في قصيدة له من ـ اللزوميات ـ يتحدث عن أهلها وعجزهم في البحث عن الماء :

اری کفرطاب اعجز الماء أهلها
وبالس أعياها الفرات من الحفر

كذلكَ مجرى الرزق وادٍ بلا ندى
وواد به فيض واخر ذو جفر

خبرت البرايا والتصعلك والفنى
وخفض الحشايا والوجيف مع السفر

فاطيب ارض الله ماقل أهله
ولم ينأ فيه القوت عن يدك الصفر

يعاني مقيم بالعراق وفارس
وبالشام مالم يلقه ساكن القفر

فمل عن بني حواء من نسل آدمٍ
لتنزل بين الجو والادم والعفر

ولابد في دنياك من نصب لها
وهل وضع الاثقال دهرك عن شفر

اليس هزبر الغاب وهو مملك
على الوحش يبغي الصيد بالناب والظفر

وانت اذا استعملت أكواب عسجد
اسأت ويجزيك الاناء من الصفر

لقد سكنت نفسي على الكره جسمها
فالفيتهـــا لاتستقــر من النفـــر

فان لم تنل وفرا من المال فاستعر
وفارة عقل فهي أزكى من الـــوفر

وان لم يكن لب الفتى مع شخصـــه
وليدا فمـــا يغري لنفـــع ولا يفري

يسمى غـــوي من يخـــالف كافرا
لك الويل أي الناس خال من الكفر

حصلنا على التمويه وارتاب بعضنا
ببعض فعند العين ريب من الشفر

★ ★ ★

وفي عام ٥٧٩هـ١١٨٣م زارالمنطقة الرحالة العربي – ابن جبير – قادما من حلب وأمضى ليلة في تل تاجر والتي تسمى الآن تل باجر فقال – ثم رحلنا من ذلك الموضع ، عند الثلث الماضي من الليل فأسرينا وسرنا الى ضحوة من النهار ثم نزلنا مريحين بموضع يعرف بباقدين في خان كبير يعرف بخان التركمان وثيق الحصانة ، وخانات هذا الطريق كأنها القلاع امتناعا وحصانة ، وأبوابها حديد ، وهي من الوثاقة في غاية · ثم رحلنا من هذا الموضع ، وبتنا بموضع يعرف بتـمْـنى في خان وثيق ، على الصفة المذكورة · ثم أسحرنا منه يوم السبت التاسع عشر لربيع الاول المذكور وهو

آخر يوم من يونية ، ورأينا عن يمين طريقنا بمقدار فرسخين ، يوم الجمعة المذكور ، بلاد المعرة (٣١)

★

تقدمنا برسالة الى السيد كامل شحادة نسأله فيها عن حقيقة واقع هذه الاماكن المذكورة باعتبارها تابعة لمنطقة معرة النعمان ولدائرة آثار المعرة فأفادنا بما يلي ـ الرحلة من الشمال الى الجنوب وقد ابتدأت من خان طومان ويممت الشطر الغربي من أراضي المطخ ـ مريحين ـ باقدين ، وهي القرية الحالية المعروفة الآن بـ ـ خوين الشعر ـ مجاورة لقرية حلبان ، وفيها خان كبير وحصانة داخل سور وماء وفير . ونسبت الى ـ الخوين ـ لهذا السبب . ومن قرية ـ خوين الشعر ـ الى القرى برنان والى الشرّة ، والى الصيادة ثم الى ام الرجيم وتل خزنة ، ثم الى ـ قرية الخوين ـ أي ـ خوين الكبير ـ ، حاليا ، ومن قبل بقليل تسمى ـ خوين بني عز ـ وفيها خان كبير وحصن ذكره بعض الرحالة . اذ تقع على الطريق القديمة الشرقية بين حلب وحماه ، حيث يأتي من بعد الخوين هذه المحطة الاخرى بقرية طيبة الاسم تابعة لحماه . بينما الاخيرة من قبلها تتبع معرة النعمان وهذه القرية الطيبة يلفظها الاجنبي ـ بتمنى ـ . وفعلا على يمين الطريق بين خوين الشعر وخوين الكبير أراضي معرة النعمان .. ـ أ. هـ

★

كما نضيف للقارىء بان ـ خوين الشعر ـ قرية تابعة لناحية سنجار عنها بـ ١٢ كم وعن المعرة ٣٥ كم وادلب ٩٥ كم سكانها ٩ نسمة تتبعها عدة مزارع سكانها أكثر منها .

(٣١) ابن جبير : نفس المصدر ص ٢٤٢

أما خوين الكبير فهي كذلك قرية من عمل المعرة ·

★

وفي رسالة أخرى بعد ابداء بعض الملاحظات على الرسالة الاولى أفادنا السيد شحادة قائلا ـ في الماضي كان ثمة طريقان قديمان ، وفي كل منهما محطات لنزول القوافل واحدهما يمر بمعرة النعمان، بينما الآخر لايمر بها ، وهو للشرق أبعد ، ولذلك ، كان من بعد حلب يمر بأراضي المطخ عبر شالسيس ـ قنسرين والعيس حاليا، ثم يتجه نحو الجنوب الى تل باجر ومريحين وخوين الشعر حيث لاتزال تحوي معالم ذلك · ويكمل بعد الى خوين بني عز أي الخوين الكبير حاليا ـ ومن بعدها الى طيبة الاسم فحماه أخيرا ·

والطريق الاخرى أحدث من سابقتها ، وهي اتخذت مساراً من بعد حلب الى خان طومان وخان السبل واحيانا يكون التوقف بسراقب، ثم من بعد خان السبل معرة النعمان ، وهذا ماتثبته اقامة الخانات على الطريق · وبالنسبة لقرية مريمين فغير واردة في المنطقة الشرقية وانما هي آخر قرية تابعة لمحافظة حماه من الجنوب الغربي على كتف سلسلة الجبل من الشرق قريبة من كفرلاها وتل دو التابعتين لمحافظة حمص ·

وأعود فاؤكد قولي بأنها مريحين بالحاء لا بالميم ، ولا أعتقد بوجود خطأ · وأما اسم ـ بتمنى ـ فليس بفارق كبير لتحريفه من ـ طيبة ـ الى ـ بتمنى ـ ألست تشاركني بذلك ؟ ـ

★ ★

أما الاب ـ لويس شيخو ـ الذي زار المحافظة عام ١٨٩٥ م قادما من دمشق ذكر لدى دخوله المحافظة القرى التالية :

ـ فكان أول مالقينا في طريقنا القمحانة وهي مزرعة حقيرة دعيت بذلك لشهرة قمحها ثم قطعنا ـ مرحتات ـ وليس فيها عارب ، وانما هي آثار باقية من أزمنة غابرة ترى فيها القبور المنقورة في الصخر والردوم والجدران الماثلة التي تنبىء عن حالها القديم . وهناك صهاريج ينزل اليها بالدرج منها قديمة من تاريخ الابنية الخربة ومنها أقرب عهدا اتخذها أصحاب البر فجعلوها على معبر الطريق ليشرب منها السابلة . وقد وجدنا أكثرها ناشفا .

ثم توغلنا في الصحراء مائلين الى الشمال ، تطيف بنا من كل جانب مزروعات القمح والشعير التي لها في فصل الربيع مرأى تنشرح بنضارتها النفس . فوصلنا في ضحى النهار الاعلى الى طيبة وهي قرية متوسطة في الكبر على ربوة تحدق بها الكروم . لها جامع وأهلها مسلمون . وبيوتها على شكل المخروط أو أقراص السكر مستديرة في أسفلها مروّسة في أعلاها . وكذلك أكثر القرى التي بين حماه وحلب . وهم يتخذون لبنيانها رجيع الدواب فيخلطونه بالتبن ثم يجعلونه أقراصا يجففونها في الشمس ، فاذا ارادوا ابتناء دار ركّبوا الاقراص على بعضها على سعة معلومة ثم طلوها بالملاط . ودفعا لحرارة القيظ ولبرد الشتاء يقيمون في باحة الدار جدارا ثانيا من الاقراص ينتهي الى سقف الدار ، ويملطونه من داخله كما فعلوا من خارجه . وهذه البيوت عادة لا منفذ لها غير بابها . واذا ارادوا أن يتخذوا دارين أو ثلاثة دور أو اكثر جمعوا بينها بسور وفتحوا لها منفذا في وسط السور . ومن رأى هذه الدور من بعيد ظنها مقبرة .

وقد سألت أهل تلك القرى عن سبب اتخاذهم هذه الهندسة لدورهم ، فأجابوا انها زي من الازياء اتخذه أجدادهم فجروا عليه تشبُّهاً • ولعل اولئك اتخذوا الشكل المخروط لئلا ينفذ المطر والثلج في وسط الدار أو بالحري لقلة الخشب اللازم لوضع السقف •

ثم سرنا نحو ساعة أخرى فوصلنا الى مرّة وفيها البطيخ الطيب • وكانت جبال النصيرية تلوح لنا عن شمالنا مع قلاع قديمة استولى عيلها الخراب • كقلعة سيجر وقلعة المضيق وهي أفامية الشهيرة •

★

١ ـ القمحانة : قرية تابعة لمحافظة حماه وكذلك قرية طيبة •

٢ ـ مرحتات : هي مزرعة مرحطاط الحالية جنوب المعرة تابعة لقرية كفر باسين والتابعة لناحية قرى مركز المعرة عنها بـ ١٣ كم وعن ادلب ٥٨ كم عدد سكانها ٢٠١ نسمة فيها عين ماء كسبيل • كانت مدينة يجمع تل بباطنها ذكرى أهميتها • وقد ذكرها تحتمس في مسار رحلته في النصف الثاني من الالف الثانية قبل الميلاد وللآن يجد المار منها بعض الخرائب القديمة •

وكذلك مر بها الرحالة ستيزن عام ١٨٠٥ قادما من المعرة فقال : ـ قبل التاسعة بعشرين دقيقة جلسنا على عشب أخضر ، في حقل فسيح ، وأصبح الطقس أفضل مما كان عليه وبقربنا كان ـ خان مرحطاط (هكذا كتبها بالعربية) Chân Mârhtat • جميع هذه المواقع فقيرة بالمياه ، وتساءلت متعجبا • كيف تستطيع القوافل المسير في مثل هذه الاماكن صيفا • وفجأة قرب تمركزنا قفزت

بعض الخنازير البرية ، فركض بعضهم خلفها بسهامهم وبنادقهم ليصطادوها ، ولكن بدون جدوى ٠

تبعد مرحطاط خمس دقائق عن هـذا الموقع ، وشاهدنا بعض الينابيع الصغيرة الجارية ، ماؤها نظيف ولكنها عميقة بحدود ٢٧ درجة ٠

بعد الظهر ٠: سقطت أمطار غزيرة ، وأصبحت الحقول وحلة جدا ٠٠ وعلى الطريق شاهدنا مدفنا وهو قبو على شكل حفرة طولية فيه قبر وثلاثة قبور أخرى ٠

ــ في الساعة الثالثة جلسنا في موقع اسمه Ahs عاس حيث العشب الكثير ٠٠٠ ــ



ذكر شيخو بأن مرحطاط ليس فيها سكان بينما هي الآن مسكونة ٠ وكذلك ذكر ستيزن وجود خان فيها وهذا الخان نرجح أنه مملوكي. أما عاس فهي الآن مزرعة تابعة لناحية خان شيخون عدد سكانها ١٧ نسمة ٠

والى الغرب من تل عاس بواحد كم مقبرة تعود للالف الثالثة ق ٠ م٠

٣ ــ ُمرّة : في نص شيخو هي خربة مرّه القريبة من كفرطاب ــ بين حيش وكفر طاب ــ وهي باسمها تنسب الى مار مارون ٠



وفي منتصف القرن السابع عشر قام البطريرك مكاريوس الحلبي بين سنتي ١٦٥٢ ــ ١٦٥٤ بعدة جولات لتفقد رعايا كنيسته ٠ وقد سجل ولده الشماس بولس بعضا من ذكريات رحلاته ٠ ومما

كتبه عن منطقة المعرة حادثة كنسية خاصة يهمنا منهااسم بلدة كان لها في التاريخ ذكر عظيم · كتب يقول ـ سنة ١٥٧٦ تنيح ابن هلال اسقف قارا الذي دفن في دمشق بعدئذ · وصير عوضا عنه مكاريوس الحموي اسقف اوخائيطا وسمى مخائيل وأقام في البطريكية أربع سنوات وعزل لاجل شرور عرضت بسببه وبقيت الفتن والشرور بين المسيحيين مدة سنة ـ وقد علق المحقق الخوري قسطنطين الباشا الراهب المخلص على ذلك بما يلي ـ اوخائيطا من مدن سورية القديمة باليونانية ، واسمها الحديث حناك ذكرها مكاريوس الحلبي انها قرب معرة حلب · وكان تابعا لها محرده ومعلتا وأفيون والبيا وبسارين ونقل عن أحد كهنة حماة الشيوخ انه كان على زمانه في محرده أربعة آلاف انسان وكان فيها يقيم مطران اوخائيطا واخر الاساقفة على الذين تشرطنوا على هذا الكرسي ملاشيا الذي مات بحلب بحضور كهنة حلب الذين كان فيهم الخوري بولس والد مكاريوس قبل سنة ١٥٩٧ التي فيها قسم هذه الابرشية البطريرك ابن زياده بين مطران حمص ومطران حماه (٣٢) ·

★

اذن فان ـ حناك ـ من المدن القديمة في المحافظة تعود الى العهد اليوناني ـ القرن الرابع قبل الميلاد ـ حيث كان اسمها اوخائيطا وهي الآن تابعة لمنطقة المعره · والحصن يقع جنوبي المعره من الغرب بحوالي ساعة ، ويعتبر مزرعة لاهل قرية كفر رومة ·
ذكرها ياقوت الحموي بقوله ـ 'حناك : بالضم ، وآخره كاف أيضا : حصن كان بمعرة النعمان ، وكان حصنا مكينا خرّبه عبدالله ابن

---

(٣٢) بولس الشماس : نفس المصدر صد ٢٦ ·

طاهر في سنة ٢٠٩ فيما خرب من حصون الشام لماعصى نصر ابن شيث ، فلما ظفر به خرب الحصون لئلا يطمع غيره في مثل فعله ، وشعراءُ المعرة يكثرون منذكره في غزلهم ، قال ابن أبي حَصينة المعري :

وزمان لهو بالمعرة مونقٌ
بسياثها وبجانبي هرماسها
أيام قلت لذي المودة : سقّني
من خَندريس حُنا ِكها أوحاسها

وقال أبو المجد محمد بن عبدالله بن محمد بن عبدالله بن سليمان ، ومحمد بن عبدالله بن سليمان هو أخو أبي العلاء المعري :

يامغاني الصِّبا بباب حناك
لابباب الغضا ووادي الأراك
لاتخطّتك غاديات الثّريا
إن تعدّتك رائحات السِّماك
أسلفتك الأيام فيك سروراً
فاسترد السرور ماقد عراك
وعزيز عليّ أن حكم الدهـ
ـرُ على رَغمِ ناظري بلاك
بك وجدي اذا النجوم استقلّت
لهمومي في كثرة واشتباك

بينما ذكر البغدادي بأن عبدالله بن طاهر خربه بعد المائتين وذكر ابن الملاّ في تاريخه انه في سنة ٢٠٧ هـ ولىّ المأمون عبدالله بن طاهر مصر والشام جميعه وأمره بمحاربة نصر بن شبث العقيلي ، الذي كان غاضبا لقتل الامين ، فسار من الرقة الى الشام وضبطه جميعه وهدم سور معرة النعمان وحصن الكفر وحناك ومعظم الحصون الصغار • كما حدث زلزال سنة ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م دمر الكثير من معالم المدن الشامية بمـا فيهـا كنيسة حناك الكبرى وغيرها •

بقي من آثاره جدار من حجارة ضخمة ارتفاعه بضعة أذرع • وجدير بالذكر ان أحد أبواب بلدة معرة النعمان كان يسمى ـ باب حناك ـ والذي فتحه سعد الدولة ومعه بنو كـلاب سنة ٣٦٤ هـ / ٩٧٤ م عندما عصى زهير الحمداني مولاه في المعرة ••

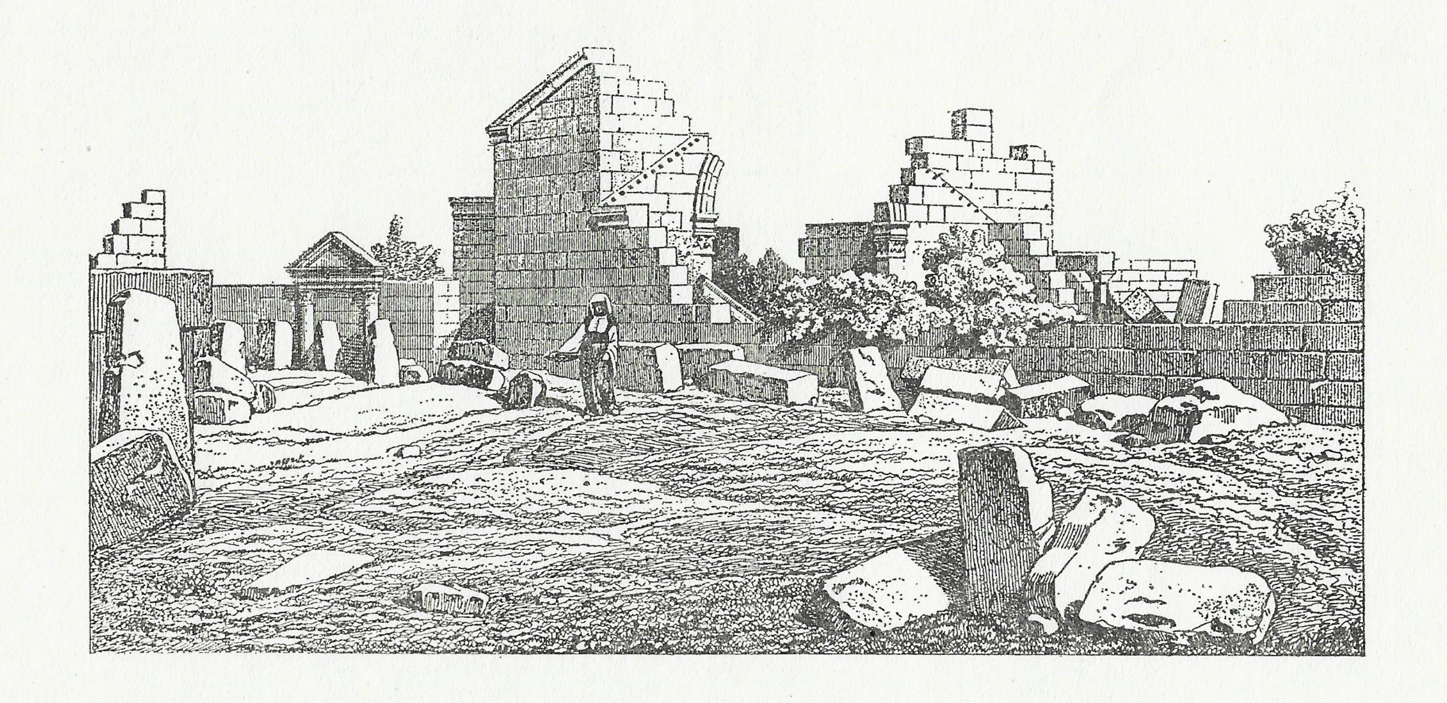


وأما حاس فهي قرية تقع الى الجنوب الغربي من معرة النعمان تابعة لناحية كفر نبل عنها بـ ٢ كم وعن المعرة ٨ كم وعن ادلب ٤٨ كم عدد سكانها ٣٣٠٨ نسمة •

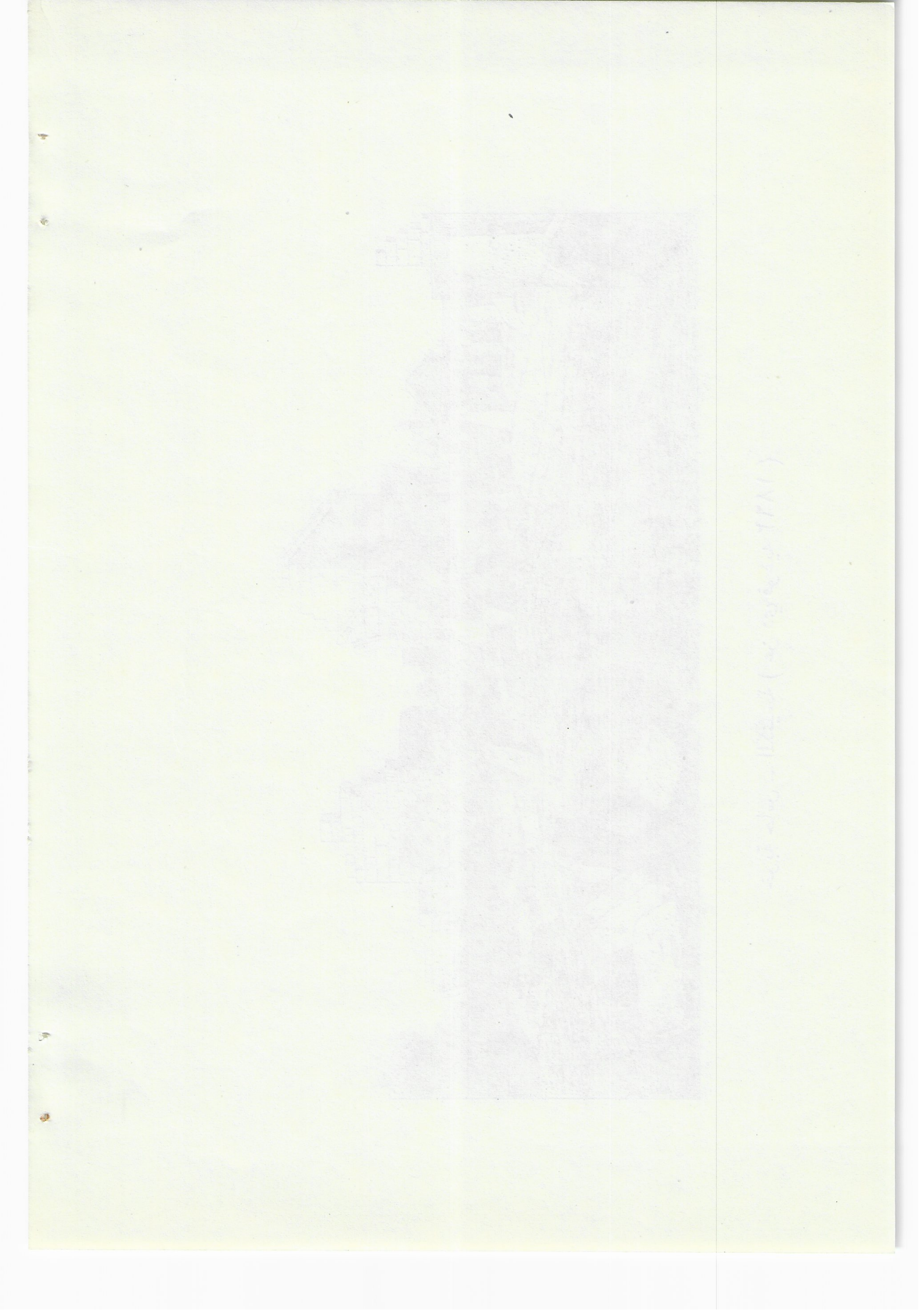
عرفها ياقوت بقوله : حاس بالسين المهملة في أرض المعرة • كمـا ذكرها شرف الدين شيخ الشيوخ بقصيدة ، هنأ بها الملك المنصور صاحب حماه ، عندما أعاد اليه قطز المعرة من أيدي الحلبيين فقال :

طـربت برجعتهـا اليك كأنمـا

سكرت بخمرة حاسـها أوحيشهـا



خربة حاس ـ الكنيسة (عن دي فوغيه ١٨٦٢)



وهذه القرية غنية بالآثار القديمة بعضها قائم وسالم ٠٠

ولكن الى الشمال منها بـ ٢ كم بطريق غير معبد ـ للاسف ـ تقع خربة حاس والتي تدعى كذلك شَنشراح ٠ تعد أعظم مجموعة من خرائب المنطقة ففيها مدافن تثير الروعة وضرائح ودارات وبرج ومنشآت دينية من أهمها كنيستها الكبيرة المرفق صورة عنها في هذا الكتاب ، آخر هديتنا في نهاية رحلتنا في منطقة معرة النعمان ٠



أطلنا زيارتنا في منطقة معرة النعمان لنقدم للقارىء الكريم مايوفي بالغرض ، ويحقق الغاية ٠٠٠ والآن تستدعينا منطقة ريحا وتدعونا لزيارتها ، لنتنشق في جبلها عبير الحضارة ، ونتمتع بأشجارها المثمرة ، ونعبق هواءها العليل ، ونشرب من سبلها العذاب فهيا بنا نلبي دعوتها ٠٠ ونرحل اليها ٠

تراجم بعض الرحاله

١ ـ أوليا جلبي :

كان يسمي نفسه ـ اوليا محمد ظللي بن درويش سائح العالم ـ سياح عالم ـ ولد بالآستانة عام ١٠٢٠ هـ ١٦١١ م وتوفى عام ١٠٩١ هـ ١٦٨٠ م

قام خلال أربعين عاما برحـلات طويلة متواليـة ، واشترك في الحملات الاوربية كالمجر والنمسه أيام حكم ابراهيم ومحمد الرابع نشر مشاهداته باسم ـ تاريخ سيَّاح ـ مخطوط بفينا ، فلوكل رقم ١٢٨١ ٠

وتسمى نسخة اسطنبول المطبوعة ـ سياحت نامة ـ يقع في عشرة أجزاء ٠

كما توجد مخطوطات كثيرة لكتابه في تركية ومكتبات اوربه ٠

٢ ـ ابن بطـوطة :

محمد بن عبد الله المولود بطنجة عام ٧٠٢ هـ ١٣٠٤ م درس الفقه والادب ٠ خرج من بلده في الثانية والعشرين من عمره في أول رحلة له ٧٢٥ هـ ١٣٢٤ م قاصدا الحج زار خلالها مصر والشام وغيرهم ٠ رحـلاتـه الثلاث استغرقت زهاء ٢٩ سنة ووصف مشاهـداته في فلسطين والحجاز والعـراق وبـلاد العجم وآسيا الصغرى وبلاد خوارزم والهند والصين ٠ كتابه تحفة النظار في غرائب الامصـار وعجائب الاسفار ـ والمشهور برحلـة ابن بطوطة وقد ترجم الى لغات عدة ٠

يعتبر أعظم رحالة عربي عرفه العرب في تاريخهم الوسيط قدرت مسافة رحلاته ١٢٠,٠٠٠ كم ٠

عرف بدقة ملاحظاته وأمانته في الوصف والرواية وفكاهة الاسلوب توفي عام ٧٨٠ هـ ١٣٧٨ م ٠

٣ ـ ابن جبير :

أبو الحسن محمد بن أحمد ولد عام ٥٤٠ هـ ١١٤٥ م في بلنسية بالاندلس وتوفي بالاسكندرية عام ٦١٤ هـ ١٢١٧ م ٠ قام برحلات ثلاث زار خلالها القاهرة ومكة والكوفة والموصل وحلب ودمشق وعكا وصقلية وسردينية ٠

سجل رحلته على شكل مذكرات يومية جمعها تلاميذه ونشروها بعده باسم ـ تذكرة بالاخبار عن اتفاقات الاسفار ـ لكنها عرفت فيما بعد باسم ـ رحلة ابن جبير ـ ٠

٤ ـ الخيارى :

ابراهيم عبد الرحمن الخيارى المدني مؤلف كتاب ـ تحفة الادباء وسلوة الغرباء ـ توفي عام ١٠٨٣ هـ ٠

برع في الحديث والمعارف وفنون الادب والتاريخ ٠ ورحلته هذه الفها حين مفارقته المدينة المنورة ٠

زار دمشق سنة ثمانين وألف ٠ اجتمع به المحبي مرارا ، وترجم له في كتابه خلاصة الاثر في أعيان القرن الحادي عشر ٠

٥ ـ كبريت :

اسم شهرة ـ محمد بن عبد الله الحسين الموسوي ١٠١٢ ـ ١٠٧٠ هـ ولد بالمدينة اسم مؤلفه ـ رحلة الشتاء والصيف ـ كتبها بعد سفره الى بلاد الروم التي توجه اليها سنة تسع وثلاثين وألف · زار دمشق ثم القاهرة ·

له عدة مؤلفات منها ـ نصر من الله وفتح قريب ـ ·

٦ ـ الادهمي :

أحمد بن منصور المعروف بالادهمي الحنفي الطرابلسي العالم · اورق في دمياط · اشتغل بالعلوم وتولى الافتاء فيها · ثم نقابة الاشراف بمصر · ولد عام ١١١٩ هـ وتوفى ١١٥٩ هـ ·

كان في انشائه سرعة فكاهة ونباهة كلية ·

٧ ـ رسل :

هما الطبيبان الانكليزيان الاخوان الكسندر و باتريك رسل · تعاقبا في تطبيب الجالية البريطانية في حلب ، ستا وعشرين سنة من عام ١٧٤٢ الى ١٧٦٨ · دونا انطباعاتهما عن حلب وولاية حلب في كتابين ضخمين ، صدرا في طبعتين الاولى في لندن عام ١٧٥٦ والثانية ١٧٩٤ كذلك في لندن ·

أما الطبعة التي اعتمدنا عليها فهي :

RUSSEL (Alex) : the natural history of Aleppo London 1794 ,

٨ ـ هنري موندريل :

رحالة انكليزي زار المنطقة سنة ١٦٩٧ وسجل انطباعاته في كتابه ـ رحلة من حلب الى القدس ـ طبع في لندن عام ١٨٤٨ ·

٩ ـ فـولنـي :

قسطنطين فرانسوا Volney ١٧٥٧ ـ ١٨٢٠ ـ من أشهـر الرحالة الفرنسيين بل الاوربيين ٠

سافر الى الشرق عام ١٧٨٣ ووصف أحواله في كتابه القيم ـ رحلة الى سورية ومصر ـ

رحل وعمره ستة وعشرون عاما ، ولكنه في عمق نظرته وتحليلاته سبق غيره من الرحالة في الشهرة وبعد النظر ٠

١٠ ـ بوركهارد ـ جون لويس :

من مواليد ١٧٨٤ م سويسري الاصل ، انجليزي النشأة ٠

صاحب أهم اكتشافين في الشرق الاوسط مدينة ـ البتراء ـ و ـ أبو سمبل ـ ٠ كتاباته تخلو من الاثارة لانه لم يدونها بنفسه ٠ التحق بجامعة كمبردج لدراسة اللغة العربية والطب وعلم الفلك عام ١٨٠٨ م ٠ أطلق لحيته ومشى مسافات طويلة ٠ عاش في حلب عامين للتمكن من لغته العربية ٠ ودرس الاسلام وأسلم ، قائما بالصلاة في أوقاتها وصل الى القاهرة في كانون الاول عام ١٨١٢ بعد زيارته سورية وزار مكة بزي التجـار السوريين واعترف مفتيها بعلمه وسعة اطلاعه ٠

سمي بالشيخ ابراهيم اللوزاني أو ابراهيم بن عبد الله الشامي توفي عام ١٨١٧ في القاهرة ٠



جدول الاحداث الهامة

TABLE CHRONOLOGIQUE

النصف الثاني من القرن الرابع الميلادي : الامبراطور الروماني فالنس أو (والنس فلافيوس) الذي حكم بين ٣٦٤ ـ ٣٧٨ يدمر معرة النعمان وغيرها من مدن القطر ٠

ـ ١٧ هـ /٦٣٧ م : العرب المسلمون يفتحون أراضي المحافظة : معرة النعمان ـ قنسرين ـ سرمين ـ معرة مصرين ـ مرتحوان وغيرهم ٠٠٠

ـ ١٠١ هـ / ٧٢٠ م : وفاة الخليفة عمر بن عبدالعزيز في دير نقيرة قرب معرة النعمان (دير شرقي الآن)٠

ـ ٢٠٧ هـ / ٨٢٢ م: عبدالله بن طاهر يدمر حصن حناك وسور معرة النعمان وحصن الكفر ٠

ـ ٢٤٥ هـ/ ٨٥٩ م : زلزال دمر كنيسة حناك الكبرى وغيرها من بلاد الشام ٠

ـ ٣٥٧ هـ / ٩٦٨ م : نقفور فوكاس الامبراطور البيزنطي يغزو معرة النعمان وغيرها من بلدان المنطقة وقراها ٠

ـ ٣٦٣ هـ / ٩٧٣ م ميلاد أبي العلاء المعري ٠

ـ ٤٤٩ هـ / ١٠٥٧ م : وفاة أبي العلاء المعري ٠

ـ ٤١٨ هـ / ١٠٢٧ م : الامير صالح بن مرداس يحاصر معرة النعمان وتدخل ابو العلاء لانقاذها ·

٤٩٢ هـ / ١٠٩٨ : احتلال الصليبيين بلدة معرة النعمان وغيرها من مدن المنطقة ·

ـ ٥١٩ هـ / ١١٢٥ م : الملك آق سنقر البرسقي يسترد كفر طاب من الصليبيين ·

ـ ٥٧١ هـ / ١١٧٥ م : زلزال دمر بعض معالم كفرطاب ·

ـ ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م : اجتياح التتار بلدة معرة النعمان وتخريب قلعتها ودك أسوارها ·

ـ منتصف القرن السابع عشر الميلادي / منتصف القرن الحادي عشر الهجري : اهتمام محمد باشا الكوبرلي بادلب الصغرى وجسر شغر ، وبناء العمارات والخانات فيهما ·

فهرس الاعلام

أ

ب

ت

ث

ج

ح

خ

د

ذ

ص

ط

ظ

ع

غ

ل

م

ف

ق

ك

فهرس المدن والاماكن

أ

ب

ت

ث

ج

ح

خ

د

ر

ز

س

ش

ص

ط

ع

ل

م

ن

الفهرس

تنويـــه

ينوه المؤلف بحصوله على نصوص أخرى لرحالة آخرين ، تتضمن موضوعات جديدة وطريفة عن مدن وقرى مرت في هذا الجزء ك ادلب وسراقب وسرمين ومعرة النعمان وخان شيخون وغيرهم ··· وسيفرد لها بحثا مستقلا في الجزء الثاني وتعد ملحقة بالجـزء الاول ·

يرحب المؤلف بكل وثيقة أو صورة أو مخطوط يساعده في متابعة بحثه ··· آملا من القراء الكرام كل مساعدة ممكنة ·

محافظة ادلب
بوابة الحضارة
السورية

صدر منها : الرحالة في محافظة ادلب ـ الجزء الاول

وسيصدر منها :

١ ـ الرحالة في محافظة ادلب ـ الجزء الثاني

٢ ـ ادلب ٠٠ البلدة المنسية !

٣ ـ سرمين ٠٠ أم المدن !

٤ ـ محافظة ادلب في العهد العثماني ٠

٥ ـ دليل بلدان محافظة ادلب وقراها (معجم)

٦ ـ حارم ٠٠ دمشق الصغيرة !

وغيرهم ٠٠٠٠٠٠٠٠٠

ترقبوا ٠٠٠

« موسوعة دول العالم »

ترجمة واعداد :

فايز قوصره ـ ماريا قوصره

أول موسوعة في الوطن العربي تبحث في دول العالم والمستعمرات والمنظمات الاقليمية والدولية ٠٠ زاد كل مثقف في الوطن العربي ٠

DÉPARTÉMENT D' IDLEB

PORTAIL DE LA CIVILISATION SYRIENNE

- 1 -

FAYEZ KOSARA

« les voyageurs à travers le départément d'idleb »

PANORAMA HISTORIQUE

VOLUME 1